الشروق على الفروق

بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق

أعاذنا الله منها ومن أهلها جميعا

ومعه

الشرح المختصر الحصيف لمراتب الدين الإسلامي الحنيف

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة



توزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالفروق

وَهَذِي تُحفَةٌ مِن فَضلِ رَبِّي إِلَهِ العَرشِ بِالمَكنُونِ أدرَى
شَرَحتُ أُصُولَهَا لِتَكُونَ عَونًا لِأَهلِ الفَضلِ إِيمَانًا وَقَدرَا
وَقُمتُ بِنَشرِهَا لِأَنَالَ ذُخرًا فَحَمدًا لِلإِلَهِ كَذَاكَ شُكرَا
عَلَى عَونٍ مَدِيدٍ بَل عَطَاءٍ يَفُوقُ بِقَدرِهِ بَرًّا وَبَحرَا
لَقَد كَثُرَ الكَلَامُ بِشَأنِ كُفرٍ وَشِركٍ مُظلِمٍ بِالبَحثِ أَحرَى
وَفِسْقٍ ظَاهِرٍ مِن بَعدِ ظُلمٍ وَكُفرٍ بَاطِنٍ يَا رَبُّ غُفرَا
زَبَرتُ بُحُوثَهَا حَتَّى تَجَلَّت وَبَانَ ضِيَاؤُهَا كَالشَّمسِ ظُهرَا
يَلَذُّ رَحِيقَهَا عَلَمٌ شَهِيرٌ بِحُبِّ العِلمِ سِرًّا ثُمَّ جَهرَا
هَنِيئًا بَل مَرِيئًا كُلَّ حِينٍ أَخَا الإِحسَانِ دُنيَا ثُمَّ أُخرَى
رِجَالَ العِلمِ أَنتُم قَد ظَفِرتُم بِخَيرِ شَرِيعَةٍ لِلنَّاسِ طُرًّا
فَصُونُوا عِلمَكُم مِن كُلِّ سُوءٍ يَهُدُّ أُجُورَكُم وَيُحِلُّ نُكرَا
وَصُونُوا نَهجَكُم مِن كُلِّ غُمرٍ[1] لَئِيمٍ مُحدِثٍ بَغيًا وَشَرًّا
وَنَهجَ الصَّالِحِينَ بِهِ أَخَذتُم فَقُومُوا قَانِتِينَ وَسُدُّوا ثَغرَا
وَأَسأَلُ خَالِقِي عِلمًا وَفَهمًا وَخَيرًا وَاسِعًا كَرَمًا وَبِرًّا
وَيَومَ الحَشرِ أَسأَلُهُ نَعِيمًا وَمَحوًا لِلذُّنُوبِ كَذَاكَ سِترَا

---

(١) وردت كلمة (غمر) بضم فائها، وهو الغين، وفتحها وكسرها، فأما الضم (الغُمر): فهو الجاهل الغبي الذي لا يحسن شيئًا، وأما الغَمر: فهو الماء الكثير، وأما الغِمر: فهو الحقود.

قال في «مثلث قطرب»:

الغَمرُ ماءٌ غَزُرَا، والغِمرُ حِقدٌ سُتِرَا وَالْغُمْرُ ذُو جَهْلٍ سَرَى فِيْهِ وَلَمْ يُجَرَّبِ

وَأَخْـتِـمُ تُـحـفَـتِـي بِـصَـلَاةِ رَبِّـي عَلَى الـمَـبعُـوثِ بِـالـوَحـيَـيـنِ نُـورَا
إِمَـامِ الـمُـرسَـلِـيـنَ وَخَـيـرِ هَـادٍ وَمَـن وَالَـى الـنَّـصَـائِـحَ وَاسـتَـمَـرَّا
عَـلَـى حُـبِّ الـصَّـلَاحِ يَـرُومُ زُلـفَـى مِـنَ الـرَّحـمَـنِ ذِكـرَى ثُـمَّ بُـشـرَى

* * *

مقدمة منظومة الفروق

اَلْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ وَصَـلَّـى الـلَّـهُ عَـلَـى نَـبِـيِّـهِ وَمُـجـتَـبَـاهُ
مُـحَـمَّـدِ الْـهَـادِي وَخَـيرِ الـخَـلْـقِ وَمَـن أَتَـانَـا مُـرسَـلًا بِـالـحَـقِّ
وَالآلِ وَالـصَّـحـبِ الـكِـرَامِ الـفُـضَـلَا أَئِـمَـةِ الـدِّيـنِ الـهُـدَاةِ الـنُّـبَـلَا
وَبَـعـدُ ذِي مَـنـظُـومَـةٌ مُـفِـيـدَه ضَـمَّـنـتُـهَـا الـبُـحُـوثَ فِـي الـعَـقِـيـدَه
أَرجُـو بِـهَـا ذُخـرًا مِـنَ الـلَّـهِ الـعَـلِـي وَالـجَـنَّـةَ الـعُـلـيَـا وَحُـسـنَ الـمَـنـزِلِ
وَقَـبـلَ أَن أَشـرَعَ فِـي الـفُـرُوقِ بَـيـنَ عَـظِـيـمِ الـذَّنـبِ وَالـفُـسُـوقِ
وَبَـيـنَ كُـفـرٍ وَنِـفَـاقٍ عُـرِفَـا وَبَـيـنَ ظُـلـمٍ يَـا وَرِيـثَ الـمُـصـطَـفَـى
سَـأَذكُـرُ الـتَّـوحِـيـدَ أَصـلَ الـدِّيـنِ فَـاسـمَـع لِـنَـظـمٍ وَاضِـحٍ مُـبِـيـنِ
كِـتَـابُ رَبِّـي كُـلُّـهُ تَـوحِـيـدُ وَنَـاطِـقٌ بِـهِ كَـذَا شَـهِـيـدُ
وَإِنَّ ذَا الـتَّـوحِـيـدَ قَـسـمُـهُ جَـرَى فِـي كُـتُـبِ الـعِـلـمِ فَـحَـقِّـق وَانـشُـرَا
فَـالأَوَّلُ الـقَـصـدُ يُـسَـمَّـى بِـالـطَّـلَـبْ لِـتُـفـرِدَ الـرَّبَّ بِـمَـا لَـهُ وَجَـبْ
وَتَـخـلَـعَ الـنِّـدَّ جِـهَـارًا ظَـاهِـرَا فَـلَـيـسَ شَـيءٌ لِـلإِلَـهِ نَـاصِـرَا
وَتَـعـقِـدَ الـعَـزمَ عَـلَـى حُـسـنِ الـعَـمَـلْ وَتُـخـلِـصَ الـقَـصـدَ لِـرَبِّـكَ الأَجَـلّ
فَـذَا هُـوَ الـتَّـوحِـيـدُ فِـي الـعِـبَـادَه فَـاشـكُـر إِلَـهِـي تُـدرِكِ الـزِّيَـادَه
وَالـثَّـانِـي عِـلـمِـي كَـذَاكَ خَـبَـرِي فَـافـهَـم رَعَـاكَ الـلَّـهُ وَالـرَّبَّ اذكُـرِ
مَـوضُـوعُـهُ الـبَـحـثُ عَـنِ الـلَّـهِ أَتَـى ذَاتًـا وَوَصـفًـا ثُـمَّ فِـعـلًا يَـا فَـتَـى
وَثَـمَّ تَـقـسِـيـمٌ كَـذَا قَـدِ اشـتَـهَـرْ إِلَـى ثَـلَاثَـةٍ بِـتَـفـصِـيـلٍ ظَـهَـرْ
أَوَّلُـهَـا فِـعـلُ الإِلَـهِ الـرَّازِقِ وَعَـكـسُـهُ الـثَّـانِـي فَـدَلِّـلْ وَاصـدُقِ
وَالـثَّـالِـثُ الإِيـمَـانُ بِـالـصِّـفَـاتِ وَهَـكَـذَا الأَسـمَـاءِ ثُـمَّ الـذَّاتِ
وَالأَمـرُ وَالـنَّـهـيُ كِـلَاهُـمَـا عُـلِـمْ مُـكَـمِّـلًا حَـقًّـا لِـتَـوحِـيـدٍ رُسِـمْ
وَمَـا أَتَـى مِـنـهُ بِـوَعـدٍ وَاضِـحِ لِأُمَّـةِ الـتَّـوحِـيـدِ وَالـتَّـنَـاصُـحِ

مقدمة منظومة الفروق

اَلْـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ وَصَـلَّـى الـلَّـهُ عَـلَـى نَـبِـيِّـهِ وَمُـجْـتَـبَـاهُ
مُـحَـمَّـدِ الـهَـادِي وَخَـيـرِ الـخَـلْـقِ وَمَـن أَتَـانَـا مُـرسَـلًا بِـالـحَـقِّ
وَالآلِ وَالـصَّـحـبِ الـكِـرَامِ الـفُـضَـلَا أَئِـمَّـةِ الـدِّيـنِ الـهُـدَاةِ الـنُّـبَـلَا
وَبَـعـدُ ذِي مَـنـظُـومَـةٌ مُـفِـيـدَه ضَـمَّـنـتُـهَـا الـبُـحُـوثَ فِـي الـعَـقِـيـدَه
أَرجُـو بِـهَـا ذُخـرًا مِـنَ الـلَّـهِ الـعَـلِـي وَالـجَـنَّـةَ الـعُـلـيَـا وَحُـسـنَ الـمَـنـزِلِ
وَقَـبـلَ أَن أَشـرَعَ فِـي الـفُـرُوقِ بَـيـنَ عَـظِـيـمِ الـذَّنـبِ وَالـفُـسُـوقِ
وَبَـيـنَ كُـفـرٍ وَنِـفَـاقٍ عُـرِفَـا وَبَـيـنَ ظُـلـمٍ يَـا وَرِيـثَ الـمُـصـطَـفَـى
سَـأَذكُـرُ الـتَّـوحِـيـدَ أَصـلَ الـدِّيـنِ فَـاسـمَـع لِـنَـظـمٍ وَاضِـحٍ مُـبِـيـنِ
كِـتَـابُ رَبِّـي كُـلُّـهُ تَـوحِـيـدُ وَنَـاطِـقٌ بِـهِ كَـذَا شَـهِـيـدُ
وَإِنَّ ذَا الـتَّـوحِـيـدَ قِـسـمُـهُ جَـرَى فِـي كُـتُـبِ الـعِـلـمِ فَـحَـقِّـق وَانـشُـرَا
فَـالأَوَّلُ الـقَـصـدُ يُـسَـمَّـى بِـالـطَّـلَـبْ لِـتُـفـرِدَ الـرَّبَّ بِـمَـا لَـهُ وَجَـبْ
وَتَـخـلَـعَ الـنِّـدَّ جِـهَـارًا ظَـاهِـرَا فَـلَـيـسَ شَـيءٌ لِـلإِلَـهِ نَـاصِـرَا
وَتَـعـقِـدَ الـعَـزمَ عَـلَـى حُـسـنِ الـعَـمَـلْ وَتُـخـلِـصَ الـقَـصـدَ لِـرَبِّـكَ الأَجَـلّ
فَـذَا هُـوَ الـتَّـوحِـيـدُ فِـي الـعِـبَـادَه فَـاشـكُـر إِلَـهِـي تُـدرِكِ الـزِّيَـادَه
وَالـثَّـانِـي عِـلـمِـي كَـذَاكَ خَـبَـرِي فَـافـهَـم رَعَـاكَ الـلَّـهُ وَالـرَّبَّ اذكُـرِ
مَـوضُـوعُـهُ الـبَـحـثُ عَـنِ الـلَّـهِ أَتَـى ذَاتًـا وَوَصـفًـا ثُـمَّ فِـعـلًا يَـا فَـتَـى
وَثَـمَّ تَـقـسِـيـمٌ كَـذَا قَـدِ اشـتَـهَـرْ إِلَـى ثَـلَاثَـةٍ بِـتَـفـصِـيـلٍ ظَـهَـرْ
أَوَّلُـهَـا فِـعـلُ الإِلَـهِ الـرَّازِقِ وَعَـكـسُـهُ الـثَّـانِـي فَـدَلِّـلْ وَاصـدُقِ
وَالـثَّـالِـثُ الإِيـمَـانُ بِـالـصِّـفَـاتِ وَهَـكَـذَا الأَسـمَـاءِ ثُـمَّ الـذَّاتِ
وَالأَمـرُ وَالـنَّـهـيُ كِـلَاهُـمَـا عُـلِـمْ مُـكَـمِّـلًا حَـقًّـا لِـتَـوحِـيـدٍ رُسِـمْ
وَمَـا أَتَـى مِـنـهُ بِـوَعـدٍ وَاضِـحِ لِأُمَّـةِ الـتَّـوحِـيـدِ وَالـتَّـنَـاصُـحِ

فَـذَاكَ تَـكـرِيـمٌ مِـنَ الـلَّـهِ الـعَـلِـي — لِعُصبَةِ الإِيمَانِ فَاعقِل وَاعمَلِ
وَمَـا أَتَـى فِـيـهِ مِـنَ الـوَعِـيـدِ — لِأُمَّـةِ الإِشـرَاكِ وَالـتَّـنـدِيـدِ
فَـذَا هُـوَ الـعَـدلُ وَغَـيـرُهُ جَـفَـا — فَاحذَر حَمَاكَ اللَّهُ وَالحَقَّ اعرِفَا
وَذَا هُـوَ الـمَـعـنَـى الَّـذِي أَمـلَاهُ — ذَاكَ الإِمَـامُ الـمُـؤمِـنُ الأَوَّاهُ(١)
مَـن جَـاهَـدَ الأَعـدَا بِـعِـلـمٍ وَقَـلَـمْ — وَحَارَبَ الأَهـوَا وَبِـالـلَّـهِ اعـتَـصَـمْ
أَعـنِـي بِـهِ ابـنَ الـقَـيِّـمِ الـرَّبَّـانِـي — مَن شَيخُهُ المُجَدِّدُ الحَرَّانِي(٢)
وَمَـعـهُـمَـا أَهـلُ الـحَـدِيـثِ وَالأَثَـرْ — أَئِـمَّـةُ الـخَـيـرِ وَسَادَاتُ الـبَـشَـر
فِـي دَعـوَةِ الـتَّـوحِـيـدِ يَـا مُـنِـيـبُ — فَـافـهَـم رَعَـاكَ الـلَّـهُ يَـا أَرِيـبُ
وَبَـعـدَ هَـذَا فَـاسـتَـمِـع لِـمَـا رُقِـمْ — مِمَّا نَظَمتُ فِي الفُرُوقِ وَالتَزِمْ
بِـمَـا أَتَـى فِـيـهِ مِـنَ الـمَـعَـانِـي — مِن شَرعِنَا الأَسمَى عَظِيمِ الشَّانِ

منظومة

الفروق بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق

-أعاذنا اللَّه منها ومن أهلها جميعًا-

فصل في أنواع الكفر

وَالـكُـفـرُ نَـوعَـانِ فَـكُـفـرٌ أَكـبَـرُ — وَالثَّانِي مِنهُمَا فَذَاكَ الأَصغَرُ
وَأَكـبَـرُ الـنَّـوعَـيـنِ أَقـسَـامٌ أَتَـى — دَوَّنَـهَـا الـحُـذَّاقُ فَـاقـرَأ يَـا فَـتَـى
اَلأَوَّلُ الإِنـكَـارُ وَالـتَّـكـذِيـبُ — وَأَولِـهِ الـجُـحُـودَ يَـا أَرِيـبُ
ثَـالِـثُـهَـا الـعِـنَـادُ وَاسـتِـكـبَـارُ — وَالـرَّابِـعُ الـنِّـفَـاقُ يَـا أَخـيَـارُ
وَالـخَـامِـسُ الـشَّـكُّ فَـكُـن مُـصَـدِّقَـا — بِـمِـلَّـةِ الإِسـلَامِ تُـحـرِزِ الـتُّـقَـى
وَالـسَّـادِسُ الإِعـرَاضُ عَـن شَـرعٍ أَتَـى — عَن سَيِّدِ الخَلقِ صَرِيحًا مُثبَتَا

---

(١) الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالسَّابِعُ الإِلحَادُ ثُمَّ الثَّامِنُ فَرِدَّةٌ صَرِيحَةٌ يَا مُؤمِنُ
وَكُلُّ نَوعٍ مِن نَظِيرِهَا وَرَد فَاحكُم عَلَيهِ مِثلَهَا بِدُونِ رَد
وَالكُفرُ بِالفِعلِ وَبِالقَولِ ثَبَتْ فِي مُحكَمِ التَّنزِيلِ آيَاتٌ أَتَتْ
كَذَاكَ بِالقَلبِ وَنَصُّهُ ظَهَرْ فِي مَصدَرِ التَّشرِيعِ آيٍ وَأَثَرْ
وَمَا سِوَى هَذِي فَكُفرٌ عَمَلِي فَافهَم وَحَقِّق يَا وَرِيثَ الرُّسْلِ
كَكُفرِ نِعمَةٍ وَقَتلِ المُسلِمِ وَرَغبَةٍ عَن وَالِدٍ فَلتَفهَمِ
وَمَن يَقُل بِالنَّوءِ قَد مُطِرنَا فَذَاكَ كَافِرٌ كَمَا عَلِمنَا
كَذَا نِيَاحَةٌ بِصَوتٍ مُرتَفِع فَذَاكَ كُفرٌ وَبِنَصٍّ قَد رُفِع
وَالطَّعنُ فِي الأَنسَابِ شَأنُهُ خَطَرْ وَفِعلُهُ كُفرٌ بِنَصٍّ مُعتَبَرْ
وَامرَأَةٌ حَقَّ العَشِيرِ أَهمَلَتْ وَهَكَذَا الإِحسَانَ مِنهُ أَنكَرَتْ
وَمَن يُجَامِع زَوجَةً فِي الدُّبُرِ فَذَاكَ مَلعُونٌ بِنَصِّ الأَثَرِ
وَكُفرُهُ عَنِ النَّبِيِّ قَد وَرَدْ وَالنَّصُّ فِيهِ ثَابِتٌ وَمُعتَمَدْ
لَا حَبَّذَا الكُفرُ وَسَاءَ الكَافِرُ وَحَبَّذَا الإِيمَانُ يَا عَبَاقِرُ
وَاحذَرْ مِنَ التَّكفِيرِ وَالتَّفسِيقِ وَهَكَذَا التَّبدِيعُ يَا رَفِيقِي
مِن دُونِ حَقٍّ أَو دَلِيلٍ يُتَّبَعْ فَتَحمِلَ الوِزرَ وَفِي الشَّرِّ تَقَعْ
وَدَع غُلُوًّا وَابتَعِدْ مِنَ الجَفَا وَالوَسَطَ اسلُك يَا وَرِيثَ المُصطَفَى
وَمَن رَمَى بِالكُفرِ عَبدًا مُسلِمَا حَقَّت عَلَى البَاغِي يَقِينًا مِنهُمَا
دَلِيلُهُ نَصٌّ صَحِيحٌ قَد أَتَى فِي السُّنَّةِ الغَرَّا صَرِيحًا مُثبَتَا
فَارجِع إِلَيهِ وَبِهِ فَلتَعمَلَنْ وَالطَّيشَ دَعهُ وَاحتَرِز مِنَ الفِتَنْ

فصل في أقسام الشرك

وَالشِّركُ مِثلُ الكُفرِ فِي التَّقسِيمِ فَحَقِّقِ الأُصُولَ كَالحَكِيمِ
وَالأَكبَرُ المَقصُودُ جَا أَنوَاعُ قَد عَدَّهَا الأَمجَادُ وَالنُّزَّاعُ

أَوَّلُهَا شِرْكُ الدُّعَاءِ فَاسْمَعَنْ ... مِثَالُهُ شِرْكُ قُرَيشٍ فِي المِحَنْ
وَالثَّانِي لَو عَلِمتَ فِي القَصدِ أَتَى ... دَلِيلُهُ القُرآنُ فَاقرَأْ يَا فَتَى
فِي سُورَةِ الشُّورَى وَهُودٍ مِثلُهَا ... يَعلَمُهُ الأَخيَارُ مِن أُولِي النُّهَى
وَمَن يُطِعْ غَيرَ الإِلَهِ قَد هَلَكْ ... فَالعَبدُ مَملُوكٌ وَمَعهُ مَا مَلَكْ
لِخَالِقِ الكَونِ القَدِيرِ الأَحكَمِ ... وَمُنشِئِ الخَلقِ العَلِيِّ الأَعظَمِ
وَالنَّوعُ هَذَا يَا نَبِيهُ الثَّالِثُ ... فِي طَاعَةِ المَخلُوقِ خَابَ العَابِثُ
وَالرَّابِعُ الإِشرَاكُ فِي المَحَبَّهْ ... وَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهْ
وَخَامِسُ الأَنوَاعِ فِي التَّوَكُّلِ ... وَسَادِسٌ فِي الخَوفِ فَاعلَمْ وَاعقِلِ
وَكَم لَهُ مِن صُوَرٍ لَا تُنكَرُ ... نُصُوصُهَا مُحكَمَةٌ فَادَّكِرُوا
فَوَضِّحِ الفُرُوقَ بِالمِثَالِ ... لِيُفهَمَ الحُكمُ بِلَا جِدَالِ
وَكُلُّ عَبدٍ كَادِحٌ وَرَاجِعُ ... لِخَالِقِ الكَونِ وَفَازَ الخَاشِعُ
وَدُونَهَا شِرْكُ الرِّيَاءِ فَاحذَرَنْ ... أَعنِي اليَسِيرَ يَا نَبِيهُ فَاعلَمَنْ
دَلِيلُهُ ذِكرٌ كَرِيمٌ قَد عُلِمْ ... فِي آخِرِ الكَهفِ فَحَقِّق وَالتَزِمْ
وَثَالِثُ الأَقسَامِ يُدعَى بِالخَفِي ... وَيَشمَلُ النَّوعَينِ يَا شَهمُ اعرِفِ
دَلِيلُهُ نَصٌّ صَحِيحٌ مُحكَمُ ... فِي مُسنَدٍ وَقَد رَوَاهُ الحَاكِمُ
وَإِن تُرِد كَفَارَةً لِإِثمِهِ ... فَالمُسنَدَ انظُر وَاستَفِد مِن عِلمِهِ
وَالطَّبَرَانِي قَد رَوَاهُ مُسنَدَا ... فَاحفَظهُ وَادعُ قَائِمًا وَقَاعِدَا
لِصَاحِبِ النَّظمِ وَكُلِّ مُؤمِنِ ... وَكُلِّ شَهمٍ مُخلِصٍ وَمُحسِنِ
بِالفِقهِ فِي الدِّينِ وَحُسنِ المُعتَقَدْ ... وَالمَنهَجِ الحَقِّ هُدِيتَ لِلرَّشَدْ
فَدَعوَةٌ كَرِيمَةٌ مِن خَاشِعِ ... نَافِعَةٌ حَقًّا بِنَصٍّ سَاطِعِ

فصل في بيان أقسام الفسق والظلم

وَالفِسْقُ فِسقَانِ فَفِسقٌ أَكبَرُ ... أَصحَابُهُ ذُنُوبُهُم لَا تُغفَرُ

وَدُونَـهُ فِـسـقٌ ذَوُوهُ فِـي خَـطَـرْ وَأَمرُهُم لِـلـرَّبِّ خَـالِـقِ الـبَـشَـرْ
فَـإِن يَـشَـأ يَـرحَـمْ فَـذَاكَ فَـضـلُـهُ وَإِن يُـعَـذِّب فَـالـعَـذَابُ عَـدلُـهُ
وَالـظُّـلـمُ ظُـلـمَانِ فَـظُـلـمٌ أَعـظَـمُ كَـأَكـبَـرِ الـشِّـركِ أَيَـا مَـن يَـفـهَـمُ
وَدُونَـهُ ظُـلـمٌ كَـمِـثـلِ مَـا سَـبَـقْ فِـي قِسمَـةِ الفِسـقِ وَمَا بِـهِ التَحَقْ

فصل في بيان نوعي النفاق

وَهَـكَـذَا الـنِّـفَـاقُ يَـا إِخـوَانِـي أَتَـى بِـهِ وَحـيٌ مِـنَ الـرَّحـمَـنِ
وَهـوَ عَـلَـى نَـوعَـيـنِ بِـالـتَّـفـصِـيـلِ ذِكـرُهُـمَـا آتٍ مَـعَ الـدَّلِـيـلِ
فَـالأَوَّلُ الإِثـمُ الـعَـظِـيـمُ الأَكـبَـرُ أَتَـى بِـهِ الـنَّـصُّ الـصَّـرِيـحُ الأَظـهَـرُ
فِـي سُـورَةٍ عُـظـمَـى تُـسَـمَّـى الـبَـقَـرَهْ تُـحـطِّـمُ الـفُـسَّـاقَ أَعـنِـي الـسَّـحَـرَهْ
وَسُـورَةٍ أُخـرَى تُـسَـمَّـى الـفَـاضِـحَـهْ جَـاءَت بَـيَـانًـا لِـلـنِّـفَـاقِ وَاضِـحَـهْ
وَسُـورَةٍ فُـضـلَـى بِـهِـم قَـد سُـمِّـيَـتْ آيَـاتُـهَـا جُـلَّـى بِـخَـيـرٍ خُـتِـمَـتْ
فَـالـنَّـوعُ هَـذَا اسـمُـهُ اعـتِـقَـادِي مِـنـهُ حَـمَـانَـا خَـالِـقُ الـعِـبَـادِ
عَـذَابُ أَهـلِـهِ مَـقَـرُّهُ ثَـبَـتْ فِـي أَسـفَـلِ الـنَّـارِ رُءُوسُـهُـم هَـوَتْ
وَهَـكَـذَا الأَرواحُ ثُـمَّ الأَفـئِـدَهْ تَـحـرِقُـهَـا الـنَّـارُ عَـلَـيـهِـم مُـؤصَـدَهْ
لَـهُ مِـنَ الأَنـوَاعِ سِـتَّـةٌ أَتَـتْ فِـي شَـرعِـنَـا الـمَـيـمُـونِ حَـقًّـا ثَـبَـتَـتْ
أَوَّلُـهَـا الـتَّـكـذِيـبُ لِـلـرَّسُـولِ مِـن فَـاجِـرٍ وَحَـاقِـدٍ جَـهُـولِ
وَثَـانِـي الأَنـوَاعِ تَـكـذِيـبُ أَتَـى مِـن مُـلـحِـدٍ بَـاغٍ وَأَفَّـاكٍ عَـتَـى
يَـرفُـضُ بَـعـضًـا مِـن شَـرِيـعَـةِ الـنَّـبِـي بَـغـيًـا وَعَـدوًا يَـا لَـبِـيـبُ فَـارهَـبِ
ثَـالِـثُـهَـا يَـا صَـاحِ بُـغـضُ الـمُـرسَـلِ أَو بُـغـضُ مَـا بِـهِ أَتَـى فَـلـتَـعـقِـلِ
ثُـمَّ الـسُّـرُورُ بِـانـخِـفَـاضِ الـدِّيـنِ مِـن خُـلُـقِ الـكُـفَّـارِ بِـالـيَـقِـيـنِ
وَكُـرهُـهُـم لِـلـدِّيـنِ حِـيـنَ يَـنـتَـصِـرْ قَـاتَـلَـهُـم رَبِّـي فَـهَـل مِـن مُـدَّكِـرْ
فَـهَـذِهِ الأَنـوَاعُ يَـا ذَا أَهـلُـهَـا فِـي أَسـفَـلِ الـنَّـارِ الـشَّـدِيـدِ حَـرُّهَـا

وَنَسأَلُ اللَّهَ نَعِيمًا وَرِضَا   وَجَنَّةَ الفِردَوسِ نِعمَ المُرتَضَى
وَالعَوذُ بِالرَّحمَنِ مِن حَرِّ سَقَرْ   أَلَا فَسَاءَت المُقَامَ وَالمَقَرْ
وَمِن جَمِيعِ النَّارِ رَبِّ نَجِّنَا   وَكُلَّ كَربٍ فِي القِيَامَةِ اكفِنَا
وَدَارِنَا الدُّنيَا كَذَاكَ البَرزَخِ   أَمِّن بِعَزمٍ مَع خُشُوعٍ يَا أَخِي
رَبِّي رَحِيمٌ وَكَرِيمٌ مُؤمِنُ   وَمَالِكُ المُلكِ غَفُورٌ مُحسِنُ
وَدُونَهُ نَوعٌ يُسَمَّى العَمَلِي   فَاحذَرهُ تَسلَم مِن عِقَابِ الأَوَّلِ
أَنوَاعُهُ مَشهُورَةٌ ثَمَانِيَهْ   نُصُوصُهَا وَاضِحَةٌ وَدَانِيَهْ
أَوَّلُهَا كَذبُ الحَدِيثِ فَاعلَمَنْ   جَاءَ صَرِيحًا فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنْ
فَاحذَرهُ دَومًا وَبِضِدِّهِ التَزِمْ   مَع رَبِّنَا الرَّحمَنِ فَاصدُق يَا فَهِمْ
وَهَكَذَا مَعَ العِبَادِ دَائِمَا   فِي كُلِّ حَالٍ قَاعِدًا وَقَائِمَا
وَالوَعدُ ثَانِيهَا فَبَادِر بِالوَفَا   وَاحذَر مِنَ الخُلفِ سَبِيلِ مَن جَفَا
ثُمَّ خِيَانَةٌ فَعَنهَا فَابتَعِدْ   وَعَكسَهَا أَدِّ كَفِعلِ المُقتَصِدْ
وَالنَّوعُ هَذَا يَا أُخَيَّ الثَّالِثُ   فَحَقِّقِ العِلمَ فَأَنتَ الوَارِثُ
وَالرَّابِعُ الغَدرُ بِعَهدٍ مُطلَقَا   جُرمٌ كَبِيرٌ فِي النُّصُوصِ حُقِّقَا
وَعَكسُهُ الزَم وَعَلَيهِ فَاستَقِمْ   وَالرَّبُّ أَوصَى بِالوَفَاءِ فَاعتَصِمْ
ثُمَّ الفُجُورَ إِن تَكُن مُخَاصِمَا   دَعهُ احتِسَابًا تُحرِزِ المَكَارِمَا
وَالنَّوعُ هَذَا خَامِسٌ كَمَا تَرَى   فَرَاجِعِ النَّصَّ وَكُنْ مُستَبصِرَا
لِأَنَّهُ نَوعٌ خَطِيرٌ فَاحذَرَنْ   وَعُذ بِرَبِّي مِن مُضِلَّاتِ الفِتَنْ
وَنَفسَكَ احفَظهَا وَجَنِّبهَا الزَّلَلْ   إِن رَامَتِ الظُّلمَ وَمَالَتْ لِلخَطَلْ
وَسَادِسُ الأَنوَاعِ مَن تَخَلَّفَا   عَنِ العِشَاءِ ثُمَّ فَجرًا قَد جَفَا
فَفَاتَهُ الأَجرُ وَوِزرَهُ حَمَلْ   وَالعَوذُ بِالرَّحمَنِ مِن سُوءِ العَمَلْ
وَمَن لِجُمَعٍ ثَلَاثٍ قَد تَرَكْ   عَلَى التَّوَالِي دُونَ عُذرٍ قَد هَلَكْ
بِمَرَضِ النِّفَاقِ وَالمَآثِمِ   فَافهَم وَحَقِّقْ لَا تَكُن كَمَن عَمِي

وَتَـرْكُ غَـزْوٍ لِـلْـجِـهَـادِ قَـد وَرَدْ نَـوعُ نِـفَـاقٍ وَكَـمَـالٌ لِـلْـعَـدَدْ
وَمَـن نَـوَى وَلَـم يُـطِـق فَـقَـد سَـلِـمْ مِـن سَـخَـطِ الـلَّـهِ بِـنَـصٍّ قَـد عُـلِـمْ
مُـرتَـكِـبٌ كَـبِـيـرَةً لَا يَـكْـفُـرُ بِـذَا أَتَـى الـنَّـصُّ الـصَّـرِيحُ الأَظْـهَـرُ
تَـحـتَ مَـشِـيـئَـةٍ لِـرَبِّـنَـا الـعَـلِـي مَـن شَـرَّفَ الـرُّسْـلَ بِـوَحـيٍ مُـنـزَلِ
فَـمَـن يَـشَـأ رَبِّـي عَـذَابَـهُ فَـعَـلْ وَمَـن يَـشَـأ يَـرحَـم وَيَـغـفِـرِ الـزَّلَـلْ
فَـهـوَ الـغَـفُـورُ وَالـعَـفُـوُّ الأَكْـرَمُ وَهـوَ الـعَـزِيـزُ وَالـحَـكِـيـمُ الأَعْـلَـمُ

فصل

في الفرق بين الشرك والكفر وبين الكفر والنفاق - أعاذنا اللّٰه منها -

وَقَـد جَـرَى الـخِـلَافُ بَـيـنَ الـعُـلَـمَـا فِـي الـكُـفـرِ وَالـشِّـركِ أَلَا فَـلْـيُـعـلَـمَـا
فَـقِـيـلَ بِـالـفَـرقِ وَهَـذَا الـظَّـاهِـرُ إِذ بِـعُـمُـومِ الـكُـفـرِ جَـزمًـا أَخـبَـرُوا
وَقِـيـلَ كَـلَّا بَـل كِـلَاهُـمَـا أَتَـى لِـمَـعـنَـى صِـنـوِهِ فَـحَـقِّـق يَـا فَـتَـى
وَالـفَـرقُ بَـيـنَ الـكُـفـرِ وَالـنِّـفَـاقِ دَلِـيـلُـهُ الـقُـرآنُ بِـاتِّـفَـاقِ
فَـالـكُـفـرُ مَـا أَظـهَـرَهُ الـضُّـلَّالُ وَحَـارَبُـوا الـلَّـهَ لَـهُـم أَغـلَالُ
وَاعـتَـقَـدُوهُ بَـاطِـنًـا كَـالـظَّـاهِـرِ بِـدُونِ خَـوفٍ مِـن مَـلِـيـكٍ قَـاهِـرِ
أَمَّـا الـنِّـفَـاقُ فَـهـوَ كُـفـرُ الـبَـاطِـنِ وَظَـاهِـرٌ مِـنـهُـم كَـحَـالِ الـمُـؤمِـنِ
أَعَـاذَنَـا مِـنـهَـا الإِلَـهُ الـوَاحِـدُ وَالـصَّـمَـدُ الـقَـيُّـومُ ثُـمَّ الـمَـاجِـدُ

فصل

في ذكر أشهر الفرق المبتدعة المخالفة لأهل السنة والجماعة في العقيدة والمنهج

وَفِـرقَـةُ الـتَّـشـبِـيـهِ نَـهـجُـهَـا خَـطَـرْ إِذ شَـبَّـهُـوا الـرَّبَّ بِـسَـائِـرِ الـبَـشَـرْ
وَفِـرقَـةٌ أُخـرَى هِـيَ الـمُـعَـطِّـلَـهْ أَعـنِـي الـنُّـفَـاةَ الـصِّـرفَ وَالـمُـؤَوِّلَـهْ

وَكُلُّهُم شَرٌّ فَبِئسَ مَا شَرَوا أَنفُسَهُم بِهِ وَسَاءَ مَا اشتَرَوا
وَمِنهُمُ الغُلَاةُ فِي بَابِ القَدَرْ فَاحذَرهُمُ يَا صَاحِ تَسلَم مِن ضَرَرْ
فَمِنهُمُ النَّافِي وَمِنهُم مُجبِرُ وَكُلُّهُم لِقِيلِهِ يَنتَصِرُ
وَفِرقَةٌ أُخرَى لَهَا الوَعِيدُ شِعَارُهَا عَدلٌ كَذَا تَوحِيدُ
قَائِدُهَا المَفتُونُ قَالُوا وَاصِلُ وَمَعَهُ عَمرٌو رُجَيلٌ صَائِلُ
لَهَا أُصُولٌ مِن ضَلَالٍ أُسِّسَتْ لِتَهدِمَ الدِّينَ وَبِالنُّكرِ أَتَتْ
وَقَالُوا فِي القُرآنِ أَعظَمَ الفِرَى إِذ قَالُوا مَخلُوقٌ وَهَذَا مُفتَرَى
وَأَنكَرُوا شَفَاعَةً قَد وَرَدَتْ وَفِي عُصَاةِ المُسلِمِينَ حَقًّا ثَبَتَتْ
وَرُؤيَةَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ أَنكَرُوا وَالنَّصُّ فِيهَا ثَابِتٌ لَا يُنكَرُ
فِي دَارِنَا الأُخرَى وَفِي الجِنَانِ رُؤيَةُ حَقٍّ لِذَوِي الإِيمَانِ
وَكَم لَهُم مِن شُبَهٍ مَعلُولَهْ مَردُودَةٍ بِالحَقِّ لَا مَقبُولَهْ
وَفِرَقٌ أُخرَى تُسَمَّى مُرجِئَهْ تِبيَانُهَا حَقٌّ فَلَستُ مُرجِئَهْ
قَد فَصَلُوا الأَعمَالَ مِن إِيمَانِ وَخَالَفُوا أَدِلَّةَ القُرآنِ
عَلَى تَفَاوُتٍ شَهِيرٍ بَينَهُم فَلَا تُسَوِّي فِي القَضَاءِ بَينَهُم
مُرتَكِبٌ كَبِيرَةً ذَا مُؤمِنُ بِزَعمِهِم حَقًّا كَذَاكَ مُحسِنُ
خَوَارِجُ السُّوءِ جِهَارًا قَد بَغَتْ وَمَنهَجَ التَّكفِيرِ عَمدًا لَزِمَتْ
قَد جَاءَ عَنهُم فِي النُّصُوصِ فَاسمَعَنْ وَصفٌ ذَمِيمٌ يَا لَبِيبُ فَاعلَمَنْ
هُمُ كِلَابُ النَّارِ فِي نَصِّ الخَبَرْ عَن سَيِّدِ الخَلقِ وَمُنذِرِ البَشَرْ
وَقَتلُهُم حَقٌّ بِنَصٍّ قَد عُلِمْ فِي السُّنَّةِ الغَرَّا دَلِيلِ المُعتَصِمْ
وَالأَجرُ فِيهِ وَارِدٌ كَذَا أَتَى فِي شِرعَةِ الحَقِّ صَرِيحًا مُثبَتَا
طُوبَى لِعَبدٍ بِسِلَاحِهِم قُتِلْ مُوَحِّدًا مُصَلِّيًا كَذَا نُقِلْ
ضَلَالُهُم فِي الدِّينِ مُستَبِينُ وَخَاطِئٌ فِكرُهُمُ مَشِينُ
ثُمَّ حُلُولٌ وَاتِّحَادٌ عُلِمَا عَن فِرقَتَينِ شَرُّ مَن تَحتَ السَّمَا

إذ تَزعُمُ الأُولَى بِأَنَّ الرَّبَّ حَلَّ   بِذَاتِهِ كُلَّ مَكَانٍ لَا جَدَلْ
وَتَسلُكُ الأُخرَى مَسَالِكَ الغَبِي   مِثلَ ابنِ سَبعِينَ وَكَابنِ عَرَبِي
وَفِرَقُ الرَّفضِ يَهُودًا أَشبَهَتْ   فِي الكُفرِ وَالمَكرِ وَمُنكَرًا أَتَتْ
إذ صَرَّحُوا بِاللَّعنِ وَالطَّعنِ عَلَى   مَن كَانَ ذَا فَضلٍ شَرِيفًا أَنبَلَا
وَخِيرَةُ الأَصحَابِ أَي صَحبُ النَّبِي   كَالمُحسِنِ الصِّدِّيقِ فَارُوقَ احسِبِ
يَلِيهُمَا عُثمَانُ ذُو النُّورَينِ   ثُمَّ عَلِيٌّ وَالِدُ السِّبطَينِ
وَغَيرُهُم مِنَ الكِرَامِ الفُضَلَا   بَوَّأَهُم رَبِّي مَنَازِلَ العُلَا
وَفِرَقٌ صُوفِيَّةٌ قَد عُرِفَتْ   وَمَنهَجَ الشِّركِ ثِمَارَهُ جَنَتْ
إِمَامُهُم قِردٌ شَقِيٌّ وَغَبِي   مَن يُدعَى فِي التَّأرِيخِ بِابنِ عَرَبِي
ذَاكَ العَدُوُّ المَارِقُ الخَوَّانُ   مُبَدِّلُ الدِّينِ لَهُ أَعوَانُ
إذ قَالُوا ذَا الكَونُ إِلَهٌ وَاحِدُ   وَمَن يُخَالِف فَهوُ غِمرٌ جَاحِدُ
فَالرَّبُّ عَبدٌ وَكَذَاكَ العَبدُ رَبّ   مَقَالَةُ السُّوءِ وَمُوجِبُ الغَضَبْ
وَكَم لَهُم يَا قَومُ مِن طَرِيقِ   قَد سُمِّيَت بِصَاحِبِ الطَّرِيقِ
أَوَّلُهُ زُهدٌ فَقَالَ بَعضُهُمْ   هَاتُوا سَمَاعًا لِيَتِمَّ وَجدُهُمْ
فَمَارَسُوا الرَّقصَ تَقَرُّبًا إِلَى   مَن كَانَ شَيطَانًا مَرِيدًا مُبطِلَا
لَهُم مِنَ الأَقوَالِ أَردَى مُنكَرِ   وَهَكَذَا الأَفعَالُ فِعلُ المَاكِرِ
عَقَائِدُ الشِّركِ عَلَيهِمُ انطَلَتْ   بَل إِنَّهَا مِنهُم وِرَاثَةٌ أَتَتْ
أَورَادُهُم شِركٌ وَمُنكَرٌ ظَهَرْ   مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن مُستَطَرْ
كَلَفظِهِم بِلَا إِلَهَ يَمنَةً   يُلقُونَهَا جَهرًا كَذَا مَفصُولَةً
ثُمَّ يَعُودُونَ بِمِثلِ العَدَدِ   إِلَى الشِّمَالِ يَا كَرِيمَ المَحتِدِ
بِهَا يَجُوزُونَ مِئَاتٍ فِي العَدَدْ   وَيلٌ لِعَبدٍ عَن سَبِيلِ اللَّهِ صَدّ
وَاللَّفظُ بِاللَّهِ وَحِيدًا مُفرَدَا   كَأَنَّهُ نَصٌّ بِهَذَا مُسنَدَا
إذ قَالُوا اللَّهُ كَذَا اللَّهُ   ثُمَّ استَمَرُّوا فِي الوَرَى اللَّهُ

وَرُبَّمَا مَالُوا إِلَى اختِصَارِ ... لِاسمِ الإِلَهِ المَلِكِ الجَبَّارِ
وَفِرقَةُ التَّفوِيضِ نَهجُهَا خَطَرْ ... وَلَازِمُ القَولِ لِفِكرِهِم ظَهَرْ
بِتُهمَةِ الرَّسُولِ بِالكِتمَانِ ... أَو جَهلِهِ المَقصُودَ بِالمَعَانِي
كِلتَاهُمَا بِقَادِحِ الزُّورِ أَتَتْ ... تَقدَحُ فِي الدِّينِ فَبِئسَ مَا جَنَتْ
وَتَفتَحُ البَابَ لِكُلِّ مُلحِدِ ... يُرَوِّجُ الأَمرَ بِسُوءِ المَقصِدِ
يَقُولُ لِلنَّاسِ تَعَالَوا وَاعلَمُوا ... أَنَّ أَخَا التَّفوِيضِ حَبرٌ أَحكَمُ
وَفِرقَةٌ لِلوَقفِ مَالَت فَهَوَتْ ... فِي حُفرَةِ السُّوءِ فَسَاءَ مَا أَتَتْ
مَوقِفُهَا سَلبِي وَتَعطِيلٌ خَفِي ... فَهَل عَلِمتَ مَا عَلَيهِ الخَلَفِي
وَفِرقَةُ التَّخيِيلِ كُفرُهَا ظَهَرْ ... بِنَبزِهَا الهَادِي النَّبِيِّ المُعتَبَرْ
تَقُولُ جَهرًا إِنَّهُ لَا يَعلَمُ ... حَقِيقَةَ الأَمرِ كَذَا لَا يَفهَمُ
وَفِرقَةُ التَّأوِيلِ تَتبَعُ الهَوَى ... زَيَّنَهُ الشَّيطَانُ جَالِبُ الغَوَى
تَتَّهِمُ الرَّسُولَ بِالكِتمَانِ ... وَعَدَمِ الإِيضَاحِ لِلمَعَانِي
وَفِرقَةُ التَّجهِيلِ أَمرُهَا عَجَبْ ... أَتَت بِقَولٍ قَد خَلَا مِنَ الأَدَبْ
لَهُ مَسَاسٌ بِالنُّصُوصِ المُحكَمَهْ ... وَلَيسَ مَقبُولًا وَلَستُ مُكرِمَهْ
وَليَعلَمِ الأَوَّابُ أَنَّ السَّلَفَا ... حُبُّهُم دِينٌ وَبُغضُهُم جَفَا
هُمُ الهُدَاةُ الغُرُّ فَاسلُكْ دَربَهُمْ ... تَغدُو رَفِيعَ القَدرِ يَا ذَا مِثلَهُمْ
يَا وَيحَ مَن يُدعَى لِتَنظِيمٍ عُرِفْ ... بِمَنهَجِ الإِخوَانِ أَجلَى مَا عُرِفْ
بِالمَنهَجِ السِّرِّيِّ حَقًّا يُعلَمُ ... فَاحذَرْهُ تَغنَم وَانتَبِه يَا مُسلِمُ
كَم حَدَثٍ غِرٍّ قَد أَضحَى مُفلِسَا ... فِي خَندَقِ الإِخوَانِ يُمسِي فِي أَسَى
وَبَيعَةٍ وَإِمرَةٍ وَمَرتَبَهْ ... وَكُلُّهَا وَهمٌ كَذَاكَ المَنقَبَهْ
لَهُ دُعَاةٌ يَعمَلُونَ فِي الخَفَا ... فِي مَهبِطِ الوَحيِ وَأَرضِ الحُنَفَا
يُؤسِفُنَا حَقًّا عَظِيمَ الأَسَفِ ... صَنِيعُهُم هَذَا بِأُسلُوبٍ خَفِي
وَمَن تَصَدَّى لِبَيَانِ أَمرِهِمْ ... قَالُوا عَمِيلٌ لِوَلِيِّ أَمرِهِمْ

وَغَيرُ هَذَا مِن هُجُومِهِم عَلَى خَيرِ الدُّعَاةِ وَالهُدَاةِ النُّبَلَا
وَقَولُهُم عَنهُم ضِعَافٌ سُذَّجُ فَاحذَرهُمُ يَا صَاحِ هَذَا المَنهَجُ
وَكُلُّ أَمرٍ مُحدَثٍ لَهُ سَبَبْ زَيَّنَهُ الشَّيطَانُ جَالِبُ العَطَبْ
وَسَبَبُ التَّنظِيمِ هَذَا الوَافِدِ وَكَونُهُ سِرًّا خَفِيُّ المَرصَدِ
هُوَ الغُرُورُ وَالأَمَانِي الخَائِبَهْ لِتُنشَرَ الفَوضَى وَتُخزِي العَاقِبَهْ
وَقِلَّةُ الفِقهِ وَسُوءُ المَقصِدِ فَعَنهُمَا حَدِّث بِلَا تَرَدُّدِ
كِلَاهُمَا شَرٌّ وَفِتنَةٌ طَغَتْ مِن شَهوَةٍ أَو شُبهَةٍ قَدِ انطَلَتْ
عَلَى ضِعَافٍ فِي العقولِ السُّذَّجِ مَن قَلَّدُوا فِعلًا دُعَاةَ المَنهَجِ
مَن قَالُوا يَا قَومُ تَعَالَوا نَحوَنَا نَسعَى جَمِيعًا لِنَلُمَّ شَعثَنَا
لِنَتَّفِق فِيمَا عَلَيهِ نَتَّفِقْ وَنُسقِطُ النُّصحَ لِئَلَّا نَفتَرِقْ
وَحِينَمَا بَانَ الطَّرِيقُ الأَقوَمُ عَادَ القَلِيلُ مِنهُم فَلتَفهَمُوا
لِمَنهَجِ الأَسلَافِ أَنصَارِ الهُدَى فَاشكُرهُمُو يَا صَاحِ تَنجُ مِن رَدَى
وَمَنهَجُ التَّبلِيغِ ذَاكَ المُحدَثُ كَم قَادَةٍ يَا قَومِ فِيهِ أَحدَثُوا
مِن بِدعَةٍ فِي الدِّينِ لَم تَكُن عَلَى عَهدِ الرَّسُولِ وَالصِّحَابِ الفُضَلَا
كَبَيعَةِ الصُّوفِي وَتَركِ المُنكَرِ مِن دُونِ إِنكَارٍ تَعَجَّبْ وَانظُرِ
شِعَارُهُم اخرُجْ وَبَيِّن يَا فَتَى وَالعِلمُ فَيضٌ عِندَهُم قَد ثَبَتَا
بِسَبَبِ الخُرُوجِ لِلبَيَانِ وَدَعوَةُ الدَّاعِ شِعَارٌ ثَانِ
وَغَيرُ هَذَا مِن تَصَرُّفٍ عَرِي مِن زَهرَةِ الحَقِّ وَحُسنِ المَخبَرِ
هَذَا قَلِيلٌ مِن كَثِيرٍ فَاعلَمَنْ مِن فِرَقِ الشَّرِّ وُقِيتَ مِن مِحَنْ
وَمَن يَشَأ خَيرَ الحَيَاةِ وَالرِّضَا فَلْيَتَّبِع حَقًّا سَبِيلَ مَن مَضَى
فِي سُنَّةٍ قَائِمَةٍ نَقِيَّهْ وَشِرعَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّهْ
سَارَ عَلَيهَا المُصطَفَى وَمَن عَلَى مِنهَاجِهِ عَضَّ فَنِعمَ النُّبَلَا
صَلَّى عَلَيهِ رَبُّنَا وَسَلَّمَا وَالآلِ وَالصَّحبِ وَتَابِعٍ سَمَا

يَا رَبُّ وَفِّقنَا جَمِيعًا لِلهُدَى وَالعِلمَ حَبِّبهُ إِلَينَا أَبَدَا
أَنتَ الكَرِيمُ وَالرَّحِيمُ يَا صَمَدْ يَا مَن يُؤَمُّ وَعَلَيهِ المُعتَمَدْ
أَنتَ المُجِيبُ دَعوَةَ المُضطَرِّ وَكَاشِفُ السُّوءِ مُزِيلُ الضُّرِّ

فصل

في بيان مراتب الدين إجمالًا عند أهل السنة والجماعة

مَرَاتِبُ الدِّينِ الحَنِيفِ عِندَهُم فَهِيَ ثَلَاثٌ لَا نِزَاعَ بَينَهُم
مَرتَبَةُ الإِسلَامِ وَالإِيمَانِ وَالثَّالِثُ الإِحسَانُ يَا إِخوَانِي
تِلكَ الدَّعَائِمُ العِظَامُ أُسِّسَتْ بِصَالِحِ الأَعمَالِ حَقًّا كَمُلَتْ
أَركَانُهَا مَعلُومَةٌ شَهِيرَهْ فِي سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ مُنِيرَهْ
فَخَمسَةٌ مِنهَا لِإِسلَامٍ أَتَتْ وَسِتَّةٌ مِنهَا لِإِيمَانٍ بَدَتْ
وَوَاحِدٌ مِنهَا لِإِحسَانٍ سَطَعْ طُوبَى لِعَبدٍ بِضِيَائِهَا انتَفَعْ

فصل

في بيان معنى الإسلام وذكر أركانه

وَإِن تُرِد مَعرِفَةَ الإِسلَامِ كَمَا أَتَى عَن سَيِّدِ الأَنَامِ
فَهوَ خُضُوعٌ وَانقِيَادٌ وَرِضَى بِمَا أَتَى عَنِ الرَّسُولِ المُرتَضَى
أَركَانُهُ نُورٌ كَضَوءٍ مِن قَمَرْ كَمَا أَتَانَا فِي الصَّحِيحِ عَن عُمَرْ
أَوَّلُهَا الرُّكنُ الكَبِيرُ الأَعظَمُ شَهَادَتَا حَقٍّ قَلَاهَا مَن عَمُوا
ثُمَّ الصَّلَاةُ يَا أَخَا الإِحسَانِ أَتَى بِهَا الشَّرعُ كَرُكنٍ ثَانِ
وَالثَّالِثُ الزَّكَاةُ حُكمُهَا أَتَى فِي مُحكَمِ التَّنزِيلِ نَصًّا مُثبَتَا
وَالرَّابِعُ الصَّومُ فَكُن مُحَقِّقَا وَالخَامِسُ الحَجُّ ظَفِرتَ بِالبَقَا

فصل في بيان حقيقة الإيمان

حَقِيقَةُ الإِيمَانِ قَولٌ وَعَمَلْ ثُمَّ اعتِقَادٌ ثَابِتٌ نِلتَ الأَمَلْ
يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَولٌ وَاحِدُ وَبِالمَعَاصِي نَقصُهُ يَا مَاجِدُ
نَوعَانِ لِلإِيمَانِ فَاحفَظَنْهُمَا وَاحذَر هُدِيتَ أَن تَزِيغَ عَنهُمَا
الأَوَّلُ المُطلَقُ وَهوَ الكَامِلُ وَدُونَهُ الثَّانِي فَعَنهُ فَاسأَلُوا

فصل في ذكر أركان الإيمان

لَهُ مِنَ الأَركَانِ سِتَّةٌ أَتَتْ دَلِيلُهَا القُرآنُ فَاعقِل مَا ثَبَتْ
وَسُنَّةُ الهَادِي النَّبِيِّ الهَاشِمِي وَسَيِّدِ الخَلقِ الرَّسُولِ الأَكرَمِ
أَوَّلُهَا الإِيمَانُ بِالرَّبِّ العَلِي وَالثَّانِي بِالأَملَاكِ فَاعلَم وَاعمَلِ
و ثَالِثُ الأَركَانِ كُتبُ أُنزِلَتْ وَالرَّابِعُ الرُّسْلُ إِلَيهَا قَد دَعَتْ
وَخَامِسُ الأَركَانِ يَا شَهمُ اذكُرِ أَعنِي بِهِ يَومَ النُّشُورِ الآخِرِ
بِالقَدَرِ المَقدُورِ يَا ذَا خُتِمَتْ نُصُوصُهَا وَحيٌ بِهِ قَد عَمِلَتْ

فصل في ذكر ركن الإحسان وبيان مقاماته

وَإِن تُرِد مَعرِفَةَ الإِحسَانِ فَاسمَعْ لِنَظمٍ وَاضِحٍ وَدَانِ
رُكنٌ عَظِيمٌ فِي النُّصُوصِ قَد وَرَدْ عَظَّمَهُ رَبِّي وَخَابَ مَن جَحَدْ
قَدَّرَهُ حَقًّا وَقَالَ أَحسِنُوا إِنِّي رَفِيقٌ وَمُحِبٌّ مُحسِنُ
لَهُ مَقَامَانِ كِلَاهُمَا ذُكِرْ فِي مُحكَمِ النَّصِّ فَحَقِّق وَاعتَبِرْ
أَعلَاهُمَا قَدرًا تَقِيٌّ عَابِدُ كَمَن لِرَبِّي سَاجِدًا يُشَاهِدُ
ثَانِيهِمَا فِي القَدرِ دُونَ الأَوَّلِ فَافهَم رَعَاكَ اللَّهُ رَبُّكَ العَلِي
وَالفَضلُ لِلإِحسَانِ شَأنُهُ ظَهَرْ فِي مَصدَرِ الشَّرعِ كِتَابٌ وَأَثَرْ
وَهَكَذَا الإِيمَانُ فِي الفَضلِ يَلِي مَرتَبَةَ الإِحسَانِ فَاعلَمْ وَاقبَلِ

يَلِيهِمَا الإِسلَامُ فِي القَدرِ الجَلِي وَكُلُّهَا نُورٌ تَأَمَّلْ وَادْعُ لِي

فصل

في بيان نواقض الإسلام والإيمان

نَوَاقِضُ الإِسلَامِ جَاءَت ظَاهِرَهْ فِي دِينِنَا السَّمحِ أَتَت مُقَرَّرَهْ
أَوَّلُهَا الكُفرُ العَظِيمُ الأَكبَرُ أَنوَاعُهُ صَرِيحَةٌ لَا تُنكَرُ
فِي أَوَّلِ النَّظمِ بَيَانُهَا وَرَدْ فَارجِع إِلَيهَا يَا سَلِيمَ المُعتَقَدْ
وَمِثلُهُ الأَكبَرُ شِركٌ مُظلِمُ فَاحذَرهُ تَسلَم وَانتَبِه يَا مُسلِمُ
أَنوَاعُهُ نَظَمتُهَا فِيمَا مَضَى فَارجِع إِلَيهَا قَاصِدًا نَيلَ الرِّضَا
مِن رَبِّنَا الأَعلَى مُجِيبِ مَن دَعَا وَحَارَبَ الشِّرْكَ وَلِلخَيرِ سَعَى
وَالثَّانِي مَن يَبغِي وَسِيطًا يُرتَجَى فَذَاكَ شِركٌ وَاضِحٌ يَا ذَا الحِجَا
وَالثَّالِثُ الرَّاضِي بِكُفرِ المُشرِكِ وَمَن تَوَلَّى مَذهَبًا لَهُم حُكِي
وَالرَّابِعُ المَغرُورُ تَابِعُ الهَوَى القَائِلُ الشَّرعُ وَقَانُونٌ سَوَا
أَو رُبَّمَا القَانُونُ قَالَ أَحسَنُ فَذَاكَ زِندِيقٌ خَبِيثٌ أَرعَنُ
وَالخَامِسُ البُغضُ لِشَرعِ المُرسَلِ وَلَو بِهِ يَعمَلُ لَيسَ بِالوَلِي
لِلَّهِ رَبِّي مَن إِلَيهِ المُلتَجَا وَمَن سِوَاهُ عَاجِزٌ فِي النَّصِّ جَا
وَالسَّادِسُ المُؤذِي لِحِزبِ اللَّهِ فَذَاكَ نَاقِضٌ لِدِينِ اللَّهِ
يَقُولُ كَاذِبًا بِهَذَا نَلعَبُ ثُمَّ نَخُوضُ لِيَزُولَ النَّصَبُ
وَالسَّابِعُ السِّحرُ وَمِنهُ الصَّرفُ وَحُكمُهُ كُفرٌ كَذَاكَ العَطفُ
وَمَن بِهِ يَرضَى فَسَاءَ مَا اشتَرَى لَا صَرفُ لَا عَطفٌ كِلَاهُمَا افتِرَا
وَالثَّامِنُ النَّصرُ لِمُشرِكٍ عَلَى مَن كَانَ مُسلِمًا بِنَصٍّ انجَلَى
مِن دُونِ مَا حَقٍّ عَلَيهِ يُعتَمَدْ فَافهَم وَحَقِّق لَا تُقَلِّد مِن أَحَدْ
وَالتَّاسِعُ اعتِقَادُ ذِي الجَهلِ الغَبِي بِصِحَّةِ الخُرُوجِ عَن شَرعِ النَّبِي

وَالعَاشِرُ الإِعرَاضُ عَن شَرعٍ سَمَا أَتَى مِنَ اللَّهِ قَوِيمًا مُحكَمَا
وَرِدَّةٌ نَاقِضَةٌ كَذَلِكْ بِالقَلبِ وَالفِعلِ وَقَولِ الهَالِكْ
وَالنَّقضُ لِلإِسلَامِ بِالقَولِ أَتَى ثُمَّ بِفِعلٍ وَاعتِقَادٍ ثَبَتَا
وَمَا بِهِ الإِسلَامُ حَتمًا يَنتَقِضْ يُقَالُ فِي الإِيمَانِ (وَيحَ المُعتَرِضْ)

فصل في بيان أسماء لا إله إلا الله

أَسمَاؤُهَا كَرِيمَةُ المَعَانِي كَالعُروَةِ الوُثقَى أَيَا إِخوَانِي
وَكِلمَةُ الإِخلَاصِ شَأنُهَا عَلَا وَهَكَذَا التَّقوَى فَحَقِّقْ وَاعمَلَا
وَكِلمَةُ الإِسلَامِ فَاعرِف قَدرَهَا وَاحفَظ مَعَانِيهَا وَعَظِّم أَمرَهَا
وَالحَقُّ مِن أَسمَائِهَا مَذكُورُ وَفِي الكِتَابِ هَكَذَا مَسطُورُ
وَكِلمَةٌ طَيِّبَةٌ قَد وَرَدَتْ فِي مُحكَمِ القُرآنِ حَقًّا ثَبَتَتْ
وَجَاءَ عَنهَا فِي نُصُوصٍ حَسَنَه بِأَنَّهَا فِي الفَضلِ أَعلَى حَسَنَه
مِفتَاحُ دَارٍ لِلسَّلَامِ وَالبَقَا طُوبَى لِعَبدٍ قَالَهَا مَعَ التُّقَى

فصل

في بيان معناها وأركانها وشروطها وفضلها

لِكِلمَةِ الإِخلَاصِ رُكنَانِ هُمَا النَّفيُ وَالإِثبَاتُ فَاحفَظَنْهُمَا
لَهَا مَعنًى عَظِيمٌ قَد سَمَا بَيَّنَهُ رَبِّي تَعَالَى فِي السَّمَا
أَن لَيسَ بِالحَقِّ إِلَهٌ يُعبَدُ إِلَّا الإِلَهُ الوَاحِدُ المُنفَرِدُ
بِالخَلقِ وَالرِّزقِ وَبِالتَّدبِيرِ جَلَّ عَنِ الشَّرِيكِ وَالنَّظِيرِ
شُرُوطُهَا بِالنَّصِّ قُل ثَمَانِيَه اَلعِلمُ وَاليَقِينُ إِخلَاصُ النِّيَه
رَابِعُهَا الصِّدقُ يَلِيهُ الخَامِسُ هُوَ انقِيَادٌ وَالقَبُولُ السَّادِسُ
وَالسَّابِعُ الحُبُّ لِمَا لَهُ حَوَتْ مِنَ المَعَانِي فَاعمَلَنْ بِمَا ثَبَتْ
وَالثَّامِنُ البُغضُ لِمَا يُعبَدُ مِنْ دُونِ الإِلَهِ فَاعقِلَنْهَا يَا فَطِنْ

فصل

في بيان فضائل لا إله إلا اللَّه في الدنيا وعند الموت وفي الحياة البرزخية والحياة الأخروية وقد تم لي نظمها في ثلاثة وأربعين بيتًا

فَكَم لَهَا يَا قَومُ مِن فَضَائِلِ فِي الدِّينِ وَالدُّنيَا بِنَصٍّ فَاضِلِ
عَاصِمَةٌ لِلعِرضِ ثُمَّ المَالِ وَسَبَبُ الإِخلَاصِ فِي الأَعمَالِ
وَتَعصِمُ الدِّمَاءَ يَا أَمَاثِلُ كَمَا رَوَى الثِّقَاتُ وَالأَفَاضِلُ
وَتَأتِي بِالتَّقوَى وَبِالفَلَاحِ فَاحرِص عَلَيهَا يَا أَخَا الإِصلَاحِ
وَكَمْ لَهَا تُفتَحُ أَبوَابُ السَّمَا كَمَا أَتَى مُوَضَّحًا يَا كُرَمَا
فِي سُنَّةِ الهَادِي النَّبِيِّ المُعتَبَر لِعَالَمِ الجِنِّ وَسَائِرِ البَشَر
وَكَمْ بِهَا تُفَرَّجُ الكُرَب مِن كُرَبِ الدُّنيَا وُقِيتَ مِن عَطَب
وَكَم كُرَبٌ أُخرَى بِهَا سَتُفرَجُ فِي دَارِنَا الأُخرَى فَنِعمَ المَخرَجُ
وَأَنَّهَا مِن شُعَبِ الإِيمَانِ دَلِيلُهُ نَصٌّ عَظِيمُ الشَّانِ
وَأَنَّهَا مِن أَعظَمِ الكَلَامِ كَمَا أَتَى عَن سَيِّدِ الأَنَام
وَكِلمَةٌ حَبِيبَةٌ لِرَبِّنَا أَنزَلَهَا تَعَالَى رَحمَةً بِنَا
وَالفَضلُ فِي الذِّكرِ بِهَا مَشهُورُ وَفِي الحَدِيثِ نَصُّهُ مَذكُورُ
وَأَنَّهَا حِرزٌ مِنَ الشَّيطَانِ ثُمَّ سِلَاحُ لِذَوِي الإِيمَانِ
يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهَا الذُّنُوبَا وَيَستُرُ الأَخطَاءَ وَ العُيُوبَا
يُصَدِّقُ اللَّهُ العَظِيمُ مَن نَطَق بِهَا يَقِينًا وَبِعِلمٍ قَد سَبَق
وَلِلنِّفَاقِ نَفيُهَا قَد نُقِلَا عَنِ النَّبِيِّ ثَابِتًا نِلتَ العُلَا
وَقَد أَتَى بِأَنَّ رَبِّي يَعجَبُ مِن نَاطِقٍ بِهَا فَلَا يُكَذَّبُ
وَنَفعُهَا حَقٌّ وَنَصُّهُ وَرَد بِنَاطِقٍ بِهَا بِلَفظٍ لَا يُرَد
وَلَيسَ يَخفَى مَا لَهَا مِن شَرَفِ وَصَوتُهَا المَيمُونُ حَقًّا مَا خَفِي

وَحَولَ عَرشٍ فِي نُصُوصٍ قَد ذُكِر وَكَونُهُ بِنَاطِقٍ بِهَا شُهِر
وَكَونُهَا حَقًّا مِنَ الأَسبَابِ لِلأَمنِ وَالإِيمَانِ يَا أَصحَابِي
مَن قَالَهَا صِدقًا وَإِخلَاصًا غَنِم دُخُولَ جَنَّةٍ فَنِعمَ مَا غَنِم
مِن أَيِّ بَابٍ قَد أَحَبَّ يَدخُلُ ضِيَافَةٌ عُظمَى هَنِيئًا فَادخُلُوا
خَيرُ رَفِيقٍ فِي القُبُورِ يُؤنِسُ وَأَهلُهَا فَازُوا وَخَابَ المُفلِسُ
وَنُورُهَا الوَضَّاءُ فِي صَحِيفَةِ العَمَل وَطِيبُ رِيحِهَا لَذِيذٌ لَا يُمَل
لِلرُّوحِ حَقًّا وَكَذَا الأَجسَادِ فَافهَم هُدِيتَ مَنهَجَ الأَمجَادِ
وَإِنَّهَا مِن أَعظَمِ الأَسبَابِ فِي نِعمَةِ الثَّبَاتِ وَالثَّوَابِ
يُثَبِّتُ اللَّهُ العَظِيمُ المُؤمِنُ بِثَابِتِ القَولِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَنِعمَةٌ عُظمَى نُصُوصُهَا أَتَت فِيهَا بَيَانٌ لِنَعِيمٍ قَد ثَبَت
سَبعُونَ ذِرَاعًا فِي القُبُورِ يُفسَحُ لِأَهلِهَا مِن فَضلِهَا فَليَفرَحُوا
وَأَنَّهَا تَأتِي أَمَامَ أَهلِهَا فِي يَومِ حَشرِهِم جَلِيلَةَ البَهَا
أَثقَلُ شَيءٍ فِي مَوَازِينِ العَمَل مَعهَا حِسَانٌ فَاغتَنِم قَبلَ الأَجَل
وَبِانفِرَادٍ فَالعَجِيبُ أَمرُهَا فِي كِفَّةِ المِيزَانِ يَعلُو قَدرُهَا
مَع عَمَلِ السُّوءِ يَقِينًا تَثقُلُ وَهوَ يَطِيشُ وَلَهُ قَد نَقَلُوا
شَفَاعَةَ الهَادِي يَنَالُ أَهلُهَا وَالنَّصُّ فِيهَا ثَابِتٌ فَمَا وَهَى
وَتُحرَمُ النَّارُ عَلَى ذَوِيهَا وَلَيسَ مِنهُم ذُو خُلُودٍ فِيهَا
مِفتَاحُ حَقٍّ لِلجِنَانِ الغَالِيَه وَكَم بِهَا مِنَ القُصُورِ العَالِيَه
وَالحُورُ فِيهَا كَاللَآلِي الصَّافِيَه وَأُلبِسُوا مِنهَا لِبَاسَ العَافِيَه
طَعَامُهُم مِن كُلِّ لَونٍ يُبْذَلُ وَمَا اشتَهَوا فِيهَا فَلَا يُؤَجَّلُ
وَكَم لِكِلمَةِ الإِخلَاصِ مِن فَضَائِلِ نُصُوصُهَا صَرِيحَةٌ لِلسَّائِلِ
وَالحَمدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنعَمَا بِهِ الأَعلَى تَعَالَى فِي السَّمَا
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَرمَدَا عَلَى النَّبِي الهَاشِمِي أَحمَدَا

وَآلِـهِ وَصَـحْـبِـهِ وَمَـنْ تَـبِـعْ ... شَرِيعَـةَ الحَـقِّ فَنِعـمَ المُـتَّبَعْ

فصل في معنى شهادة أن محمدًا رسول الله

وَالمُسلِمُونَ كُلُّهُم قَد شَهِدُوا ... وَبِالقُلُوبِ مُخلِصِينَ اعتَقَدُوا

أَنَّ مُحَمَّدًا أَتَانَا بِالهُدَى ... مُبَشِّرًا وَمُنذِرًا وَمُرشِدَا

وَأَنَّهُ عَبدٌ نَبِيٌّ مُرسَلُ ... بِالوَحيِ مِن رَبِّي وَخَابَ المُبطِلُ

وَبَلَّغَ الدِّينَ وَبِاللَّهِ اعتَصَمْ ... وَوَدَّعَ الدُّنيَا وَوَدَّعَ الأُمَمْ

صَلَّى عَلَيهِ اللَّهُ ثُمَّ سَلَّمَا ... مَا دَامَتِ الأَرضُ وَدَامَتِ السَّمَا

فصل

في شروط شهادة أن محمدًا رسول الله

لَهَا شُرُوطٌ سِتَّةٌ قَد عُلِمَتْ ... وَمِن نُصُوصِ الشَّرعِ حَقًّا فُهِمَتْ

الاعْتِرَافُ ظَاهِرًا وَبَاطِنَا ... بِشِرعَةِ الهَادِي يَقِينًا بَيِّنَا

وَالثَّانِي نُطقٌ بِاللِّسَانِ وَاضِحُ ... بِهَا صَرِيحًا فَانطِقُوهَا تُفْلِحُوا

وَالثَّالِثُ الإِحسَانُ فِي المُتَابَعَه ... فِي الأَمرِ وَالنَّهيِ بِلَا مُمَانَعَه

وَالرَّابِعُ التَّصدِيقُ فِيمَا أَخبَرَا ... أُسوَتُنَا المُختَارُ سَيِّدُ الوَرَى

وَالخَامِسُ المَحَبَّةُ الشَّرعِيَّهْ ... دَلِيلُهَا فِي السُّنَنِ المَروِيَّهْ

أَقوَالُهُ قَدِّم كَذَاكَ فَاعتَصِمْ ... بِالسُّنَّةِ الغَرَّا سَبِيلِ مَن فَهِمْ

وَذَا هُوَ الشَّرطُ الأَخِيرُ فَاعلَمَنْ ... وَالمَعنَى حَقِّق يَا وَرِيثَ المُؤتَمَنْ

فصل

في بيان تلازم الشهادتين من حيث الشروط ووجوب العمل

وَمَا مِنَ الشُّرُوطِ وَاللَّوَازِمِ ... لِلعُروَةِ الوُثقَى بِفَهمِ العَالِمِ

فَاجعَلهُ لِلأُخرَى بِصَدرٍ مُنشَرِحْ ... وَمَنهَجَ الأَسلَافِ حَقِّق تَستَرِحْ

الخاتمة

وَتَمَّ نَظْمِي وَهُنَا انتَهَيتُ   وَمَا كَتَبْتُهُ بِهِ رَضَيْتُ
وَالخَتمُ بِالحَمدِ لِرَبِّي وَحدَهُ   عَزَّ وَجَلَّ قَد تَعَالَى جَدُّهُ
وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَام سَرمَدَا   عَلَى النَّبِيِّ الهَاشِمِي أَحمَدَا
وَآلِهِ وَصَحبِهِ الأَخيَارِ   أَهلِ الهُدَى وَنَاقِلِي الآثَارِ

لناظمها

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشروق

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، ثمَّ إنه ليسرني أن أقدم منظومة الفروق ومعها تعليقات عليها سميتها «**الشروق على الفروق**» للقراء العقلاء المحبين الذين يحرصون على جمع علوم الغير إلى علومهم، فيصبحون طلاب علم متمكنين، فعلماء ربانيين، يصلح اللَّه بهم العباد والبلاد، ويحيي بهم السنن، ويميت ببيانهم وردودهم الأهواء والبدع، ألا وإنَّ كلَّ عمل يقوم به المرء العاقل له سبب أو أسباب، وإنَّ أسباب كتابتي لهذه المنظومة والتعليقات عليها هي ما يلي:

١- **قصد طلب العلم وتحصيله**؛ فإني رأيت أنَّ الكتابة في الموضوعات العلمية من خير الطرق للتحصيل العلمي بعد الأخذ للعلم من مشايخه الجامعين بين فنَّي الرواية والدراية، المتحلين بالورع وحسن الخلق وحسن التربية والرعاية.

٢- **وجود كثرة النزاع بين الناس في قضايا التكفير والتفسيق والتبديع، ولا شكَّ أنَّ منهم المحقَّ ومنهم المبطل.**

فأما المحقون فهم أهل السنة والجماعة الذين هُدوا إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ فصاروا وسطًا بين أصحاب ضلالتين في القضايا المذكورة، إذ أهل الضلالة الأولى هم الغلاة أهل التشدد والتنطع في إطلاق لفظ الكفر والفسق والبدعة على الغير بدون وزن لما يقولون بميزان الشرع الشريف، والفهم السلفي الحصيف.

وأهل الضلالة الثانية أهل الجفاء والتفريط في شأن تلك القضايا فلم يهتدوا فيها إلى قول الحق؛ بل وقعوا في باطل التفريط المذموم لعدم البصيرة التي تنير لهم الطريق.

وكان أهل الحديث والأثر وسطًا؛ أي: ليسوا من الغلاة ولا من الجفاة؛ بل هُدُوا إلى القول الحق في تلك القضايا، ووزنوا أقوالهم بنصوص الكتاب والسنة بفهم علماء السلف من هذه الأمة، **فلا يطلقون لفظًا من تلك الألفاظ على أحد من الناس إلا بدليل صحيح صريح من الكتاب العزيز والسنة المطهرة**، وهذه الطائفة -ولله الحمد- باقية ما بقيت الدنيا، يحفظ الله بهم الدين الحق الذي يرضاه الرب -تبارك وتعالى- ويرضى عن القائمين به علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا.

والدليل على ذلك: قول النبي الكريم ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**

على الحق حتى تقوم الساعة»[١]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر اللَّه وهم ظاهرون»[٢]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك»[٣]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللَّه، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم ظاهرون على الناس»[٤]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر اللَّه لا يضرها من خالفها»[٥]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة»[٦].

وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمة اللَّه لهذه الأمة»[٧]، وفي رواية: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[٨]، وفي رواية: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر اللَّه قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[٩].

وكلمة (طائفة) يندرج تحتها كلُّ صاحب صلاح وإصلاح يحمي اللَّه به حوزة

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٩٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٩١).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٦) من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٩٢).

(٧) أخرجه مسلم (١٥٦) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٤١٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٩٤).

(٩) أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الدين، وينشر البر والتقوى ابتغاء مرضاة اللَّه ورجاء رحمته، وخشية عقوبته، كثّر اللَّه سوادهم، وزادهم خيرًا وهُدى وآتاهم تقواهم، وجعلنا منهم، وآتانا مثل ما آتاهم، وشفا برحمته مرضانا ومرضاهم، ورحم موتانا وموتاهم.

٣- الرغبة في الإسهام في الدعوة إلى اللَّه بطريق تأليف الكتب؛ لأن الكتاب النافع المفيد كالداعية العالم الحكيم الناصح المتجول ينفع اللَّه بعلمه أينما حلَّ وأينما ارتحل.

ومُؤَلَّفي هذا المنظوم والمنثور أرجو من اللَّه أن ينفع به، فإنَّ مباحثه في الدعوة إلى تحقيق علم التوحيد خصوصًا وإلى العناية والاهتمام بإقامة الدين أصولًا وفروعًا في حياة العمل عمومًا، كما أن من أعظم مباحثه أيضًا بيان ما يناقض أصل التوحيد من كفر وشرك ونفاق وظلم وفسق وبدعة، والتحذير من ذلك كله مقرونًا بالأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة كما سيراه القارئ الفطن الذي يحرص على رفع الجهل عن نفسه ليحلَّ محله العلم ليعمل به وليعلمه غيره؛ أسوة بالرسل الكرام، والأنبياء العظام، والصالحين المصلحين من الأنام.

٤- ولأكون كمثل من تشبهوا بالعلماء الفضلاء في تدوين العلم الشرعي والفقه الإسلامي من عصر القرون المفضلة إلى يومنا هذا، وإنني لأحبهم في اللَّه لحسن صنيعهم، وأطمع في نيل ما ينالون من الثواب؛ لأن النبي الكريم ﷺ قد بشر بذلك في الحديث الصحيح بقوله: «**المرء مع من أحب**»[١] وعلى مؤلفات أولئك الأمجاد تربى من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، ونسجوا على منوالهم، وقطفوا من ثمار غراسهم كل نافع ومفيد، فكثرت المؤلفات في فنون العلم فأصبحت وأمست المكتبات الإسلامية في دنيا البشر تضم ألوفًا مؤلفة من العلوم الشرعية ووسائلها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

ومع هذا الكم الهائل النافع السار فإنه لا يستغنى بحال بما قد تم نشره؛ بل لابد من بذل الجهود من ذوي الكفاءات العلمية على اختلاف تخصصاتهم من الكتابة في فنون العلم سائرين على نهج من سبق من أهل الهدى ودين الحق، باذلين كلَّ ما في وسعهم بنية خالصة وفرح وسرور بما أنجزوا من العلم، مضيفين له إلى مكتبات العلوم الشرعية ووسائلها، حامدين اللَّه شاكرين له فضله وعطاءه من خير ما أعطى أفضل خلقه، ألا وهو العلم الذي أنزله على رسله وَوَرَّثه صفوة الخلق وهم العلماء الربانيون في كل زمان ومكان.

٥- ولكي أظفر بمثل أجر من خلف علمًا ينتفع به لمشاركتي لهم بجهد المقل؛ كما جاء في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

وإني لأسأل اللَّه الجواد الكريم، وأتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا قائلًا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، أسألك أن تجمع لي هذه الخصال الثلاث: صدقة جارية، وعلمًا ينتفع به في حياتي وبعد مماتي، وأولادًا صالحين يكثرون لي من الدعاء، ويخلصون فيه، ويجتنبون موانع إجابة الدعاء، والحامل لي على اختيار هذا الدعاء من الأدعية المشروعة ما رواه أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال: «كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ: **هل تدرون ما دعا؟** قالوا: اللَّه ورسوله أعلم! قال: **دعا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى»[١].

وختامًا: فهذه الشروق على الفروق بين يدي القراء المحبين للحق والطالبين له من أبوابه، لهم غنمها هنيئًا مريئًا، وعليَّ غرمها، الذي أرجو من اللَّه -جلّ ثناؤه- أن يسامحني فيه، لأنني لم آلُ جهدًا في إبراز الحق في صورته المضيئة، ولم أدخر وسعًا في رد ما يناوئه من الباطل في صوره المظلمة القولية والفعلية الظاهرة والباطنة، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

تمَّ تحريره بحمد اللَّه

في يوم عيد الفطر المبارك ١٤٢٩ هـ

المؤلف للنظم والشرح

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٤)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد (١٣١٥٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٤١): حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منظومة الفروق

ن:

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمُجْتَبَاهُ
مُحَمَّدِ الهَادِي وَخَيرِ الخَلْقِ وَمَن أَتَانَا مُرسَلًا بِالحَقِّ
وَالآلِ وَالصَّحبِ الكِرَامِ الفُضَلَا أَئِمَةِ الدِّينِ الهُدَاةِ النُّبَلَا

الشرح: «الحمد لله»: كلمة ثناء أثنى الله بها على نفسه، وعلَّم عباده ليُثنوا بها عليه حيث قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي علَّم رب العزة فيها عباده ليثنوا بها عليه ثناء بألسنتهم، مستمدًّا من قلوبهم، تشع منه المحبة والتعظيم لمن يستحق الثناء المطلق، وهو الله جلَّ في علاه.

وكم من نص صحيح، وأثر صريح قد ورد في فضل الحمد لله.

ومن ذلك: ما رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن الأسود بن سريع رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي -تبارك وتعالى-؟ فقال ﷺ: **أما إنَّ ربك يحب الحمد**»[١].

وجاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله**»[٢].

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم اللهُ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله؛ إلا كان الذي أعطى** - يعني: من هدايته للحمد - **أفضل مما أخذ**»[٣].

وقال علي رضي الله عنه: «الحمد لله كلمة أحبها الله تعالى لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال»[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الحمد لله كلمة كل شاكر»[٥]، وغير ذلك من الأحاديث والآثار في فضلها كثير.

الفرق بين الحمد والشكر من حيث الدلالة على المعنى

قيل: إنهما مترادفان لمعنى واحد وهو الثناء على الله، وقيل: إن الحمد معناه الثناء باللسان على الجميل الاختياري نعمة كان أو غيرها، حيث تقول: حمدت فلانًا على جميل صنيعه وإحسانه، وحمدته على شجاعته وظرافته.

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، وعلى

---

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٦٣).

(٤) أوردها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧) (١٢).

(٥) أوردها ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٣).

التفريق بينهما، يكون بينهما عموم وخصوص من وجه، إذ يجتمعان في الثناء باللسان على النعمة، وينفرد الحمد في الثناء على ما ليس بنعمة من الجميل الاختياري، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة.

و«أل»: في الحمد تفيد الاستغراق، بمعنى أن جميع المحامد الكاملة ثابتة لله تعالى ملكًا واستحقاقًا.

«**الله**»: لفظ الجلالة في اللغة: أعرف المعارف، وهو عَلَمٌ على ذات الرب -تبارك وتعالى-، وكل الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة تضاف إليه باتفاق العلماء قاطبة بدليل قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معناها**: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (ومن أسمائه: العزيز الجبَّار، وكلُّ أسمائه حسنى، وأما قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾، فإنه يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله أنهم عدلوا بها عمَّا هي عليه، فسمَّوا بها آلهتهم وأوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها، فسمَّوا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو الله، وسموا بعضها «العزى» اشتقاقًا لها من اسم الإله الذي هو العزيز، إلى أن قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾، قال: (إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله).

إلى أن قال ابن جرير: (وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والجور عنه والإعراض، ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم؛ ولذلك قيل لِلَحْدِ القبر «لحد» لأنه في ناحية منه ليس في وسطه، يقال منه: ألحد فلان يلحد إلحادًا ولحد يلحد لحدًا ولحودًا)[1]. اهـ

(١) (٦/ ١٣٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والإلحاد في أسماء الله إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لتلك المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد)[١]. اهـ

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معناها**: (أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العلا)[٢]. اهـ

وقد اتفقت كلمة العلماء على القول: السميع البصير الغفور الرحيم ونظائرها كلها من أسماء الله الحسنى، ولم يقل أحد منهم إن الله من أسماء السميع أو البصير ونحو ذلك، وجاء في معنى الآيتين ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر**»[٣].

قال بعض أهل العلم في معنى إحصائها: هو عدها وفهم معانيها والعمل بها ومنه دعاء الله بها، دعاء عبادة، ودعاء مسألة، امتثالًا لأمر الله القائل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الآية.

وقد اختلف العلماء في لفظ الجلالة أمشتق هو أم غير مشتق؟

والراجح: أنَّه مشتق من: أله يأله إلهة، إذ أصل الاسم «الإله» فحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى في الثانية فقيل «الله» والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٠).

(٢) (٣/ ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

قال ابن جرير في معناها: (يقول -تعالى ذكره-: إن الذي له الألوهية التي لا تنبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه هو اللَّه الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء.

يقول: فربكم الذي يستحق عليكم الحمد، ويجب عليكم إخلاص العبادة له، هو هذا الذي صفته، لا من لا يقدر لكم على ضر ولا نفع، ولا يعمل شيئًا ولا يدفع عن نفسه سوءًا أريد بها، وأما قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، يقول: ويعلم ما تعملون وتجرَحُون، فيحصي ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه)[1]. اهـ

ومثلها قول اللَّه -جل وعز-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

قال في معناها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، وهو الحكيم العليم كما قال في معنى سابقتها من سورة الأنعام؛ أي: هو المدعو في السموات والأرض)[2].

وقال الشيخ حافظ الحكمي في معنى آية الزخرف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له، ومعنى أله يأله إلهة عبد يعبد عبادة فاللَّه هو المألوه أي المعبود) ثم قال: (ولهذا الاسم خصائص لا يحصيها إلا اللَّه عَزَّوَجَلَّ، وقيل: هو الاسم الأعظم)[3]. اهـ

---

(١) (٥/ ١٤٨و١٤٩).

(٢) (٤/ ١٣٧).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٦٧).

وهذه الجملة الكريمة «الحمد لله» هي من أول سورة هي أفضل سورة في القرآن الكريم وركن في كل ركعة من صلواتنا الفرائض والنوافل تدلُّ على أن المحامد الكاملة المطلقة لله ﷻ ملكًا واستحقاقًا وحده لا شريك له، ولجلالة قدرها، وعظيم فضلها وبركتها، فإنه يبدأ بها في الأمور المهمة، ومنها تأليف الكتب الشرعية ووسائلها نظمًا ونثرًا، فالحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

ن:

......وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمُجْتَبَاهُ

الشرح: صلاة اللَّه على عبده ورسوله محمد ﷺ: ذكره له وثناؤه عليه في الملأ الأعلى، كما ذكر ذلك البخاري عن أبي العالية -رحمهما الله-[1]، وأثبت ذلك سبحانه بقوله الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وجاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«يقول اللَّه تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»**[2].

والنبي ﷺ هو الذي نبأه اللَّه بصدر سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، نزل بها جبريل عليه السلام والنبي في غار حراء، فصار بذلك نبي اللَّه، «ومجتباه»؛ أي: مختاره الذي اختاره من قريش، وقريش من العرب، ليكون نبيًّا رسولًا إلى عالمي الإنس والجن، وذلك على حين فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، وفشو من الجهل، وكان بدء رسالته بصدر سورة المدثر إذ نزل بها عليه جبريل بعد صدر سورة اقرأ إلى قوله ﷻ:

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٧]، فقام ﷺ بإنذار الكافرين ليتركوا ما هم عليه من أمر الجاهلية وعبادة الأصنام والأوثان وغيرها من الموبقات التي تغضب الرحمن، وقد استمر على ذلك في مكة ثلاث عشرة سنة يأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا، وجماعات وفرادى، فاستجاب له من هدى اللَّه قلبه ممن سبقت له من اللَّه الحسنى، وأعرض عن دعوته الحاسدون الحاقدون المتكبرون؛ بل وتصدوا له وللعصبة المؤمنة معه بالأذى الشديد فصبروا على ما أوذوا، فكانت لهم العاقبة الحسنة والعز والتمكين في الأرض، كما هو موضح في سيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام.

والفرق بين النبي والرسول اصطلاحًا: هو أن الرسول من بعث إلى قومه برسالة وأمره اللَّه بتبليغها إياهم، بينما النبي من أوحي إليه ليبلغ شريعة من كان قبله، وقيل لا فرق بينهما، فكل رسول نبي وكل نبي رسول، والراجح الأول.

«**محمد**»: اسم من أسمائه -عليه الصلاة والسلام- كما قال اللَّه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

ولقد ثبت عند الإمام أحمد ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنا محمد، وأحمد، والمقفَّى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة**»(١) وزاد الطبراني: «**ونبي المرحمة**»(٢).

ومن ناحية نسبه فهو: محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٥)، وأحمد (١٩٠٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢١٧).

ولد عام الفيل وتوفي في السنة الحادية عشرة من الهجرة في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، هذا بالنسبة لقدومه المدينة وله من العمر ثلاث وستون سنة، فهنيئًا له الرفيق الأعلى الذي أكرمه به ربه -جلّ ثناؤه-.

ن:

... الــهَــادِي وَخَــيــرِ الــخَــلــقِ وَمَــن أَتَــانَــا مُــرسَــلًا بِــالــحَــقِّ

فيه بيان ثلاث صفات من الصفات العظيمة التي لا يساوي نبينا محمدًا ﷺ فيها أحدٌ من الخلق.

الصفة الأولى: الهادي لما له من الحكمة في هداية الخلق بمعنى دلالتهم على أسباب سعادتهم في معاشهم ومعادهم ودنياهم وبرزخهم وآخرتهم، وهذه الهداية التي هي الدلالة على فعل الطاعات وترك المنكرات أثبتها الله لرسوله -عليه الصلاة والسلام-، والهداية في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: تدل وترشد إليه، وقد قام بها ﷺ خير قيام وورثها من بعده الخلفاء الراشدون والصحابة الصالحون المصلحون، وعلماء القرون المفضلة الربانيون، ومن جاء بعدهم ممن هم بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم وأموالهم يجاهدون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

والصفة الثانية: خير الخلق؛ أي: أفضل الخلق من عالم الأرض والسماء بما خصه الله به من إنزال الفرقان عليه، ومعه السنة الكريمة المطهرة وقيامه بهما علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا على مراد الله الذي هداه واجتباه وأعانه على تبليغ الشرع المطهر لعالمي الإنس والجن بدون ملل ولا فتور ولا تفريط ولا قصور، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه إلى يوم البعث والنشور.

والصفة الثالثة: إرسال الله ﷻ له بالحق ليعلمه، ويعمل به، ويعلّمه الخلق ليعلموه ويعملوا به، ويدعوا الناس إليه، ويجاهدوا في سبيل نصرته، ويَذُبُّوا عنه

كل كافر ومشرك ومنافق ومبتدع وفاسق، امتثالًا لأمر اللَّه وأمر رسوله ﷺ إذ قال ﷻ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»(١) وهذا الحق هو كتاب اللَّه المبارك العظيم، والقرآن المجيد الكريم، الذي امتن اللَّه به على رسوله الصادق المصدوق الأمين، ومعه السنة الغراء الوحي الثاني من لدن حكيم عليم، قال تعالى وقوله الحق والفصل ليس بالهزل: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ١و٢]، فالكتاب هو الفرقان، والحكمة هي السنة، وهما الحق الذي أرسل به خير الخلق.

قال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: (الأميون هم العرب، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو كذلك ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته -صلوات اللَّه وسلامه عليه- إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم؛ بل إنسهم وجنهم، وهذه الآية هي مصداق إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩])(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٩٠).

(٢) (٤/ ٣٦٤).

فبعثه اللَّه ﷻ وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، وفشو من الجهل، وقد اشتدت الحاجة إليه ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فبدلوه، وغيروه، وقلبوه، وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللَّه تعالى، كما فعل أهل الكتاب الذين بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث اللَّه محمدًا ﷺ بشرع عظيم كامل شامل يدعو الجميع إلى ما يقربهم إلى الجنة وما يبعدهم عن النَّار.

وكم من آيات كريمات تدل على أن محمدًا ﷺ مرسل من ربه إلى هذه الأمة التي هي آخر الأمم وخاتمتها، والتي كانت غارقة في حمأة الوثنية وفي كثير من الموبقات والرذائل، فأرسله اللَّه إليهم ليخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان بإذن ربه، بما آتاه اللَّه من العلم والحكمة، وأمده بالنصر والتأييد، وأجرى على يديه من المعجزات والكرامات ما لا يخفى على أولي الألباب، فاستجاب لدعوته القليل من الناس ففازوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، وأعرض عنها الكثرة الكاثرة بعد أن قامت عليهم الحجة الرسالية والبيانية، واللَّه لا يهدي القوم الظالمين.

أقول: من تلكم الآيات الدالة على أن محمدًا ﷺ مرسل بالحق من عند اللَّه -جلّ وعز- قوله -تبارك اسمه وتقدست ذاته وصفاته-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥و٤٦].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى هاتين الآيتين ما نصه: (هذه الأشياء التي وصف اللَّه بها رسوله محمدًا ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شَٰهِدًا﴾ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال -جل ثناؤه-: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١]، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر وما يبشر به وينذر والأعمال الموجبة لذلك، فالمبشَّر هم المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني رُتِّب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب.

والمنذَر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الوبيل والعذاب الطويل، وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أرسله اللَّه يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم لدار كرامته، ويأمرهم بعبادة ربهم التي خُلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية والدعوة إلى اللَّه بأقرب طريق موصلة إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه وإخلاص الدعوة إلى اللَّه لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن ربه له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونُه ﴿سِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظُلمة عظيمة،

لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالتها حتى جاء اللَّه بهذا النبي الكريم، فأضاء اللَّه به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به من الضلالات إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة)[1].

قلت: وكم لهذه الآيات من نظائر تدل على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الخلق كما قال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وكما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، والهادي؛ أي: الداعي إلى الهدى الذي وصفه اللَّه به في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وذلك لأن اللَّه هدى به من شاء من عالم الإنس والجن إلى صراط مستقيم صراط المنعَمِ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ن:

وَالآلِ وَالصَّحبِ الكِرَامِ الفُضَلَا   أَئِمَّةِ الدِّينِ الهُدَاةِ النُّبَلَا

الشرح: المراد بالآل هم في الأصل: من ينتمون إلى الشخص بصلة نسب ونحوه.

والمراد بآل النبي ﷺ: هم أتباعه الناصرون لما جاء به والداعون إليه بصدق وإخلاص إلى يوم القيامة، سواء كانوا من العرب أم من العجم، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا أهل بيته وقرابته وأزواجه وذريته، ثمَّ يدخل أيضًا أصحابه الكرام من

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٩١).

مهاجرين وأنصار، وقديمًا قيل:

آل النبي هم أتباع ملته ... على الشريعة من عجم ومن عربِ
لو لم يكن آله إلا قرابته ... صلَّى المصلِّي على الطاغي أبي لهب

«**والصحب**»: جمع صحابي، والصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ولو لحظة، ومات على ذلك، ولو تخلَّلت ردة في الأصح.

وقد وُصِفَ أصحاب النبي ﷺ بالكرم والفضل، فهم بحق كرامٌ في أعمالهم، عبادة، ومعاملة، وجهادًا، ودعوة إلى الله، ونصحًا لخلق اللَّه، وهم كرام في أخلاقهم، فقد جعلوا نبيَّهم ﷺ الذي نعته ربه بقوله الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قدوتهم في حسن الخلق وحسن التعامل مع عباد اللَّه على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم ولغاتهم.

وهم كرام في وفائهم بالعهود مع غيرهم، فلا الغدر ولا المكر ولا الالتواء ولا الشماتة من شيمهم؛ بل ظاهرهم وباطنهم على حد سواء، قد وزنوا جميع تصرفاتهم ومعاملاتهم بميزان الشرع الشريف الذي يهذب الأخلاق، ويزكي النفوس، وينقي الضمائر، ويصفي القلوب، ويغرس فيها الخوف، والخشية، والتقوى، والمروءة، والمحبة، والوئام، لمن يستحقها من الأنام.

كما وصفتهم أيضًا بالفضل بقولي: (الفضلا): والفضلاء جمع فاضل ضد الناقص، وهو ذو السماحة، والإحسان، والكرم، والعرفان، وحقًّا إنهم لجديرون بهذا الوصف الذي لا يوصف به إلا الكُمَّل من الرجال صلاحًا وإصلاحًا وإيثارًا وزهدًا وتقوى وعلمًا وعملًا وشجاعة ونبلًا؛ إذ قد فضلوا على غيرهم من جميع الجهات وفي كل الصفات، ولقد شهد لهم رسول اللَّه ﷺ بالخيرية والأفضلية كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن خيركم قرني، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم**، قال عمران:

فلا أدري قال ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا»(١).

ثمَّ أشاد بفضلهم، وحذر من تنقصهم، مهما كانت المسوغات فقال ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم أو نصيفه**»(٢)، وغير ذلك من النصوص كثير في فضل أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

ولفضلهم العظيم ومقاماتهم الرفيعة، فإنه لا يجوز لأحد ممن جاء بعدهم أن ينتقدهم، أو يقع في أعراضهم، أو يخوض فيما جرى بينهم عن تأويل واجتهاد؛ بل يجب الترحم عليهم، والدعاء لهم، والترضي عنهم، كما عَلَّمنا ربنا ذلك في سورة الحشر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

كما وصفتهم بقولي: أئمة الدين الهداة النبلا.

وهذه ثلاث صفات من صفات أهل الكمال في الإيمان، فالأئمة جمع إمام، والإمام: هو القدوة الذي يُقتدى به في كل خير وبر وصلاح وإصلاح.

والهداة: جمع هادٍ وهم الذين يدلون الناس على الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

«**والنبلا**»: بالضم جمع نبيل، وهم أصحاب الفضل والشرف، فرضوان اللَّه عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

ن:

وَبَـعـدُ ذِي مَـنـظُـومَـةٌ مُـفِـيـدَه ضَـمَّـنـتُـهَـا الـبُـحُـوثَ فِي الـعَـقِـيـدَه
أَرجُـو بِـهَـا ذُخـرًا مِـنَ الـلَّـهِ الـعَـلِـي وَالـجَـنَّـةَ الـعُـلـيَـا وَحُـسـنَ الـمَـنـزِلِ

الشرح: (وبعد) هذه الكلمة اختصار لكلمة «أمَّا بعد» التي يؤتى بها في الكتابة والخطابة للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ومعناها عند أهل اللغة: مهما يكن من شيء فالأمر كذا، كما قال ابن مالك في ألفيته:

أمَّـا كـمـهـمـا يـك مـن شـيءٍ وفـا لـتـلـو تـلـوهـا وجـوبًـا ألـفـا

ويستحب الإتيان بها في الخطب على اختلاف أنواعها، والمكاتبات كذلك اقتداءً بالنبي الكريم ﷺ إذ كان يفعل ذلك في خطبه ومكاتباته.

«**وذي**»: اسم إشارة إلى المنظومة التي موضوعاتها بحوث تتعلق بشأن العقيدة الإسلامية الصحيحة مع بيان ما يضادها، وردُّه بالأدلة الكافية من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، رحمهم اللَّه ورضي عنهم.

أرجو: أي أطلب بإلحاح وأؤمل برجاء.

ذخرًا: أي أجرًا كريمًا واسعًا من خيري الدنيا والآخرة، يمنحني اللَّه إياه.

الله: أي اللَّه المعبود وحده دون ما سواه.

العلي: الموصوف بصفات العلو الثلاث: علو الذات، وعلو العظمة والشأن، وعلو القهر والغلبة.

كما أرجو بها الجنة العليا: أي الفردوس الأعلى.

وحسن المنزل: هو من باب عطف التفسير؛ أي: وأسأله حسن المنزل في الجنة.

أسأل اللَّه أن يستجيب هذا الدعاء المبارك إنه سميع الدعاء وربّ الأرض والسماء وربّ العرش العظيم.

ن :

وَقَبلَ أن أَشرَعَ فِي الفُرُوقِ بَينَ عَظِيمِ الذَّنبِ وَالفُسُوقِ
وَبَينَ كُفرٍ وَنِفَاقٍ عُرِفَا وَبَينَ ظُلمٍ يَا وَرِيثَ المُصطَفَى
سَأَذكُرُ التَّوحِيدَ أَصلَ الدِّينِ فَاسمَع لِنَظمٍ وَاضِحٍ مُبِينِ

الشرح : في هذه الثلاثة الأبيات وعد مني لطالب العلم الوارث لعلم النبي ﷺ بأنني قبل أن أدخل لأخوض بالإيضاح والبيان على سبيل التفصيل بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق وما يتعلق بها ، سأبدأ بالحديث عن التوحيد الذي هو أساس الدين وقاعدة الملة الحنيفية السمحة ، وذلك بأسلوب النظم الواضح البين لسامعه ولقارئه كما أشرت إلى ذلك بقولي :

فَاسمَع لِنَظمٍ وَاضِحٍ مُبِينِ

* * *

الكلام عن التوحيد على ضوء العناصر التالية:

أ- تعريف التوحيد لغة وشرعًا.

ب- بيان منزلته عند اللَّه وعند رسله وأتباعهم عبر تأريخ الأمم.

ت- بيان ما أثر عن بعض أهل العلم أن القرآن كله توحيد.

ث- انقسامه باعتبارين.

ج- الجزاء الحسن والعاقبة الحميدة لأهله في الدنيا والبرزخ والآخرة.

ح- بيان ما أعده اللَّه لعبَّاد الطاغوت.

أ- تعريف التوحيد لغة وشرعًا:

التوحيد في اللغة: مصدر وحَّد يوحِّد، والمصدر هو أصل المشتقات فيشتق منه الماضي والمضارع وبقية المشتقات، فيقال هنا وحد يوحد مشتقان من التوحيد الذي هو المصدر وهو جعل الشيء واحدًا، إذ تقول: وحَّد المسلمون ربهم إذا جعلوا معبودهم واحدًا وهو اللَّه -تبارك وتعالى-.

والتوحيد شرعًا: هو العبادة العظيمة التي فرضها اللَّه ﷻ على المكلفين من عالمي الجن والإنس، وتحقيقه بتحقيق الشهادتين شهادة أن لا إله إلا اللَّه وشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، وهما المعبَّر عنهما بالركن الأول من أركان الإسلام الخمسة المنصوص عليها في محكم السنة.

ب- وأما منزلة التوحيد عند اللَّه -تبارك وتعالى- وعند رسله الكرام، وأنبيائه العظام، وأتباعهم من الأنام، فهي أعلى منزلة؛ إذ هو أول فرض فرضه اللَّه على المكلفين من خلقه، ودعت إليه رسل اللَّه، ووارثوهم من أولى الأمم وأخراها، وهو الواجب الأعظم الذي لا يقبل عمل عامل إلا إذا كان من أهله علمًا وعملًا، وهو الذي أنزلت من أجل إقامته الكتب، وأرسلت به الرسل،

وشرعت الشرائع، ومنها الجهاد في سبيل اللَّه، وفرضت الدعوة إلى اللَّه، والتعليم لعباد اللَّه، ولا حياة طيبة مباركة لأهل الأرض بطولها والعرض إلا بمعرفة التوحيد على وجه التمام، والعمل به قولًا وفعلًا واعتقادًا، والابتعاد عن كل ما يضاد أصله أو كماله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهو العمل الذي إذا حققه المكلف دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وعصم في الدنيا ماله ودمه وعرضه، فالحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان والإحسان والشكر لله في كل وقت وحين وفي كل زمان ومكان.

ت- بيان المأثور عن بعض أهل العلم من أن القرآن الكريم كله توحيد.

فقد نقل عن الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (إن القرآن العظيم كله من أوله إلى آخره في تقرير التوحيد، وذلك لأنه إما خبر عن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وما يجب أن يوصف به من صفات الكمال والعظمة والجلال، وما يجب أن ننزهه عنه من صفات النقص والعيب وقبيح الخصال، وهذا هو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، وإما دعوة إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه وهذا هو التوحيد الطلبي القصدي الإرادي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعة اللَّه سبحانه فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه سبحانه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد، وما يكرمهم به في الآخرة وذلك جزاء التوحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وعقوبتهم)[1] اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٠).

وإلى ماسبق تدوينه أشرت إليه بقولي :

كِـتَـابُ رَبِّـي كُـلُّـهُ تَـوحِـيـدُ وَنَـاطِـقٌ بِـهِ كَـذَا شَـهِـيـدُ

ث- انقسام التوحيد باعتبارين :

ينقسم التوحيد إلى قسمين عُرفًا بالتتبع واستقراء النصوص :

القسم الأول : توحيد المعرفة والإثبات .

القسم الثاني : توحيد القصد والطلب .

فالمراد بالأول : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

والمراد بالثاني : توحيد الإلهية والعبادة .

كما ينقسم التوحيد باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام :

توحيد الربوبية : وهو الإقرار والاعتراف بأن اللَّه -تبارك وتعالى- ربُّ كلِّ شيء وموجده ومالكه ورازقه والمتصرف فيه بما يشاء ويريد ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وهو المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ، وهذا النوع قد أقرَّ به المشركون قديمًا وحديثًا ، وفي عصر النبوة ولم يدخلهم في الإسلام ؛ لأنهم لم يُقِرُّوا ويؤمنوا بوحدانية اللَّه وأسمائه وصفاته التي لا يمكن لأحد استحقاق اسم الإسلام والإيمان إلا إذا آمن بهما كما آمن بتوحيد الربوبية .

وإن شئت أن تعرِّف توحيد الربوبية بأنه هو توحيد اللَّه بأفعاله -عزَّ شأنه- فافعل ، وإن أفعال اللَّه كثيرة لا يستطاع حصرها ؛ بل هو العالم بها على وجه التمام والكمال ، ومنها الإحياء ، والإماتة ، والخلق ، والرزق ، وتدبير الأمور جملة وتفصيلًا ، وخلق الخير والشر ، والنفع والضر ، والشدة والرخاء ، والمرض والشفاء ، وغير ذلك كثير مما هو خاص باللَّه الذي سمى نفسه القدير ، فهو على كلِّ شيء قدير .

والأدلة على هذا النوع من التوحيد أكثر من أن تحصر، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، الآية، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

قال ابن كثير في معناها: (يقيم اللَّه حجته الدامغة على المشركين المعترفين بوحدانيته في ربوبيته على وحدانيته في ألوهيته فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من ذا الذي يُنزل من السماء ماء المطر بقدرته ومشيئته فيخرج الحب والزرع والثمر كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ أي: من وهبكم السمع والبصر ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١]؛ أي: يخرج الثمر من النواة والنواة من الثمر ويخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، و لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يعترفون بأن اللَّه تعالى هو الرازق الخالق المدبر ويعلمون ذلك: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الذي يجب أن تفردوه بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ

﴿تُصۡرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تُصرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء)[1]. اهـ

توحيد الألوهية: هو توحيد اللَّه بأفعال العباد التي يعملونها تقربًا إمَّا إلى اللَّه وحده وهذه عقيدة الموحدين التوحيد الخالص، وإما أن يجعلوا مع اللَّه شريكًا فيما يعملونه من القربات فتلك عقيدة المشركين في العبادة الذين قال اللَّه فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] الآية.

والألوهية: مأخوذة من أله يأله إلهة وألوهية.

ومعنى أَلَهَ لغة: عبد مع المحبة والتعظيم.

ومعنى التأله: العبادة، وإذ كان الأمر كذلك فإن توحيد الألوهية هو توحيد العبادة، أي جعل العبادة للواحد الأحد إذ هو المستحق لها وحده دون سواه لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] الآية.

قال ابن جرير في معناها: (والذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له، ويستوجب منكم العبادة، معبود واحد ورب واحد، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه فإن من تشركونه معه في عبادتكم إياه هو خلق من خلق إلهكم مثلكم، وإلهكم إله واحد، لا مثل له ولا نظير.

واختلف في وحدانيته -تعالى ذكره-:

فقال بعضهم: معنى وحدانية الله: نفي الأشباه والأمثال عنه، كما يقال: «فلان واحد الناس - وهو واحد قومه»، يعني بذلك أنه ليس له في الناس مثل، ولا له في قومه شبيه ولا نظير.

---

(١) (٢/٤٠٤ و٤٠٥).

فكذلك معنى قول «اللّٰه واحد» يعني به : اللّٰه لا مثيل له ولا نظير .

فزعموا أن الذي دلَّهم على صحة تأويلهم ذلك، أن قول القائل : «واحد» يُفهم لمعانٍ أربعة .

أحدها : أن يكون واحدًا من جنس، كالإنسان «الواحد» من الإنس .

والآخر : أن يكون غير متفرق، كالجزء الذي لا ينقسم .

والثالث : أن يكون معنيًّا به : المثل والاتفاق، كقول القائل : «هذان الشيئان واحد»، يراد بذلك : أنهما متشابهان، حتى صارا لاشتباههما في المعاني كالشيء الواحد .

والرابع : أن يكون مرادًا به نفي النظير عنه والشبيه .

قالوا : فلما كانت المعاني الثلاثة من معاني «الواحد» منتفية عنه، صحَّ المعنى الرابع الذي وصفناه .

وقال آخرون : معنى «وحدانيته» -تعالى ذكره- : انفراده من الأشياء، وانفراد الأشياء منه .

قالوا : وإنما كان منفردًا وحده، لأنه غير داخل في شيء، ولا داخل فيه شيء .

قالوا : ولا صحة لقول القائل : «واحد» من جميع الأشياء إلا ذلك . وأنكر قائلو هذه المقالة المعاني الأربعة التي قالها الآخرون .

وأما قوله : ﴿لا إله إلا هو﴾، فإنه خبر منه تعالى ذكره أنه لا رب للعالمين غيره، ولا يستوجب على العباد عبادة سواه، وأن كل ما سواه فهم خلقه، والواجب على جميعهم طاعته والانقياد لأمره، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة وهجر الأوثان والأصنام؛ لأن جميع ذلك خلقه، وعلى جميعهم

الدينونة بالوحدانية والألوهية، ولا تنبغي الألوهية إلا له إذ كان ما بهم من نعمة الدنيا فمنه، دون ما يعبدون من الأوثان ويشركون معه من الإشراك، وما يصيرون إليه من نعمة في الآخرة فمنه، وأن ما أشركوا معه من الإشراك لا يضر ولا ينفع في عاجل ولا في آجل ولا في دنيا ولا في آخرة.

وهذا تنبيه من اللَّه -تبارك وتعالى ذكره- لأهل الشرك به على ضلالهم ودعاء منه لهم إلى الأوبة من كفرهم، والإنابة من شركهم»[1]. اهـ

توحيد ذات اللَّه وأسمائه وصفاته معناه: الإيمان ظاهرًا وباطنًا بأن اللَّه الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، الواردة في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، ذات الكمال والجمال والجلال لا إلحاد فيها بتشريك، أو تشبيه، أو تمثيل، أو تكييف، أو تحريف، أو تأويل، أو تعطيل؛ بل إثبات بدون تشبيه ولا تمثيل، وتنزيه بلا تأويل ولا تعطيل، ولكن نقول بقول أهل السنة والجماعة فيها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وليس من التشبيه أو التمثيل مشاركة بعض العباد في أصل بعض الصفات الإلهية كالعزيز والرحيم، فإنهم لا يشاركونه -جل وعلا- في كمال المعنى؛ بل الكمال فيها لله وحده دون سواه.

ومن أمثلة ذلك: وورود اسم العزيز والسميع والبصير للمخلوق الضعيف، ووردت للخالق العظيم -جل وعلا- فللمخلوق من هذه الصفات الثلاث - العزة والسمع والبصر - ما يناسب ذاته الضعيفة الحقيرة، وللرب -تبارك وتعالى- من هذه الأسماء الدالة على الصفات ذات الكمال والجلال منتهى ذلك ليس له فيها شبيه ولا مثيل؛ بل ثابتة له على وجه الكمال والتمام كما قال -

---

(١) (٢/ ٦٤).

جل وعلا-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأما تقسيم العلماء لأنواع التوحيد باعتبارين:

أحدهما: انقسام التوحيد إلى نوعين.

والثاني: إلى ثلاثة، فهو اصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح، فإن الذين جعلوه نوعين اعتبروا توحيد الربوبية والأسماء والصفات نوعًا واحدًا وسموهما توحيد المعرفة والإثبات، والثاني توحيد الطلب والقصد؛ وهو توحيد الألوهية والعبادة.

والخلاصة المهمة: أنَّه لابد من اجتماع الأنواع الثلاثة كلها لدى المكلف فلا يسمى أحد مسلمًا إلا باجتماعها فيه علمًا وعملًا، ولا يكفي واحد منها عن الآخر؛ بل هي متلازمة ومقتضية للعمل ظاهرًا وباطنًا.

وهذا التفصيل الذي زبرته هو معنى الأبيات التالية:

وَإِنَّ ذَا التَّوحِيدَ قَسمُهُ جَرَى ... فِي كُتُبِ العِلمِ فَحَقِّق وَانشُرَا
فَالأَوَّلُ القَصدُ يُسَمَّى بِالطَّلَب ... لِتُفرِدَ الرَّبَّ بِمَا لَهُ وَجَب
وَتَخلَعَ النِّدَّ جِهَارًا ظَاهِرَا ... فَلَيسَ شَيءٌ لِلإِلَهِ نَاصِرَا
وَتَعقِدَ العَزمَ عَلَى حُسنِ العَمَل ... وَتُخلِصَ القَصدَ لِرَبِّكَ الأَجَل
فَذَا هُوَ التَّوحِيدُ فِي العِبَادَه ... فَاشكُر إِلَهِي تُدرِكِ الزِّيَادَه
وَالثَّانِي عِلمِي كَذَاكَ خَبَرِي ... فَافهَم رَعَاكَ اللَّهُ وَالرَّبَّ اذكُرِ
مَوضُوعُهُ البَحثُ عَنِ اللَّهِ أَتَى ... ذَاتًا وَوَصفًا ثُمَّ فِعلًا يَا فَتَى
وَثَمَّ تَقسِيمٌ كَذَا قَدِ اشتَهَر ... إِلَى ثَلَاثَةٍ بِتَفصِيلٍ ظَهَر
أَوَّلُهَا فِعلُ الإِلَهِ الرَّازِقِ ... وَعَكسُهُ الثَّانِي فَدَلِّل وَاصدُقِ
وَالثَّالِثُ الإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ ... وَهَكَذَا الأَسمَاءِ ثُمَّ الذَّاتِ

ن:

وَالأَمْـرُ وَالـنَّـهـيُ كِـلَاهُـمَـا عُـلِـم مُـكَـمِّـلًا حَـقًّـا لِـتَـوحِـيْـدٍ رُسِـم

الشرح: أي أن جميع الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة من حقوق التوحيد بأنواعه الثلاثة ومكملاته، والأصل في الموحد أن يحكم له بالتوحيد حتى يرتكب ناقضًا من نواقض أصل التوحيد فيكفر كفرًا أكبر بعد أن تقوم عليه الحجة، أو يرتكب نوعًا من أنواع الكفر الأصغر أو الشرك الأصغر فينقص توحيده، غير أنه لا يخرج من دائرة الإسلام كما سيأتي تفصيله في موضعه -إن شاء الله-.

ن:

وَمَـا أَتَـى مِـنْـهُ بِـوَعْـدٍ وَاضِـحِ لِأُمَّـةِ الـتَّـوحِـيْـدِ وَالـتَّـنَـاصُـحِ
فَـذَاكَ تَـكْـرِيـمٌ مِـنَ الـلَّـهِ الـعَـلِـي لِـعُـصْـبَـةِ الإِيـمَـانِ فَـاعـقِـل وَاعـمَـلِ

الشرح: معنى ذلك: أن من موضوعات القرآن الكريم الإخبار عن إكرام الله لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد والهداية إلى أقوم طريق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وما يكرمهم به في الآخرة من الجزاء الحسن والنعيم المقيم فهو جزاء وتكريم لأهل التوحيد المجيد، والنصح والتناصح الموجبان لرضا الله ودار كرامته.

كما جاءت بتبيان ذلك الآيات المحكمات كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، وقال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقول

النبي ﷺ: «**يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧][1].

ومعنى قولي «فاعقل واعمل»: توجيه لكل مكلف من عالم الإنس والجن أن يعقل عن الله مراده منه الذي دلَّ عليه قول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وذلك بالتفقه في دين الله من مصادره الثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع، وذلك على أيدي العلماء الربانيين من أهل السنة والجماعة عقيدة ومنهجًا، لا على أيدي أهل الأهواء والبدع الذين خالفوا أهل السنة والجماعة في العقيدة والمنهج، أو في شيء منهما، ومتى عقلت أيها المكلف ما أوصيتك به فاعمل بما علمت وعقلت مبتدئًا بجهاد نفسك فجاهدها حتى تحرز حظًّا وافرًا من العلم الذي يرفعها الله به درجات، ثمَّ جاهدها به حتى تعمل بما علمت فتكسب الأجر الوفير من الله العلي الكبير في الدنيا والبرزخ ويوم المصير، ثمَّ جاهدها حتى تعلِّم بما علمت وعملت كي تكون من الناصحين الوارثين للرسل الكرام، والأنبياء العظام، والعلماء الأعلام.

وأخيرًا: جاهدها كي تصبر على ما تناله من أذى الكفار والمنافقين والفساق والمبتدعين؛ إذ ما من داعية يدعو بدعوة الرسل وورثتهم إلا سيناله الأذى ممن سبق ذكرهم، فيحتاج حينئذٍ إلى الصبر الجميل لينتصر على كل عدو داخلي وخارجي وعدًا من الله حقًّا وهو العزيز الحكيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

ن :

وَمَـا أَتَـى فِـيـهِ مِـنَ الـوَعِـيـدِ لِأُمَّـةِ الإِشـرَاكِ وَالـتَّـنـدِيـدِ
فَـذَا هُـوَ الـعَـدلُ وَغَـيـرُهُ جَـفَـا فَاحذَر حَمَاكَ اللَّهُ وَالحَقَّ اعرِفَا

الشرح : أي إن من موضوعات القرآن الكريم الإيضاح والبيان عن أهل الشرك عبدة الطاغوت والأصنام والأوثان على اختلاف مللهم، وبيان ما فعل اللَّه بهم في الدنيا من العذاب الأدنى والنكال المهين، وما يفعل اللَّه بهم في الآخرة من العذاب الأليم وذلك جزاء لهم من جنس أعمالهم، وهو الجزاء الذي توعدهم به ربهم الحكم العدل الذي يجازي الخلائق من جنس عملهم فلا يسوي بين المؤمنين والمجرمين كما قال تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم : ٣٥].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧و٨].

وقال -جلَّ وعز- : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران : ٣٠].

وختمت البيتين بالتحذير لجميع المكلفين من الوقوع في موجبات العذاب ألا وهي قبيح الأفعال وسيئ الأقوال وفساد الاعتقاد، كما أرشدتهم إلى معرفة الحق والعمل به ودعوة الخلق إليه؛ لأنه أحق أن يعلم ويتبع واللَّه -تبارك وتعالى- هو الحق، والحق منزل من عنده لتعيش الخلائق في ظله فتسعد بنوره وتطيب حياتها بالرضا به والحكم به والتحاكم إليه، قال اللَّه تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٢٩].

كما تخللت الوصية بالحذر من الوقوع في موجبات العذاب والوصية بمعرفة الحق والعمل به دعوة فيها طلب من اللَّه الذي يجيب من دعاه حماية عباده المؤمنين من الشرور في الدنيا والبرزخ ويوم النشور، وما ذلك إلا لأن

اللَّه أمرنا بدعائه ووعدنا أن يستجيب لنا كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وجاء في حديث النزول: «**من ذا الذي يدعوني فأستجيب له**»(١)، وقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**من لم يسأل اللَّه يغضب عليه**»(٢)، وغير ذلك من النصوص التي فيها إرشاد المؤمنين والمؤمنات إلى التضرع إلى ربهم بالدعاء سرًّا وجهرًا في قضاء حوائجهم الدينية والدنيوية الشرعية والمباحة قلَّت أو كثرت فإن اللَّه لا مُكْرِهَ له، وقد كان سلفنا الصالحون يدعون ربهم ويسألونه حوائجهم حتى إن أحدهم ليسأل ربه ملح طعامه، وشسع نعله إذا انقطع.

فاللهم وَفِّق عبادك المؤمنين والمؤمنات للقيام بحقك، والإكثار من دعائك في قضاء ما ينفعهم في شئون دينهم ودنياهم، إنك سميع الدعاء ورب الأرض والسماء ورب العرش العظيم.

ن:

وَذَا هُوَ الـمَـعْـنَـى الَّـذِي أَمـلَاهُ ... ذَاكَ الإِمَـامُ الـمُـؤمِـنُ الأَوَّاهُ
مَـن جَـاهَـدَ الأَعـدَا بِـعِـلـمٍ وَقَـلَـم ... وَحَـارَبَ الأَهـوَا وَبِـاللَّـهِ اعـتَـصَـم
أَعـنِـي بِـهِ ابـنَ الـقَـيِّـمِ الـرَّبَّـانِـي ... مَـن شَـيـخُـهُ الـمُـجَـدِّدُ الـحَـرَّانِـي
وَمَـعـهُـمَـا أَهـلُ الـحَـدِيـثِ وَالأَثَـر ... أَئِـمَّـةُ الـخَـيـرِ وَسَـادَاتُ الـبَـشَـر
فِـي دَعـوَةِ الـتَّـوحِـيـدِ يَـا مُـنِـيـبُ ... فَـافـهَـم رَعَـاكَ الـلَّـهُ يَـا أَرِيـبُ

الشرح: المشار إليه بذا في قولي: «وذا» هو المعنى الذي أملاه هو قول ابن قيم الجوزية: إن القرآن العظيم كله من أوله إلى آخره في تقرير التوحيد، وقد شرح هذه الجملة المجملة المعنى بشرح مفصل مختصر سبق تدوينه قريبًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٨).

والمشار إليه في قولي: ذاك الإمام المؤمن الأواه هو ابن القيم المؤمن؛ أي: المصدق بدون ريب أو تردد بما جاء به النبي الكريم -عليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم- جملة وتفصيلًا.

ومعنى الأواه: هو الدَّعَّاء؛ أي: كثير الدعاء.

ن:

وَبَعدَ هَذَا فَاستَمِع لِمَا رُقِم ... مِمَّا نَظَمتُ فِي الفُرُوقِ وَالتَزِم

بِمَا أَتَى فِيهِ مِنَ المَعَانِي ... مِن شَرعِنَا الأَسمَى عَظِيمِ الشَّانِ

الشرح: أعني هذا الإمام الذي جاهد الأعداء على اختلاف مللهم سواء كانوا كفارًا أو منافقين أو فساقًا أو مبتدعين، جاهدهم بعلمه الشرعي المستمد من مصادره الثلاثة التي سبق ذكرها والتنويه بها، وبفهمه الصحيح للنصوص من الكتاب والسنة وهدي سلف الأمة، وجاهد الأعداء بقلمه السيال الذي جرى بنصرة الحق حتى ظهر نوره، وجرى برد الباطل بتحطيم صوره وتعدد شُعبه، وجرى بمحاربة الأهواء وهي جمع هوى، والهوى هو الذي يهوي بصاحبه في موجبات الشقاء وسوء المنقلب.

«وباللَّه اعتصم»؛ أي: تمسك بدين اللَّه علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا وصبرًا واحتسابًا واستمرارًا حتى أتاه من ربه اليقين.

هذا هو «ابن القيم الرباني»؛ أي الذي وصفته بما تقدم هو شمس الدين أبو عبد اللَّه محمد بن أبي بكر المشهور بـ: «ابن قيم الجوزية»؛ نسبة إلى مدرسة كان أبوه قيمًا عليها، ولد رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ٦٩١هـ، واشتغل بعلوم الدين حتى بلغ رتبة الإمامة في الدين، وتعرض لمحن عديدة كشيخه ابن تيمية -رحمهما اللَّه-، وتوفي ليلة الخميس الثالث عشر من رجب سنة ٧٥١هـ[(١)].

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ٢٣٤).

ووصفي له بالرباني ؛ أي : العالم بربه وبأمره، والداعي إلى ذلك بكل صدق ونصح وإخلاص، رجاء رحمة الله وابتغاء مرضاته وخشية عقابه .

وقولي : «من شيخه المجدد الحراني» أعني به من هو أشهر من نار على علم، المجدد لما اندرس من تعاليم الدين الإسلامي في زمانه وبعد زمانه، هو عالم الزهاد ونادرة عصره تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، كان من بحور العلم ومن الأذكياء الكرماء الشجعان، ولد في ربيع الأول سنة ٦٦١هـ، وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ، عن عمر بلغ ٦٧ عامًا، كلها جهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق والرحمة بالخلق رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] .

ن :

وَمَعهُمَا أَهلُ الحَدِيثِ وَالأَثَر	أَئِمَّةُ الخَيرِ وَسَادَاتُ البَشَر
فِي دَعوَةِ التَّوحِيدِ يَا مُنِيبُ	فَافهَم رَعَاكَ اللَّهُ يَا أَرِيبُ

الشرح : أي مع الإمامين المجددين ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية في مجاهدة الأعداء بأخص الجهادين ألا وهو الجهاد بالبرهان ونشره في كل مكان، ومجاهدة أهل الأهواء من دعاة السوء والبدع معهما أهل السنة في زمانهما ؛ بل وقبلهما وبعدهما ممن هم أئمة هدى وسادات أهل زمانهم .

وحقًّا إنهم ما استحقوا هذه النعوت إلا لعلو منزلتهم بالعلم والجهاد به، ودعوة الخلق إليه، ليُعلِّموه ويعملوا به طاعةً للّه عَزَّ وَجَلَّ وطاعةً لرسوله -عليه الصلاة والسلام- .

والذي لا يختلف فيه اثنان عاقلان منصفان أن الحياة الدنيوية والحياة الأخروية لا تطيب لفرد من أفراد الأمم، ولا لمجتمع من مجتمعاتهم، ولا لأمة من أمم الأرض، إلا بالعلم مقرونًا بالعمل، إذ هما منهج المُنعَم

(١) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٦٧).

عليهم الذين ذكرت أصنافهم في قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقد ختمت مقدمة منظومة الفروق بالبيتين التاليين:

ن:

وَبَـعْـدَ هَـذَا فَـاسْـتَـمِـعْ لِـمَـا رُقِـمْ   مِـمَّـا نَـظَـمْـتُ فِـي الْـفُـرُوقِ وَالْـتَـزِمْ
بِـمَـا أَتَـى فِـيـهِ مِـنَ الْـمَـعَـانِـي   مِنْ شَرعِنَا الأَسْمَى عَظِيمِ الشَّانِ

الشرح: أي وبعد أن قرأت وسمعت أيها القارئ والسامع ما تقدم في هذه المقدمة من المعلومات الجليلة ذات الإيضاح والبيان لعموم رسالة الرسول المصطفى والنبي المجتبى نبينا محمد سيد المرسلين وإمام الصالحين الحنفاء وأفضل الخلق بدون خفاء، عليه من ربه أفضل صلاة وأزكى تسليم بالتمام والوفاء.

وذات الإيضاح والبيان أيضًا لأشرف العلوم وأزكاها ألا وهو توحيد رب العالمين، وبيان ما له من الأنواع التي علم عددها بالتتبع والاستقراء للنصوص وما بينها من توافق وتلازم، فألق السمع لشرح بيت القصيد ألا وهي منظومة الفروق بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق، التي نظمتها في وقت قصير وعمل سهل يسير، لِتَعْرِفَ ما حوته من العلوم العقدية المفيدة بأسلوب النظم الفصيح المتضمن لكل معنى صحيح، وعليك أن تلتزم بما دلت عليه المنظومة من المعاني المستمدة من شرعنا العظيم المطهر لتكون على بصيرة من أمرك، ويجتمع لك الصواب والإخلاص في كل ما تأتي وتذر من عملك، والله يتولاك في آخرتك وبرزخك ودنياك.

* * *

منظومة الفروق بين الكفر والشرك والنفاق والظلم والفسوق
- أعاذنا الله منها ومن أهلها جميعًا -

وَالكُفرُ نَوعَانِ فَكُفرٌ أَكبَرُ ... وَالثَّانِي مِنهُمَا فَذَاكَ الأَصغَرُ
وَأَكبَرُ النَّوعَينِ أَقسَامٌ أَتَى ... دَوَّنَهَا الحُذَّاقُ فَاقرَأ يَا فَتَى
اَلأَوَّلُ الإِنكَارُ وَالتَّكذِيبُ ... وَأَولِهِ الجُحُودَ يَا أَرِيبُ
ثَالِثُهَا العِنَادُ وَاستِكبَارُ ... وَالرَّابِعُ النِّفَاقُ يَا أَخيَارُ
وَالخَامِسُ الشَّكُّ فَكُن مُصَدِّقَا ... بِمِلَّةِ الإِسلَامِ تُحرِزِ التُّقَى
وَالسَّادِسُ الإِعرَاضُ عَن شَرعٍ أَتَى ... عَن سَيِّدِ الخَلقِ صَرِيحًا مُثبَتَا
وَالسَّابِعُ الإِلحَادُ ثُمَّ الثَّامِنُ ... فَردَةٌ صَرِيحَةٌ يَا مُؤمِنُ

الشرح: التسمية للمنظومة بالفروق منتزعة من الأثر المروي عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوله: (كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق)[1].

وقد بوّب الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الأسماء والأوصاف في كتابه «الجوهرة الفريدة» فقال: (باب شرك دون شرك، وكفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق، ونفاق دون نفاق).

ن:

وَالكُفرُ نَوعَانِ فَكُفرٌ أَكبَرُ ... وَالثَّانِي مِنهُمَا فَذَاكَ الأَصغَرُ

الشرح: تعريف الكفر وبيان أنواعه:

الكفر لغة: هو الستر والتغطية.

وفي الشرع: هو ما قاله ابن قيم الجوزية في «مختصر الصواعق»: (الكفر:

(١) أورده الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٥٦).

جحد ما عُلِم أن الرسول ﷺ جاء به سواءً كان من المسائل التي يسمونها علمية أو عملية، فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ، بمعرفته أنه جاء به؛ فهو كافر في دق الدين وجله)[١].

وبنفس المعنى قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره: (حد الكفر الجامع لجميع أجناسه وأنواعه وأفراده: هو جحد ما جاء به الرسول ﷺ أو جحد بعضه)[٢].

قلت: ولا يُفهم من اقتصار هذين الإمامين على تعريف الكفر بالجحود فقط ولا يكون بغيره، كلا؛ بل الكفر الأكبر يكون بالجحود وبأنواع أُخَر من الأقوال والأفعال كما ستراه مفصلًا فيما سيأتي، إن شاء اللّٰه.

إذا فهم هذا فاعلم أن الكفر نوعان:

أحدهما: أكبر يخرج من الملة الإسلامية المحمدية بالكلية.

وثانيهما: كفر أصغر، وهو الذي يُعبَّر عنه بالكفر العملي، لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

وهذا التقسيم أشرت إليه بقولي:

وَالكُفرُ نَوعَانِ فَكُفرٌ أَكبَرُ ... وَالثَّانِي مِنهُمَا فَذَاكَ الأَصغَرُ

ن:

وَأَكبَرُ النَّوعَينِ أَقسَامٌ أَتَى ... دَوَّنَهَا الحُذَّاقُ فَاقرَأ يَا فَتَى

الشرح: معناه أن الكفر الأكبر الذي سبق تعريفه أقسام، دونها أهل العلم المعروفون بطول الباع فيه بحفظ أصوله وفروعه وقواعده ومسائله.

فهم «حذاق» جمع حاذق، وهو الماهر بعلوم الشريعة ووسائلها، المتقن

---

(١) (ص٦٢).

(٢) «الإرشاد إلى معرفة الأحكام» (ص ٢٠٣، ٢٠٤).

لأحكامها ومسائلها.

ن:

اَلأَوَّلُ الإِنــكَـارُ وَالـتَّـكـذِيـبُ وَأَولِـهِ الـجُـحُـودَ يَـا أَرِيـبُ

الشرح: هذا شروع في أقسام الكفر الأكبر:

فالأول: كفر الإنكار والتكذيب، والمراد به: جهل الكافر وعدم معرفته لله ورسله، والتكذيب هو اعتقاد كذب الرسل، وأمثلته كثيرة؛ منها قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٢].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسير هذه الآيات: «ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف يعدلون عنها، وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام، هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله، لا والله، أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم، ويصوتون بها لأجل باطلهم، فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم تكذيبهم للكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق، وأصدقهم، وأعظمهم عقولًا، فهؤلاء لا جزاء لهم إلا النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة، ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم، ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٤٨﴾ فِي الْحَمِيمِ﴾؛ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيَصْلَون بها»[1].

---

(١) (٤ / ١٥٥٨).

والقسم الثاني من أقسام الكفر الأكبر المخرج من الملة: كفر الجحود، وضابطه: أن يعرف المكلَّفُ اللَّهَ بقلبه، ولا يعترف بلسانه هكذا عرفه الإمام البغوي في تفسيره[1] وبمثله قال ابن الأثير.

وقال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفه: (هو ما كان بكتمان الحق وعدم الانقياد له ظاهرًا مع العلم به، ومعرفته باطنًا، ومَثَّل له بكفر فرعون وقومه بنبي اللَّه موسى -عليه الصلاة والسلام-، وبكفر اليهود بمحمد ﷺ.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣].

وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى في شأن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩])[2].

قال ابن كثير في معنى الآية الأولى: (﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾؛ أي: واضحة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا۟﴾ بها ظاهرًا، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أُعلموها أنها حق من عند اللَّه لكنهم عاندوها ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾؛ أي: ظلمًا من أنفسهم واستكبارًا عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ٥٩]؛ أي: انظر كيف كان عاقبتهم من الهلاك والغرق عن آخرهم في صيحة واحدة.

وفحوى الخطاب تحذير قريش والمشركين عامة، وسائر الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم من تكذيبهم لمحمد ﷺ وما سبقه من البشارات من الأنبياء به،

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٦٤).

(٢) «أعلام السنة المنشورة» (ص ١٧٧).

وأخذ المواثيق له، عليه من ربه وعلى الأنبياء عامة أفضل الصلوات وأتم التحيات)[١].

وقال ابن كثير في الآية الثانية: (يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ يعني: من التوراة وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: وقد كانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق بسنده عن عكرمة أو إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول اللَّه ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه اللَّه تعالى من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا اللَّه وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم -أحد بني النضير-: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل اللَّه في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)[٢].

قلت: ولا يستغرب هذا المكر والحسد والبغي والكتمان للحق من اليهود -عليهم لعائن اللَّه المتتابعة في كل زمان ومكان-، فإنهم أمة الغضب، وأئمة الحسد، يسعون في الأرض فسادًا، ويتربصون بأمة الإسلام الدوائر، عليهم

---

(١) «مختصر ابن كثير» لمحمد نسيب الرفاعي (٣/ ٣٥٧، آية ١٣-١٤).
(٢) «مختصر ابن كثير» للرفاعي (١/ ٧٦).

دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا.

ولما كان خبث المنافقين كخبثهم عقدوا معهم الأخوة على البغي والعدوان ضد الإسلام والمسلمين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١و١٢] الآيات.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -غفر الله لنا وله ومنحنا وإياه وجميع المؤمنين والمؤمنات الفردوس الأعلى بمنّه وكرمه- بعد أن ذكر أصناف أتباع النبي الكريم وجليل صفاتهم، قال عن بعض صفات شر الخلق والخليقة من لعنهم الله وغضب عليهم ألا وهم اليهود والمنافقون: (ثم تعجب من حال المنافقين الذين طَمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحدًا يَعذِلُنا أو يُخوِّفنا ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستنكر هذا عليهم فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم الله بقوله الذي وجد مخبره كما أخبر به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاءً ونفيًا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: سيحصل منهم الإدبار عن القتال

والنصرة ولا يحصل لهم نصر من اللَّه)[١]. اهـ

أقول: وإذا كان هذا وصف المنافقين إخوان القردة والخنازير اليهود الماكرين الغادرين وهو قليل من كثير مما ذمهم اللَّه به جميعًا، فاحذر أيها المسلم من التشبه بهم في قول، أو فعل، أو اعتقاد، وتحصن بالعلم النافع الذي أنزله اللَّه نورًا من لدنه وهدًى للناس، والعمل الصالح الذي يرفع اللَّه به صاحبه درجات ويجزيه الجزاء الأوفى، وينجيه من الخزي والردى يوم التغابن والجمع الأكبر، ويجزي كل نفس ما تسعى، فالمؤمنون في الغرفات آمنون، والمجرمون في جهنم يُعذَّبون، جزاءً بما كانوا يعملون.

وكفر الجحود نوعان:

أحدهما: مطلق، وهو كفر من جحد بربوبية اللَّه، أو كفر بجملة ما أنزل اللَّه على رسوله، أو كفر برسالة محمد ﷺ.

وثانيها: كفر مقيد، وهو أن يجحد المُكلَّف فرضًا من فروض الإسلام، أو يجحد تحريم شيء معلوم تحريمه من الدين بالضرورة، كتحريم الربا، والزنا، وشرب الخمر، وغيرها من المحرمات، أو يعتقد تحريم حلال معلوم حلُّه من الدين بالضرورة، كمن يعتقد تحريم النكاح الشرعي، أو تحريم أكل الخبز، ونحو ذلك مما أحله اللَّه ورتب على حلِّه من المصالح ما لا يخفى على العقلاء.

والقسم الثالث من أقسام الكفر الأكبر المخرج من ملة الإسلام: كفر العناد والاستكبار: وهما بمعنى واحد، وحدُّهما: أن يعرف المكلف ربه بقلبه، ويعترف به بلسانه، ولا يدين لله حسدًا وبغيًا، ككفر أبي طالب الذي صرح بالاعتراف بقلبه، وصرح به لسانه في قوله: وهو يعلن شهادته بأن دين محمد ﷺ خير الأديان مطلقًا إذ قال:

---

(١) آية ١١-١٣ من سورة (الحشر).

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ثم قال معتذرًا عن الإيمان به والإذعان لما جاء به من الحق:

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

ومع ذلك فقد حمله الاستكبار على رفض نصيحة النبي ﷺ له عند موته ليقول لا إله إلا اللّه ليحاج له بها عند اللّه، فأبى أن يقولها حتى مات على ملة آبائه الكافرين، فهو معهم في النار أبد الآبدين، لا يموتون فيها ولا يحيون، فبئس المصير.

ولقد روى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره عن ابن المسيب عن أبيه أنه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد اللّه بن أبي أمية، فقال: **أي عم، قل: لا إله إلا اللّه، كلمة أحاج لك بها عند اللّه ﷻ**، فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: **لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك**. فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]»(١)، ولما له من يد عند النبي ﷺ، فإنه سيشفع له يوم القيامة في تخفيف العذاب عنه لا في خروجه من النار، فقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سمع رسول اللّه ﷺ وقد ذكر عمه أبا طالب فقال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤)، وأحمد (٢٣١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٤).

ولما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، وفي لفظ له: «إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح»[1].

قلت: وهذه الشفاعة خاصة للنبي ﷺ، ومن الكفار بأبي طالب فقط. ولعلها مكافأة له لئلا تكون له منة على رسول الله ﷺ.

هذا وإن كفر أبي لهب وزوجته وكفر أبي جهل ومن على شاكلتهم كان أشد وأقبح الكفر، حتى أنزل الله في أبي لهب وزوجته المجرمة سورة المسد دعاء عليهما، ووعيدًا منكيًا لهما ولأضرابهما، قال الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ أي: خسرت يداه وشقي وتب فلم يربح، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾، ولا ﴿وَمَا كَسَبَ﴾، فلم يردَّ عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]؛ أي: ستحيط به النار من كل جانب هو ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا قد أعد له في عنقه حبلًا ﴿مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١-٥]؛ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلًا من مسد.

وعلى كلٍّ ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولابد ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عَالِمُ الغيب والشهادة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩).

٤- كفر النفاق: وهو أن يظهر صاحبه الإيمان وشيئًا من شعائر الإسلام، ويبطن الشر والعداوة لله ولرسوله ولعباد الله المؤمنين مع التكذيب بما جاء به النبي الكريم من عند العليم الحكيم، ويسمى بالنفاق الاعتقادي وهو مخرج من الملة وموجب للخلود في الدرك الأسفل من النار، بدليل قول الواحد القهار: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وهو شر أنواع الكفر وأهله شر مَنْ تحت أديم السماء، وقد سبق بيان شيء من ذلك.

وهو نوعان: أكبر وأصغر، وسيأتي تفصيل القول فيهما موضحًا بالأمثلة من الكتاب والسنة.

القسم الخامس من أقسام الكفر الأكبر المخرج من دين الإسلام بالكلية:

كفر الشك: قال أهل اللغة: الشك ضد اليقين.

وهو في الشرع: كفر الظن، وذلك بألَّا يجزم بصدق الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- ولا يكذبه؛ بل يشك في أمره، غير أنه لا يطلب من البراهين ما يزيل شكه؛ بل يظل معرضًا قد استولت أعداؤه الثلاثة على قلبه (الهوى، والشيطان والنفس الأمارة بالسوء)، فلا يحب أن يسمع شيئًا من البراهين التي تزيل الشك ليحل مكانه اليقين، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ودليل هذا النوع الخطير من أنواع الكفر قول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ومحل الشاهد: قوله تعالى إخبارًا عن حوار المؤمن للكافر ورد المؤمن عليه بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ بخلق أبيك آدم، وهو الله - جل

وعلا-، ثم من نطفة من ماء مهين يقذف في رحم المرأة، ثم نقلك من طور إلى طور في بطن الأم بدون شريك ولا ظهير حتى برزت إلى دنيا التراب، وصرت رجلًا قويًا ذا قلب وعقل وبدن ومال، فكفرت بربك وبنعمته عليك، إلى آخر الحوار الذي يمثل الحوار بين الحق والباطل، وأن عاقبة الباطل وذويه في الدنيا والآخرة العقوبات العاجلة والآجلة، ولا يتبادر إلى الذهن أن المراد بهذا النوع من الكفر هو كفر النعمة الذي هو من أنواع الكفر الأصغر - العملي -؛ بل هذا كفر الشك المخرج من ملة الإسلام، ومن مات عليه فهو من أصحاب الخلود في نار جهنم وبئس المصير.

وإذا عرفت -أيها المسلم- خطر الشك في شيء من دين اللّٰه فعليك أن تتفقد النفس بين وقت وآخر، وتجدد الإيمان واليقين، علمًا وعملًا بكل نص من نصوص الكتاب والسنة وما والاهما، ولا تنقد للغفلة وإيثار الدنيا على الأخرى فيمرض قلبك، ويضعف إيمانك ويقينك، فإذا وردت عليك الشبهات والحالة هذه فسوف تصعب عليك مقاومتها وطردها؛ لأن مقاومتها وطردها إنما يكون بالعلم الشرعي الذي وعاه القلب الحي السليم، وقبلته النفس المطمئنة، وقل دائمًا: آمنت باللّٰه وما جاء عن اللّٰه على مراد اللّٰه، وآمنت برسول اللّٰه وما جاء عن رسول اللّٰه على مراد رسول اللّٰه، وأنت جادٌّ في طلب ما جاء عن اللّٰه -جل وعلا-، وطلب ما يثبت عن رسول اللّٰه ﷺ بفهم السلف الصالح أتباع رسول اللّٰه ﷺ.

القسم السادس من أقسام الكفر الأكبر المخرج من الملة: كفر الإعراض:
وهو الإعراض عن الشرع الذي جاء به سيد البشر محمد ﷺ لا يتعلمه، ولا يعمل به، **ولا يحب أن يسمعه، أو يعقله، ولا يواليه، ولا يعاديه، كما قال بعضهم** للنبي ﷺ: «واللّٰه لا أقول لك كلمة لئن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك».

وقد دل على هذا النوع قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معاني هذه الآيات ما نصه:

(يخبر تعالى عن عقوبته البليغة بمن أعرض عن ذكره فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: يعرض ويصدّ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردَّها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيَّض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه ويَعِدُه ويُمنِّيه ويؤزُّه إلى المعاصي أزًّا ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر من حيث إنه ظن أنَّه مهتدٍ وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله مع تمكنهم من الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل؛ فالذنب ذنبهم والجرم جرمهم.

فهذه حالة المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغي وانقلاب الحقائق، وأمَّا حاله إذا جاء ربَّه في الآخرة؛ فهو شر الأحوال، وهو الندم والتحسر والحزن الذي لا يُجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ

ﭐلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم فاشتركتم في عقابه وعذابه، ولن ينفعكم أيضًا روح التسلي في المصيبة؛ فإنَّ المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقَبون؛ هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأمَّا مصيبة الآخرة؛ فإنها جمعت كلَّ عقاب ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة، نسألك يا ربنا العافية وأن تريحنا برحمتك)[1]. اهـ

كما دلَّ على هذا النوع قول اللَّه تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، في هذه الآية الكريمة العظيمة بيان واضح جلي عن الحكمة من خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه بالحق لا سُدى ولا عبثًا؛ بل ليعلم العباد خالقهم ذا العظمة والجلال وأنه على كلِّ شيء قدير.

ومن جملة الأشياء الداخلة تحت قدرته سبحانه بعثُ الخلائق ومجازاتهم على أعمالهم خيرها وشرها، ثمَّ إنه سبحانه أقام البرهان البيِّن على ذلك في هذه الآية وفي مئات من الآيات الواردة في القرآن العظيم بمعناها، وأخبر سبحانه أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضًا عن الحق وصدودًا عن دعوة الرسل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾، وأما المؤمنون فلما علموا حقائق الأمور أخذوا بوصايا ربهم العظيم، وتلقوها بالقبول والرضا والتسليم.

القسم السابع من أقسام الكفر الأكبر المخرج من الملة: كفر الإلحاد:

والإلحاد لغة: الميل والعدول من شيء إلى شيء، ويقال: ألحد في دين اللَّه؛

---

(١) (٤/١٦١٠-١٦١١).

أي: حاد عنه وعدل.

والمقصود هنا بالإلحاد: الذي هو قسم من أقسام الكفر الأكبر التكذيب والإشراك بما جاء به نبينا محمد ﷺ.

وذكر ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قول اللَّه تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال: (الإلحاد التكذيب).

ثمَّ قال ابن جرير رحمه الله: (وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد والجور عنه والإعراض، ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم ولذلك قيل للحد القبر: لحد؛ لأنه في ناحية منه وليس في وسطه يقال عنه: ألحد فلان يلحد إلحادًا)[1]. اهـ

القسم الثامن من أقسام الكفر الأكبر كفر الردة: وهو كفر من انتسب إلى الإسلام ثم ارتد عنه طوعًا واختيارًا.

والمرتد هو الراجع باختياره من دين الإسلام إلى ملة الكفر، سواءً كان بالقول أو بالفعل أو بالنية، وهذا القسم من الكفر يسمى كفرًا طارئًا، وقد دلَّ عليه قول اللَّه عز وجل: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والمعنى كما قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (... ثُمَّ أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرًا ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، لعدم وجود شرطها وهو الإسلام ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، ودلَّت الآية بمفهومها أن من ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام أنَّه يرجع إليه عمله الذي كان قبل رِدَّته، وكذلك مَن تاب مِن

---

(١) (٦/١٦٢).

المعاصي ؛ أنها تعود إليه أعماله المتقدمة)(١) . اهـ

كما دلَّ على هذا النوع قول اللَّه تعالى في سورة المائدة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، الآية .

وقد قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في معناها ما نصه :

(يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين ، وأنه من ارتد عن دينه فلن يضر اللَّه شيئًا وإنما يضر نفسه ، وأن لله عبادًا مخلصين ، ورجالًا صادقين ، تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ، ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا ، وأقواهم نفوسًا ، وأحسنهم أخلاقًا .

أجلُّ صفاتهم أن اللَّه يحبهم ويحبونه ، فإنَّ محبة اللَّه للعبد هي أجل نعمة ، وأفضل فضيلة تفضل اللَّه بها عليه ، وإذا أحب اللَّه عبدًا يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووفقه لفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد ، ومن لوازم محبة العبد لربه أنه يريد ويحرص أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وجميع أحواله ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، كما أن من لازم محبة اللَّه للعبد أن يكثر العبد من التقرب إلى اللَّه بالفرائض والنوافل ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن اللَّه -جل وعلا- : «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . . .**»)(٢) .

---

(١) تفسير سورة البقرة آية (٢١٧) .

(٢) «تفسير السعدي» (١/ ٤٢٨) .

قلت: وفي كلتا الآيتين بيان واضح لخسران المرتد عن دينه الذي قد أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، ثمَّ سوَّل له عدوه الشيطان الردة التي هي أخبث الكفر، فأطاعه ولبَّى دعوته فأورده شر الموارد، وأوقعه في غضب الله ومات على ذلك فذاق أليم العذاب ودوامه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٤- ٧٦].

ولتكن على علم أن تقسيم الكفر الأكبر إلى ثمانية أقسام وهي التي سبق عددها وذكر ضوابطها وأدلتها الشرعية، هو باعتبار بواعث الكفر، ومما ينبغي أن يعلم أن العلماء وإن اختلفوا في العدد إلا أن أنواع الكفر تتداخل، أي يدخل بعضها في بعض، فتجد بعضهم عدها أربعة، وبعضهم عدها تسعة كما رأيت هنا، وعليه فإن العدد الكثير يعتبر كالتفصيل للعدد القليل، وتقسيمهم بجميع الاعتبارات علموه بالتتبع والاستقراء للنصوص كما هو معلوم من الأدلة الواردة في شأن كل قسم.

ن:

وَكُلُّ نَوعٍ مِن نَظِيرِهَا وَرَد فَاحكُم عَلَيهِ مِثلَهَا بِدُونِ رَد

الشرح: وما أتى من الألفاظ والمعاني نظير تلك الأقسام فإنه يأخذ حكمها ويجري مجراها في الحكم.

ن:

وَالكُفرُ بِالفِعلِ وَبِالقَولِ ثَبَت فِي مُحكَمِ التَّنزِيلِ آيَاتٌ أَتَت
كَذَاكَ بِالقَلبِ وَنَصُّهُ ظَهَر فِي مَصدَرِ التَّشرِيعِ آيٍ وَأَثَر

الشرح: معنى ذلك أن الكفر باعتبار ما يقوم به من أعضاء البدن ثلاثة أقسام:

كفر قولي: أي بالقول، وتعريفه: هو ما يجري على اللسان من الأقوال

المُكَفِّرة على سبيل الاختيار، وذلك كَسَبِّ اللَّه -جل وعلا-، وسَبِّ الرسول ﷺ، وسَبِّ دين الإسلام، وسب القرآن الكريم، وسب السنة المطهرة، وسب جميع أصحاب الرسول ﷺ، ونحوها، كل ذلك من الأقوال التي تخرج قائلها من ملة الإسلام إن كان قبل أن يقولها مسلمًا.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا القسم من أقسام الكفر: (من قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدًا لها، عالمًا بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا)[1].

وقد قرر أهل العلم أن قول الكفر مُكَفِّر بذاته وليس هو دليلًا على الكفر كما تقول الجهمية الضالة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعًا فقد شرح بها صدرًا، وهي كفر)[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأيضًا فإنه سبحانه استثنى المكره من قِبَل الكفار، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره؛ لأنَّ الإكراه على ذلك ممتنع، فاعلم أن التكلُّم بالكفر كفر إلا في حال الإكراه)[3].

وهذا النوع كما علمت مخرج من الملة الإسلامية.

قلت: قد ورد استثناء المكره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] كما في قصة عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والنوع الثاني: كفر أصغر لا يخرج من الملة، وقد ورد مثاله صريحًا في السنة المطهرة، فقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «اثنتان في

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٢٣-٥٢٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٦٠).

الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنِّياحة على الميت»(١).

والشاهد منه: إطلاق الشارع الكفر على هذين الذنبين اللذين لا يخرجان صاحبهما من دائرة الإسلام، فعلم بذلك أنهما من قبيل الكفر الأصغر الذي هو قسيم الكفر الأكبر، وقد أشرت إليه في الشطر الثاني من البيت الأول من المنظومة وسيأتي ذكره قريبًا إن شاء اللَّه.

وكفر عملي: والمراد به ما يقوم ببعض الجوارح التي أتى في النصوص وصفها بالكفر، وهو نوعان:

- نوع مخرج من الملة إذا كان مقترفه مسلمًا قبل الوقوع فيه ومن أمثلته: السجود للصنم طوعًا، ورمي كتاب اللَّه في موضع النجاسات استهانة به، وبغضًا له، وقتل الأنبياء، وسبهم، أو واحد منهم، وهذا النوع يضاد الإيمان مضادة كلية.

وأمّا قضية الحكم بغير ما أنزل اللَّه فيصح أن يمثل به للكفر المخرج من الملة، وذلك إذا حكم الحاكم بغير ما أنزل اللَّه معتقدًا أنه أحسن وأنفع للناس من حكم اللَّه، أو أنهما سواء في الصلاح؛ أي: أحكام الجاهلية كأحكام الإسلام سواء بسواء، أو أنه يجوز أن يحكم بقوانين أهل الجاهلية وعاداتهم المخالفة لشرع اللَّه، وكذلك الاستبدال، ومعناه: استبدال قوانين البشر ونظمهم التي صدوا بها الناس عن الحكم بالشرعة المطهرة وقالوا لهم: هذا من عند اللَّه، ولا يصلح لكم سواه فأحلوا للناس الحرام، وحرموا عليهم الحلال استبدالًا كليًّا، فهذا كفر صريح مخرج من الإسلام؛ إذ إن فاعله والراضي به لم يكن معه شيء من الانقياد لشرع اللَّه، ولم يكن معه شيء من الإيمان بما أنزل اللَّه.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧).

وأمَّا ما يتعلق بشأن ترك الصلاة: فإنَّ الإجماع ثابت على كفر من جحد وجوبها بعد قيام الحجة عليه كفرًا مخرجًا من الملة إن كان قبل ذلك مسلمًا، وأما من تركها كسلًا وتغافلًا وتثاقلًا عن أدائها فإنَّ الحكم له بالإسلام، أو الحكم عليه بالكفر المخرج من الملة، مشهور بين أهل العلم، منهم القائل بإسلامه لنطقه بالشهادتين وإيمانه بفرضيتها، وما ورد في النص من وصفه بالكفر فيراد به الكفر الأصغر العملي، ومن العلماء من قال بكفره الكفر المخرج من الملة، واستدلوا بنصوص من الكتاب والسنة أوردتها في كتابي «الأفنان الندية»[1].

وأما من ادعى أن الكفر العملي يقابل الكفر الاعتقادي ولا يخرج من الملة مطلقًا فغير مصيب في دعواه؛ لأن من قسم الكفر العملي إلى ما هو مخرج من الملة وما هو غير مخرج من الملة، وقد اعتمد في تقسيمه على أدلة كما رأيت فيما مضى.

وقد استشكل أهل العلم قول من قال: إن الكفر العملي غير مخرج من الملة مع القول بتقسيمه إلى مخرج من الملة وغير مخرج فيوجد الجواب في «أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة» لشيخنا الجليل علامة زمانه حافظ بن أحمد بن علي الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال: (إذا قيل لنا: هل السجود للصنم والاستهانة بالقرآن، وسب الرسول ﷺ، والهزل بالدين ونحو ذلك، وهذا كله من الكفر العملي فيما يظهر، فلِمَ كان مُخرِجًا من الدين وقد عَرَّفْتُم الكُفر الأصغر بالعملي؟).

فقال الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعلم أن هذه الأربعة وما شاكلها ليس هي من الكفر العملي إلا من جهة كونها واقعة بعمل الجوارح فيما يظهر للناس، ولكنها لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب من نيته وإخلاصه ومحبته وانقياده لا يبقى معها شيء من ذلك، فهي وإن كانت عملية في الظاهر

(١) «الأفنان الندية» (١ / ٣٥٣) وما بعدها.

فإنها مستلزمة للكفر الاعتقادي ولابد، ولم تكن هذه لتقع إلا من منافق مارق، أو معاند مارد، وهل حمل المنافقين في غزوة تبوك على أن قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا إلا ذلك مع قولهم لما سُئلوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]).

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونحن لم نعرف الكفر الأصغر بالعملي مطلقًا؛ بل بالعملي الذي لم يستلزم الاعتقاد ولم يناقض قول القلب ولا عمله)(١).

الكفر القلبي: تعريفه: هو ما يقوم بالقلب من الاعتقادات المُكَفِّرة؛ كاعتقاد شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ في ألوهيته، أو في ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، أو اعتقاد كذب الرسول ﷺ، أو التكذيب بشيء مما جاء به، وما كان مثل ذلك من المُكَفِّرات الاعتقادية، وقد سُمِّي هذا النوع من أنواع الكفر بالكفر القلبي الاعتقادي؛ لأنه يعود إلى الاعتقاد.

ن:

وَمَا سِوَى هَذِي فَكُفْرٌ عَمَلِي ... فَافْهَم وَحَقِّق يَا وَرِيثَ الرُّسلِ
كَكُفرِ نِعمَةٍ وَقَتلِ المُسلِمِ ... وَرَغبَةٍ عَن وَالِدٍ فَلتَفهَمِ
وَمَن يَقُل بِالنَّوءِ قَد مُطِرنَا ... فَذَاكَ كَافِرٌ كَمَا عَلِمنَا
كَذَا نِيَاحَةٌ بِصَوتٍ مُرتَفِع ... فَذَاكَ كُفرٌ وَبِنَصٍّ قَد رُفِع
وَالطَّعنُ فِي الأَنسَابِ شَأنُهُ خَطَر ... وَفِعلُهُ كُفرٌ بِنَصٍّ مُعتَبَر
وَامرَأَةٌ حَقَّ العَشِيرِ أَهمَلَت ... وَهَكَذَا الإِحسَانَ مِنهُ أَنكَرَت
وَمَن يُجَامِع زَوجَةً فِي الدُّبُرِ ... فَذَاكَ مَلعُونٌ بِنَصِّ الأَثَرِ
وَكُفرُهُ عَنِ النَّبِيِّ قَد وَرَد ... وَالنَّصُّ فِيهِ ثَابِتٌ وَمُعتَمَد

الشرح: معنى هذه الستة الأبيات إجمالًا: أن ما سوى الكفر الأكبر الذي

---

(١) «أعلام السنة المنشورة» (ص ١٨١-١٨٢).

سبق الحديث عنه بأنواعه الثمانية فهو كفر عملي، ويطلق عليه الكفر الأصغر، وأمثلته كثيرة في الكتاب والسنة، ومنها ما أشرت إليه في الأبيات الستة، والتفصيل والتمثيل فيما يلي:

كفر النعمة، وتعريفه: هو إسناد النعمة وإضافتها إلى غير اللَّه ﷻ مما هو سبب فقط من آدمي أو غيره في جلب مصلحة أو دفع ضرر، والواجب أن ينسب المكلف ما نال من خير أنعم اللَّه به عليه إلى اللَّه المنعم العظيم، وإن كانت بسبب ما، ولا يجوز أن ينسبها أو يضيفها إلى السبب أو المتسبب في وجودها؛ لأنه إذا أضافها إلى السبب أو المتسبب معتقدًا أن المتسبب في حصولها هو المتفضل بجلب المصلحة أو دفع النقمة فقد وقع في الكفر الأكبر -والعياذ باللَّه-، وأما إذا أضافها إلى السبب أو المتسبب له في الحصول عليها بلسانه وهو معتقد بقلبه أن اللَّه هو المنعم بحصول النعم ودفع المحن والنقم، غير أنه جرى على لسانه إضافتها إلى غيره سبحانه فهذا كفر أصغر لا يخرج من ملة الإسلام، إلا أنه ينافي كمال التوحيد ويلحق صاحبه الإثم الذي يكون به على خطر عظيم.

والمخرج من الوقوع في الخطأ في مثل عبارة: لولا فلان ما حصل كذا، أو ما حصلت على كذا، أو لحصل كذا، أو لما حصل لي كذا وكذا، أي يجب أن يجعل مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة اللَّه ذي الملك والملكوت الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ويتبين هذا النوع من أنواع الكفر الأصغر ويقال له الكفر العملي ألا وهو «كفر النعمة» بذكر شيئين:

الشيء الأول: وجوب شكر نعم اللَّه على مخلوقاته عمومًا؛ وبالأخص بنو آدم الذين خصهم اللَّه بخصائص وفضلهم بأشياء لم تكن لغيرهم من العوالم الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

نعم، فَضَّلهم على سائر العوالم فأعطاهم من الكمالات في الخلقة ما لم تظفر به بقية العوالم وامتنَّ عليهم بذلك فقال -عزَّ شأنه-: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وفضلهم بالفطرة على التوحيد كما قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال الإمام ابن كثير ما نصه: (يقول تعالى: فسدِّد وجهك، واستمر على دينك ملة إبراهيم الحنيفية، التي هداك اللَّه لها وأكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر اللَّه الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(١)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لدين اللَّه؛ أي: لا تبديل لدين الإسلام الذي فطر الناس عليه.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟** ثمَّ يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾»(٢).

وروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع التيمي رضي الله عنه قال: «أتيت رسول اللَّه ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفرًا، فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: **ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟** فقال رجل: يا رسول اللَّه، أما هم أبناء المشركين؟ ثُمَّ قال: **لا تقتلوا الذرية،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

لا تقتلوا الذرية، وقال: **كُلُّ نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها، أو ينصرانها**»[١]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم»[٢]. اهـ

كما فضلهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإيجاد العلماء الذين هم ورثة الرسل الدعاة بدعوتهم وبقبول ذلك تطيب الحياة، وبغير ذلك لا قيمة للحياة، ولا خير فيها للعوالم، وفي مقدمتهم بنو آدم؛ بل وعالم الجن معهم؛ لأن الجميع مأمورون بالطاعة، وعمومًا فَضَّل اللَّه بني آدم بما سخر لهم كما قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السموات والأرض، ولما أودع اللَّه فيهما من الشمس والقمر والكواكب الثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو مُعَدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضرورياتهم؛ فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتوسع أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وجملة ذلك: أنَّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة اللَّه وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة، دَالٌّ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته

---

(١) أخرجه أحمد (١٥١٦٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٠٢).
(٢) (٣/ ٤٣٨- ٤٣٩).

وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكلٌّ ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًّا)[1]. اهـ

قلت: ولقد أمر اللَّه بشكره على نعمه الدينية والدنيوية في مواضع في الكتاب العزيز: قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ **في معناها**: (يعني -تعالى ذكره- بذلك: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ يقول: ولا تجحدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها وأزيدكم، فأتمم نعمتي عليكم وأهديكم لما هديت له من رضيته عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته، ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته)[2]. اهـ

ومنها قوله -جلَّ وعزَّ-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وفي هذه الآية الكريمة إخبار من اللَّه أن شُكر الشاكر يعود نفعه عليه، وأن من كفر النعم ولم يقم بشكرها عاد وبال ذلك عليه، وأن شكر المنعِم سبحانه فرض من فروض هذا الدين يقوم به الموحدون المؤمنون، الذين يقدِّرون اللَّه حق قدره، ويصفونه بصفات الكمال التي لا تنبغي إلا له وحده دون ما سواه، وفيها دليل على إطلاق الكفر على من كفر النعمة ولم يشكرها كما أمره ربه.

هذا ولقد وعد اللَّه الشاكرين له بالزيادة من الخير الديني والدنيوي فقال عَجَّلَ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي

---

(١) (٤/ ١٦٣٣و١٦٣٤).

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢/ ٤٠و٤١).

﴿لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمعنى: لقد أعلمكم الله -تبارك وتعالى- بوعده الكريم لكم أنكم إن شكرتموه على نعمائه؛ فإنه يزيدكم من خيري الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وأما إن كفرتم نعمه وجحدتموها فليس لكم عنده إلا العذاب الشديد جزاءً وفاقًا ولا يظلم ربك أحدًا.

والشيء الثاني: التحذير من كفر النعم الذي يكون بإضافتها إلى غير المنعم وهو الله ﷻ ويكون بصرفها فيما لا يجوز أن تُصرَف فيه من أنواع الفساد، كما يكون بإنكارها وعدم التحدث بها والثناء بها على المنعم الكريم -جل وعز-.

ومن أمثلة إطلاق لفظ الكفر على بعض الذنوب والمراد به الكفر الأصغر، ويسمى الكفر العملي: «قتل المسلم»: وقد دلَّ على ذلك قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[١]، وكما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢]؛ فإن الكفر الأكبر غير مراد ولا مقصود في هذين النصين، وإنما المراد الكفر الأصغر، ولا يكون قاتل المسلم كافرًا كفرًا أكبر إلا باستحلاله استحلالًا قلبيًّا.

وقد جاء إطلاق الكفر على من انتسب إلى غير أبيه رغبة عن أبيه لأمر ما، فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر**»[٣]. وليس المراد به هنا الكفر الأكبر، وإنما المراد به الكفر الأصغر، ويقال له: الكفر العملي، ويقال فيه ما قيل في سابقه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (٦٢).

كما جاء إطلاق الكفر على من قال: «**مطرنا بنوء كذا**»(١)؛ أي: بنجم كذا؛ يعني: بطلوعه أو سقوطه، وهذا اللفظ فيه إسناد إنزال المطر إلى النجم أو المنزلة التي هي الوقت، أو يقول القائل: «لقد جاد نوء كذا، أو: لم يَجُدْ نوء كذا» وذلك كاللفظ السابق فيه إسناد النعمة إلى النجم؛ أي: إلى طلوعه، وفي ذلك إساءة أدب مع اللّه الذي انفرد بإنزال الغيث وإمساكه كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، والشاهد من الآيتين: أن إنزال الغيث في أي وقت أو إمساكه كذلك من خصائص الرب -تبارك وتعالى-، وأن إسناده إلى غير اللّه كالنجوم أو المنازل كفر أصغر، لما فيه من استعمال تلك الألفاظ المذكورة التي تشعر بوجود أثر للنجم أو المنزلة في إنزال المطر.

وأما إذا اعتقد المسلم أن فاعل الإنزال للمطر هو النجم أو المنزلة فهذا كفر أكبر وشرك أكبر، لما فيه من اعتقاد شريك مع اللّه يرزق الخلائق وهذه عقيدة فاسدة؛ بل اللّه هو الرازق وهو خير الرازقين، قال ﷻ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فإن الرزق من اللّه، والمطر سبب الرزق والثمار والحبوب وزينة الأرض يأتي اللّه بها وحده بدون ما شريك ولا ظهير.

وقد جاء الترهيب من هذه الألفاظ الكفرية والشركية في السُّنة الكريمة في مواضع: منها ما جاء في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: **أتدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: **قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بكذا أو كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[١].

والمقصود هنا: أنه قد يطلق لفظ الكفر على عمل من أعمال اللسان أو الجوارح ولا يُراد به الكفر الأكبر المخرج من الملة الإسلامية، وإنما المراد به الكفر العملي ويقال له: الكفر الأصغر، وذلك لما في إطلاقه على ذلك الذنب من الزجر والتغليظ ما لا يخفى على طالب العلم الفطن.

وقد ورد في النصوص إطلاق الكفر على كلٍّ من: عمل النياحة على الميت، والطعن في الأنساب، وإهمال الزوجة حقَّ العشير وإنكار إحسانه إليها، ويجب أن يعلم أن هذه الذنوب ليست من الكفر الأكبر المخرج من ملة الإسلام وإنما هي من الكفر الأصغر ويقال له: الكفر العملي، وإطلاق لفظ الكفر عليها زجرًا لفاعليها وترهيبًا لهم من الوقوع فيها.

فأما النياحة فالمراد بها: ندب الميت بذكر المحاسن سواءً أكانت فيه أو لم تكن فيه، كالكرم، والشجاعة، وصنع المعروف ونحوها، وذلك مع رفع الصوت بالبكاء والصراخ، وقد يصحب ذلك شقُّ الجيوب ولطم الخدود.

وأما الطعن في النسب: فهو افتخار الرجل أو المرأة بنسبهما على الغير لسبب أو لغير سبب، وذلك فعل مذموم.

وأما كفران العشير الصادر من النساء: فقد جاء في الصحيحين عن ابن عباس ﭫ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُرِيت النار وإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن، قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثُمَّ رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦)، ومسلم (٧١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩).

كما جاء أيضًا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(١).

ومن غير شك أن لفظ الكفر الذي وصفت به تلك الذنوب ليس المقصود الكفر العام المخرج من الإسلام؛ بل المراد به: الكفر الأصغر الذي يسمى الكفر العملي وكفر دون كفر.

ثمَّ ختمت هذه الأبيات التي أوضحت فيها أنواع الكفر الأكبر والأصغر موضحة بالضوابط والفروق والأمثلة ختمتها بذمِّ الكفر وهو المستحق للذمِّ، وبمدح الإيمان وهو الجدير بالمدح إذ قلت:

ن:

لَا حَبَّذَا الكُفرُ وَسَاءَ الكَافِرُ	وَحَبَّذَا الإِيمَانُ يَا عَبَاقِرُ
وَاحذَر مِنَ التَّكفِيرِ وَالتَّفسِيقِ	وَهَكَذَا التَّبدِيعُ يَا رَفِيقِي
مِن دُونِ حَقٍّ أَو دَلِيلٍ يُتَّبَع	فَتَحمِلَ الوِزرَ وَفِي الشَّرِّ تَقَع
وَدَع غُلُوًّا وَابتَعِد مِنَ الجَفَا	وَالوَسَطَ اسلُك يَا وَرِيثَ المُصطَفَى
وَمَن رَمَى بِالكُفرِ عَبدًا مُسلِمَا	حَقَّت عَلَى البَاغِي يَقِينًا مِنهُمَا
دَلِيلُهُ نَصٌّ صَحِيحٌ قَد أَتَى	فِي السُّنَّةِ الغَرَّا صَرِيحًا مُثبَتَا
فَارجِع إِلَيهِ وَبِهِ فَلتَعمَلَن	وَالطَّيشَ دَعهُ وَاحتَرِز مِنَ الفِتَن

الشرح: هذه السبعة الأبيات فيها بيان أربع مسائل:

المسألة الأولى: وجوب بغض الكفر وبغض جميع أصناف الكفرة؛ لأنهم أعداء لرب العالمين، وللرسول الكريم محمد -صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين-، ولدين الإسلام والمسلمين، وما ذلك إلا لأنهم عصوا اللّه ورسوله، وحاربوا رسل اللّه الكرام، وردوا دعوتهم، وصدوا عن سبيل اللّه، فلعنهم اللّه

(١) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على سبيل العموم فقال ﷻ: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وعلى سبيل الخصوص إذ قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وكرههم اللَّه فوجب كرههم، وكره ما هم عليه من الكفر وأمر الجاهلية.

المسألة الثانية: وجوب محبة الإيمان وأهله، لأن الإيمان يتجلى في محبة العبد لربه، ومن ثَمَّ طاعته وطاعة رسله، وتقديره حق قدره، فيترتب على ذلك رضا اللَّه -جلَّ ثناؤه- عن عبده المؤمن وإكرامه له بجنته.

المسألة الثالثة: التحذير من هجوم بعض المسلمين على بعض بالتكفير أو التفسيق أو التبديع، والواجب حفظ اللسان من إطلاق لفظ الكفر على المرء المسلم أو الفسق أو البدعة من دون ما حق يبيح ذلك، أو دليل من كتاب أو سنة يستند إليه ويعتمد عليه بفهم من يُقتدى بهم ويُنتهى إلى علمهم من أهل الفقه في الدين والورع الذي يَحمِلُ ذويه على الابتعاد عن الوقوع في أعراض المسلمين سواء من الأحياء أو الأموات لا بتكفير ولا تفسيق ولا تبديع، ولا يجرحون مسلمًا بدون موجب واضح لجرحه، أو مصلحة شرعية فيها إحقاق الحق ودحض الباطل، وذلك لأن المسلم الأصل فيه البقاء على الإسلام حتى يرتكب من الإجرام قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا يتبين به ذهاب ما كان عليه من الإسلام والإيمان بدليل محكم من نصوص الكتاب والسنة، وليس لمرتكب جريمة الكفر عذر شرعي يعذر به، إلا المكره فإنه يعذر إذا أكره على النطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وحينئذٍ لا حرج على من كفره.

وأما الهجوم من بعض المسلمين على بعض -جماعات أو أفرادًا- بدون ذلك فلا يجوز فعله ولا السكوت عن فاعله؛ بل يجب على أهل العلم وأهل السنة أن ينكروا على من فعل ذلك؛ كي يتبين الحق ويتضح الخط المستقيم في هذه المسألة التي تعتبر من المسائل المهمة في غابر الزمان وفي حاضره.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن أورد نقولًا واضحة في المسألة عن شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب -رحمهما اللَّه- قال -ونِعِمَّا قال-: (فالأصل فيمن ينتسب للإسلام بقاء إسلامه حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل في تكفيره؛ لأن في ذلك محذورين عظيمين:

أحدهما: افتراء الكذب على اللَّه تعالى في الحكم وعلى المحكوم عليه في الوصف الذي نبزه به.

أمَّا الأول: فواضح حيث حكم بالكفر على من لم يكفره اللَّه تعالى فهو كمن حرم ما أحل اللَّه، لأن الحكم بالتكفير أو عدمه إلى اللَّه وحده كالحكم بالتحريم أو عدمه.

وأمَّا الثاني: فلأنه وصف المسلم بوصف مضاد، فقال: إنه كافر، مع أنه بريء من ذلك، وحَرِيٌّ به أن يعود وصف الكفر عليه لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد اللَّه بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**أيما رجل قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما**»(١). وفي رواية: «**إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»(٢).

وله من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو اللَّه، وليس كذلك إلا حار عليه**»(٣) يعني: رجع عليه.

وقوله في حديث ابن عمر: «**إن كان كما قال**» يعني: في حكم اللَّه تعالى، وكذلك قوله في حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وليس كذلك**» يعني: في حكم اللَّه تعالى.

وهذا هو المحذور الثاني، أعني: عود وصف الكفر عليه إن كان أخوه بريئًا

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤).
(٢) أخرجها مسلم (٦٠).
(٣) أخرجه مسلم (٦١).

منه، وهو محذور عظيم يوشك أن يقع به، لأن الغالب أن من تسرع بوصف المسلم بالكفر كان معجبًا بعمله الذي قد يؤدي إلى حبوطه، وبين الكبر الموجب لعذاب اللَّه تعالى في النار كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال اللَّه عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار**»[١].

فالواجب قبل الحكم بالتكفير أن ينظر في أمرين:

الأمر الأول: دلالة الكتاب والسنة على أن هذا مكفِّر لئلا يفتري على اللَّه الكذب.

الأمر الثاني: انطباق الحكم على الشخص المعين بحيث تتم شروط التكفير في حقه وتنتفي الموانع.

ومن أهم الشروط: أن يكون عالمًا بمخالفته التي أوجبت كفره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فاشترط للعقوبة بالنار أن تكون المشاقة للرسل من بعد أن يتبين الهدى له.

ولكن هل يشترط أن يكون عالمًا بما يترتب على مخالفته من كفر أو غيره، أو يكفي أن يكون عالمًا بالمخالفة وإن كان جاهلًا بما يترتب عليه؟

الجواب: الظاهر الثاني؛ أي: أن مجرد علمه بالمخالفة كافٍ في الحكم بما تقتضيه؛ لأن النبي ﷺ أوجب الكفارة على المجامع في نهار رمضان لعلمه بالمخالفة مع جهله بالكفارة، ولأن الزاني المحصن العالم بتحريم الزنا يرجم وإن كان جاهلًا بما يترتب على زناه، وربما لو كان عالمًا ما زنى)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٣٥)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١١).
(٢) «فتاوى أركان الإسلام» (ص١٣٧).

وما قيل في التحذير من الجرأة على إطلاق لفظ التكفير على المسلم بدون التزام شروط التكفير وموانعه يقال في التفسيق والتبديع، فلا يجوز إطلاق واحد منهما إلا ببرهان من محكمات النصوص بالفهم الصحيح حذرًا من القول على الله بدون علم، وما أعظم الوعيد عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فقد اعتبر الرب -عزَّ شأنه- القول عليه بدون علم أكبر الآثام التي منها الإشراك به -جل وعلا-، وما ذلك إلا لعظم خطره، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ففي قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيها نهي صريح عن تتبع العبد ما ليس له به علم؛ بل لا بد أن يتثبت قبل أن يقوله ويفعله، فإن ما يقول العبد ويفعل مسئول عنه يوم القيامة، فليحسب لذلك حسابًا، وليعد له جوابًا، فاللهم سَلِّم سَلِّم، هذا أولًا.

وثانيًا: انتهاك حرمة المسلم بوصفه بالكفر أو الفسق أو البدعة، يكون إما من طريق سوء الظن، والله قد أمر باجتنابه، كما في قوله -جلَّ ثناؤه-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال السعدي في تفسير هذه الآية ما نصه: (نهى تعالى عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة؛ فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك؛ بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم

وبغضه وعداوته المأمور بخلافها منه، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها، ودعوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن زلاته التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي)[١].

قلت: وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع اللَّه عورته، ومن يتبع اللَّه عورته يفضحه في بيته**»[٢]. وقد جاء هذا الحديث من طرق متعددة يعضد بعضها بعضًا.

(﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾. والغيبة كما قال النبي ﷺ هي: «**ذكرك أخاك بما يكره**، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[٣]. ثُمَّ ذكر مثلًا منفرًا عن الغيبة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، شبه أكل لحمه ميتًا المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه خصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح، فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًّا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، والتواب: الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقَبِلَ منهم التوبة.

وفي هذه الآية: دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنها من الكبائر، لأن اللَّه شبهها بأكل لحم الميت وذلك من الكبائر).

وإما من طريق الإشاعات المغرضة ضد الشخص من آخرين ليس معهم برهان على نبزهم وتجريحهم له، والمظلوم بريء من ذلك، فالحذر الحذر أيها

---

(١) (٤ / ١٦٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٢٧٧)، وأبو داود (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المسلم من سوء الظن بأخيك المؤمن الذي لا يُعرف عنه إلا فعل الخير وقول الحق واحترامه، كما تحب أن تُحترم من قِبَل الآخرين، واسمع إلى قول الناصح الأمين والنبي الكريم ﷺ، روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع: **«ألا أخبركم بالمؤمن؟ المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة اللَّه، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»**[1].

(والمعنى الإجمالي لهذا الحديث باختصار: هو أن النبي الكريم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، قد وصف المؤمن الصادق في إيمانه بأنه ذو أمانة صادقة شرعية على كل ما اؤتمن عليه عمومًا، وعلى أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم خصوصًا، بحيث لا يأكل شيئًا من أموالهم بالباطل، ولا يكون منه اعتداء سرًّا أو جهرًا على أنفسهم ولا على أعراضهم؛ لأن النبي ﷺ قد حرم على المسلمين دماء وأموال وأعراض إخوانهم المسلمين تحريمًا قاطعًا إلا بحق شرعي، كما وصف بأنه مجاهد لنفسه الأمارة بالسوء جهادًا كبيرًا، وذلك بإلزامها بطاعة خالقها ومولاها، وكبح جماحها عما فيه شقاؤها وَرَدَاها، وكذلك بحبسها لتحيا صابرة على كل قضاء وقدر قد أبرمه اللَّه فأمضاه وفق عدله وحكمته - جلَّ في علاه -.

ووصفه أخيرًا بهجران الخطايا التي لا يبتعد عنها إلا المؤمن العاقل، وذلك لما لمقارفتها من الأثر السيئ في حياة الأفراد والجماعات والأمم؛ بل البلاد والعباد، في هذه الحياة وبعد الممات، كما هو مفصل في نصوص الكتاب والسنة، إذ ما من عقوبة دنيوية أو أخروية إلا وسببها الوقوع في الخطايا

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٩).

والذنوب التي تبذر الفساد في الأرض، وتغضب علَّام الغيوب، كما قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال -عزَّ من قائل كريم-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد تقدم شيء من هذا الإيضاح لهذا المعنى، وجاء في دعاء الاستفتاح المأثور الصحيح ما أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذ كبر في الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل القراءة فقلت: يا رسول اللَّه، بأبي أنت وأمي أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول: **اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**»[(١)].

وعليه؛ فلا غرابة أن يكون الأمين على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم، والمجاهد نفسه في طاعة اللَّه، وذو الهجران للخطايا والذنوب مؤمنًا حقيقي الإيمان، وإذن فالحديث يعتبر ميزانًا شرعيًّا يزن به المرء نفسه؛ بل وغيره فيظهر له الفرق بين الإيمان الحقيقي والإيمان الصوري)[(٢)]. اهـ

المسألة الرابعة: التحذير بشدة واهتمام من الغلو في الدين، والغلو هو

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).
(٢) «الأجوبة السديدة» (٤/ ٥٥-٥٧).

مجاوزة الحد، والجفاء هو التفريط والتقصير في أمور الدين.

أقول: إن الشريعة الإسلامية السمحة تحذر من الغلو والتنطع في دين الله وتأمر بالاعتدال والوسطية بين الغلو والجفاء، إذ ذلك هو سبيل المؤمنين وهو الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، والنهي وإن كان موجهًا لأهل الكتاب إلا أنه تحذير لنا كذلك، لما للوقوع فيه من المفاسد الضارة في الدين والدنيا، ولما في السلامة منه من المصالح كذلك.

ومن تأمل النصوص الواردة في الكتاب والسنة في التحذير من الغلو تبين له أنه محرم أشد التحريم وكبيرة من كبائر الذنوب، وقد يفضي بصاحبه إلى الشرك الأكبر كما هو معلوم من النصوص المحكمة، وقد خاف النبي ﷺ على أمته منه، وحذرهم أشد التحذير منه، فقال ﷺ: «**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم**»(١). كما أخبر النبي ﷺ أن الغلو سبب في هلاك أهله حيث قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»(٢).

والحقيقة: أن الغلو والإفراط والتنطع يتجلى في أفعال الخوارج وأقوالهم، حتى أوصلهم الغلو إلى تكفير المسلمين وحكام المسلمين وعلماء المسلمين؛ بل وأوصلهم غلوهم وتنطعهم إلى قتل الأنفس المعصومة من مسلمين ومستأمنين ومعاهدين، كما أوصلهم غلوهم الذميم إلى تخريب المنشآت والاعتداءات وإلى الاغتيالات، فتبًا لهم، ما أقبح عقيدتهم وسلوكهم، وكم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٤٦٨)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٣١٢٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٤)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

لهم من تصرفات مشينة كالغدر والخيانة وعدم القيام بالأمانة، وما صنيعهم في العشر السنوات الماضية عن الأذهان ببعيد، وما امتداده إلى وقتنا هذا عن الأذهان ببعيد، كذلك فنسأل اللَّه أن يجعل للمسلمين منهم ومن أمثالهم فرجًا ومخرجًا.

ويقابل الغلو ويضاده: الجفاء، وهو القصور والتساهل في أمور الدين، كتضييع الفرائض والواجبات، وانحطاط الأخلاق واتباع الشهوات، وترك مجالسة الأخيار ومحبة مجالس اللغو والأشرار، بدون استحياء من العزيز الغفار، ولا خوف من الواحد القهار.

والوسطية والاعتدال هما سبيل المؤمنين في العقيدة والشريعة جملة وتفصيلًا، كما فعل الصحابة الكرام، والعظماء من القرون المفضلة والتابعون لهم من صالح الأنام، إلى يوم الوقوف بين يدي اللَّه الملك العلَّام.

وأخيرًا: فإن من أخلاق المؤمنين والمؤمنات: الثبات على الحق والحذر من الغلو والجفاء؛ إذ لا خير منهما يرجى؛ بل عكس ذلك يكون، وهذه النبذة النثرية هي التي أشرت إليها في المنظومة بقولي:

وَدَع غُلُوًّا وَابتَعِد مِنَ الجَفَا وَالوَسَطَ اسلُك يَا وَرِيثَ المُصطَفَى

* * *

كلمة تتعلق بما سبق تدوينه

لقد سبق الحديث مفصلًا عن التوحيد ومكانته الرفيعة ومنزلته العالية، وسأتحدث في هذا العنوان عن شيئين:

الشيء الأول: ما أكرم اللَّه به أهل التوحيد في الدنيا والبرزخ والآخرة.

والشيء الثاني: بيان عقوبة أهل الكفر في الدنيا والبرزخ والآخرة.

فأما ما أكرم اللَّه به أهل التوحيد ومحققيه في الدنيا فهي الحياة الطيبة المباركة، وعصمة الدم والمال والعرض، وحياة العدل والإنصاف، ودحر الظلم والجور والفساد والإسراف، حفظهم اللَّه بالطيب النافع المفيد، وحماهم من كل ضار في المال والدم والعرض، وما ذلك إلا لأنهم حفظوا اللَّه بإقامة دينه رجاء رحمته لهم وحفظه، وخشية عقوبته امتثالًا لقول النبي ﷺ: «**احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، تعرف إلى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1].

وما أكرم اللَّه به أهل التوحيد في البرزخ فهي تثبيته لهم بالقول الثابت، وذلك عند سؤال منكر ونكير، فإن السؤال في القبور فتنة، وهو أول منزل من منازل الآخرة، وصاحب القبر إما في جنة وإما في نار، إلى أن تقوم الخلائق من أجداثها بين يدي الواحد القهار.

وأما ما يكرم اللَّه به أهل تحقيق التوحيد فإنه يدخلهم الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومن حاسبه منهم حاسبه حسابًا يسيرًا وهو العرض، وأعلاهم منزلة المقربون لهم روح وريحان وجنة نعيم، ويليهم في المنزلة أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، ويليهم في المنزلة أهل التوحيد

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الظالمين لأنفسهم الذين هم تحت مشيئة رب العالمين وهم من أصحاب اليمين، هذا وكم من آية كريمة جاءت في القرآن الكريم فيها البشارة لأهل تحقيق التوحيد بالجنة ونعيمها كقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وكقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

وكقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ١٠-٢٦].

وكقوله -تبارك وتعالى-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وكقوله -جل وعلا-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٤٦-٧٨].

كما بُشروا بذلك في السنة الكريمة فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك!! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: أيُّ شيء أفضل من ذلك!! فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[(١)].

ومن ذلك: ما ثبت في المسند وغيره من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي**»[(٢)].

ومن ذلك: ما ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في قبة نحوًا من أربعين فقال: **أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟** قلنا: نعم، قال: **أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟** قلنا: نعم، قال: **والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في الثور**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٨٠٠)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١١١).

الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»[١].

كما بشَّرهم نبيهم بعدد صفوف أهل الجنة فيما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفًّا**»[٢].

وكم وكم من الآيات الكريمات، والأحاديث الصحيحات، بشر به المؤمنون والمؤمنات، كما هو موضح في سور القرآن البيِّنات، والأحاديث الصحيحات الواضحات، جعلنا اللَّه وإياكم -معشر المؤمنين والمؤمنات- من أهل تلك البشارات. آمين.

وأمَّا أهل الإشراك والتنديد، فإن اللَّه بَشَّرهم بعذاب أليم، لا تطيقه الأرواح، ولا تقوى عليه الأجسام، قد حذرهم اللَّه من أسبابه في حياة العمل؛ إذ قال وقوله الحق: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٢-٢٤].

وقد وصف اللَّه حالهم وهم في النار يُعذَّبون بآيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٦].

وكم لهذه الآيات من نظائر توجل قلوب المؤمنين عند سماعها، وتقشعر جلودهم عند تكرار تلاوتها، اللهم نَجِّنا منها، واجعلنا من عبادك الصالحين،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٥٢).

ورثة جنات النعيم، التي أعددتها نزلًا لأوليائك المتقين، وحزبك المفلحين.

كما بشر أهل الإشراك والتنديد في السنة بالعذاب الشديد، فقد جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم**، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: **إنَّها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلُّهن مثل حرها**»[(١)].

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا، أن النبي ﷺ قال: «**هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم**»[(٢)]. وغير ذلك مما جاء في النصوص مما أعده الله لأهل الإشراك والتنديد في الكتاب والسنة كثير جدًّا، فنعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عذابه.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٠٦).

فصل

وَالشِّركُ مِثلُ الكُفرِ فِي التَّقسِيمِ فَحَقِّقِ الأُصُولَ كَالحَكِيمِ
وَالأَكبَرُ المَقصُودُ جَا أَنوَاعُ قَد عَدَّهَا الأَمجَادُ وَالنُّزَّاعُ
أَوَّلُهَا شِركُ الدُّعَاءِ فَاسمَعَن مِثَالُهُ شِركُ قُرَيشٍ فِي المِحَن
وَالثَّانِي لَو عَلِمتَ فِي القَصدِ أَتَى دَلِيلُهُ القُرآنُ فَاقرَأ يَا فَتَى
فِي سُورَةِ الشُّورَى وَهُودٍ مِثلُهَا يَعلَمُهُ الأَخيَارُ مِن أُولِي النُّهَى
وَمَن يُطِع غَيرَ الإِلَهِ قَد هَلَك فَالعَبدُ مَملُوكٌ وَمَعهُ مَا مَلَك
لِخَالِقِ الكَونِ القَدِيرِ الأَحكَمِ وَمُنشِئِ الخَلقِ العَلِيِّ الأَعظَمِ
وَالنَّوعُ هَذَا يَا نَبِيهُ الثَّالِثُ فِي طَاعَةِ المَخلُوقِ خَابَ العَابِثُ
وَالرَّابِعُ الإِشرَاكُ فِي المَحَبَّه وَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّه
وَخَامِسُ الأَنوَاعِ فِي التَّوَكُّلِ وَسَادِسٌ فِي الخَوفِ فَاعلَم وَاعقِلِ
وَكَم لَهُ مِن صُوَرٍ لَا تُنكَرُ نُصُوصُهَا مُحكَمَةٌ فَادَّكِرُوا
فَوَضِّحِ الفُرُوقَ بِالمِثَالِ لِيُفهَمَ الحُكمُ بِلَا جِدَالِ
وَكُلُّ عَبدٍ كَادِحٌ وَرَاجِعُ لِخَالِقِ الكَونِ وَفَازَ الخَاشِعُ

ن :

وَالشِّركُ مِثلُ الكُفرِ فِي التَّقسِيمِ فَحَقِّقِ الأُصُولَ كَالحَكِيمِ

الشرح : المعنى لهذا البيت أن الشرك الذي سيأتي الكلام عنه مثل الكفر، في أنه ينقسم إلى أقسام كما انقسم الكفر إلى أقسام، وضربت له الأمثال ليتميز كل قسم عن الآخر، وذلك كصنيع أهل الحكمة، ولا يكون حكيمًا إلا العالم الرباني والعامل بعلمه؛ إذ تجده يحقق أصول العلوم وفروعها، وذلك بوضع القواعد والضوابط، وإيراد الأدلة وتوجيهها، حتى لا يحصل بينها تضاد ولا تنافر، لأن أحكام الشريعة منزهة عن التضاد والتنافر.

ن:

وَالأَكْبَرُ الْمَقْصُودُ جَا أَنْوَاع قَدْ عَدَّهَا الأَمْجَادُ وَالنُّزَّاع

الشرح: الشرك ضد التوحيد؛ بل من أعظم أضداد التوحيد.

وشرعًا: عرفه العلماء بتعريفات وإن اختلفت ألفاظها فهي متفقة في المعنى.

إذ قال بعضهم: الشرك دعوة غير اللَّه مع اللَّه.

وقال بعضهم: الشرك هو مساواة غير اللَّه باللَّه فيما هو من خصائص اللَّه.

وقال بعضهم: الشرك هو اتخاذ شريك مع اللَّه في ألوهيته، أو في ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته.

وقال بعضهم: هو اتخاذ العبد من دون اللَّه ندًا يسويه برب العالمين في المحبة والخشية والخوف والرجاء ونحوها مما هو من حقوق اللَّه.

وهو قسمان: شرك أكبر وشرك أصغر، والفرق بينهما معلوم من الأدلة.

فالأكبر: هو المخرج من الملة بالكلية، وهو نوعان:

أ- ظاهر.

ب - خفي.

والظاهر: كعبادة الأوثان والقبور والأشجار والأحجار.

والخفي: منه ما كان باطنًا كشرك المنافقين الذين يظهرون الخير والطاعة، ويبطنون الشر والمخالفات الكفرية والشركية، قاتلهم اللَّه أنَّى يؤفكون.

والنوع الثاني من أنواع الشرك: **الشرك الأصغر**: وهو ما ثبت عن الشارع أنه شرك، ولكنه لا يصل إلى درجة الأكبر، لأنه لا يخرج فاعله من دائرة الإسلام، وهو قسمان أيضًا:

أ- ظاهر . ب - خفي .

فالظاهر منه : كتعليق التمائم، والحلف بغير اللَّه، ووضع الحلقة والخيط وعين الذئب لدفع أمراض معينة باعتبارها أسبابًا غير شرعية، وتتعلق القلوب بها في تحقيق ما عُلِّقت من أجله .

ومما يجب أن يعرفه المكلَّف خطر الشرك بكافة أنواعه، وبيان مآل أهله كما أرشد اللَّه العباد إليه .

قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فعدم المغفرة لمن مات على الشرك الأكبر اتفق عليه جميع المسلمين العالِمين بأحكام إسلامهم، وأنه من أهل اللعنة والخلود في النار وبئس القرار .

قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [النساء: ٧٢]، وكم لها من نظائر .

وأما من مات على الشرك الأصغر ولم يتب منه فقد اختلف أهل العلم في دار الجزاء هل لابد أن يعذب بالنار بقدر شركه؟ أم أنه كغيره من أهل الكبائر تحت المشيئة الإلهية ؟ مع اتفاق أهل السنة على أن مآله إلى الجنة لأنه ليس من أهل الخلود .

ن :

أَوَّلُـهَـا شِـرۡكُ الـدُّعَـاءِ فَـاسۡـمَـعَـن مِـثَـالُـهُ شِـرۡكُ قُـرَيۡشٍ فِـي الـمِـحَـن

الشرح : أي الأول من أنواع الشرك الأكبر الذي من مات عليه صار من أصحاب الخلود في النار، ولا حظَّ له في مغفرة اللَّه ورحمته ولا في شفاعة الشافعين، ألا وهو الشرك في الدعاء ويقال له : شرك الدعوة، ذلك أن الدعاء من أعظم العبادات، وقد نادى اللَّه عباده وأمرهم بدعائه وحده لا شريك له، فقال

-جل وعلا-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: ذليلين حقيرين بسبب استكبارهم عن عبادة اللَّه وحده وصرفها لمن لا يستحقها، ولقد ذمهم اللَّه على سوء تعاملهم معه سبحانه في أعظم حق من حقوقه وهو وجوب توحيده في كل حال سواءً في الرخاء أو الشدة، أو في السفر أو الإقامة، وذلك أن كفار قريش ومن شاكلهم كانوا إذا ركبوا في سفنهم في البحر، وحصل عليهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كلِّ مكان دعوا اللَّه مخلصين له الدين، معلنين الوعد له إذا نَجَّاهم من الغرق ليكونوا من الشاكرين له، فلمَّا نجاهم ربهم من الغرق إذا هم يشركون به، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فسَمَّى شركهم شرك الدعوة أو شرك الدعاء، ولما كان الدعاء شركًا أكبر فإنه يحرم على المكلفين أن يدعو نبيًّا أو وليًّا أو حجرًا أو شجرًا، فمن فعل ذلك فهو مشرك كافر، وقد أشرت إلى هذا النوع من الشرك بقولي:

مِثَالُهُ شِرْكُ قُرَيشٍ فِي المِحَن ....

والقسم الثاني من أقسام الشرك الأكبر: هو شرك النية والقصد والإرادة: وهذه الثلاثة الألفاظ تشبه الألفاظ المترادفة التي تتعدد ألفاظها وتتنوع والمعنى واحد، كما هو الحال في معنى النية والقصد والإرادة، فإن المعاني الثلاثة إن لم تكن متفقة في المعنى فهي متقاربة فيه؛ إذ معنى النية في اللغة هو: القصد، والقصد هو: عزم القلب على فعل شيء ما أو تركه، ومعنى الإرادة في اللغة: الميل، ومعنى القصد في اللغة هو: الطلب.

ويستدل لهذا القسم بالآيات التي أشرت إليها في النظم الأولى والثانية قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى آيتي سورة هود:
(يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾، أي: كلُّ إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وقد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا؛ فهذا لا يكون إلا كافرًا؛ لأنه لو كان مؤمنًا لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا؛ بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾، أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾، أي: لا ينقصون شيئًا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ خالدين فيها أبدًا، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: في الدنيا؛ أي: بطل واضمحلَّ ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان)(١).

والآية الثالثة الدالة على ما دلت عليه الآيتان قبلها: هي قول اللَّه تعالى في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، قال ابن جرير في معناها: (﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾، يقول -تعالى ذكره-: من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في حرثه، يقول: نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشرًا، إلى ما شاء ربنا من الزيادة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾، يقول: ومن كان يريد بعمله الدنيا ولها يسعى لا للآخرة نؤته

---

(١) «تفسير السعدي» (٢ / ٧٤٢).

منها ما قسمنا له منها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، يقول: وليس لمن طلب بعمله الدنيا ولم يرد اللّه به في ثواب الله نصيب لأهل الأعمال التي أرادوه بأعمالهم في الدنيا حظ)[1]. اهـ

وإذ قد علمنا أن ظاهر هذه الآيات السابقة يدل على أن كل من آثر الدنيا وعمل لها دون الآخرة أنه يمنح ما طلب من دون نقص عن مطلبه، فلنعلم أيضًا أن الآيات من سورة هود والشورى لا تفيد إطلاق العطاء لكل طالب؛ بل هي مقيدة مما جاء في الإسراء إذ قال اللّه -جل وعز-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، فقد قيد عطاء اللّه لمؤثِر الدنيا على الآخرة بمشيئته -جل وعلا-.

ألا وإن هذا النوع من الشرك من المسائل المهمة والعلوم الخطيرة، يحتاج من طالب العلم أن يحرز حظًّا نافعًا من علم العقيدة وما يضادها، فيميز بين الشرك المحبط للعمل المخرج من الملة، وبين الشرك الأصغر الذي هو يسير الرياء الذي ينافي كمال التوحيد الواجب ولكنه لا يخرج من الملة ولا يحبط العمل ولكنه ينقص ثوابه.

ورحم اللّه العلَّامة الجليل ابن قيم الجوزية الذي قال في هذا النوع من الشرك ما نصه: (أما الشرك في الإرادات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه اللّه ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته)[2]. اهـ

وإلى هذا النوع من أنواع الشرك الأكبر «شرك النية والإرادة والقصد»، أشرت بقولي:

---

(١) (١١/ ١٤٠).

(٢) الجواب الكافي (١/ ٩٤).

ن:

وَالثَّانِي لَو عَلِمتَ فِي القَصدِ أَتَى دَلِيلُهُ القُرآنُ فَاقرَأ يَا فَتَى
فِي سُورَةِ الشُّورَى وَهُودٍ مِثلُهَا يَعلَمُهُ الأَخيَارُ مِن أُولِي النُّهَى

النوع الثالث من أنواع الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام والموجب للخلود في النار واللعنة من الواحد القهار هو: شرك الطاعة:

أي إن من أطاع أحدًا من الخلق في تحليل ما حرم اللَّه أو تحريم ما أحل اللَّه معتقدًا ذلك بقلبه، ومستحلًّا له كذلك، وهو عالم بمخالفته للدين القيم دين الإسلام والإيمان والإحسان وبيان الحلال والحرام فهو مشرك كافر ما له في الآخرة من نصيب، بدليل قول اللَّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وتفسيرها المعتبر ما هو ثابت عن النبي ﷺ أنَّه قرأ هذه الآية، فلمَّا سمعه عديُّ بن حاتم رضي الله عنه قال: «يا رسول اللَّه، لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل اللَّه فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم اللَّه فتحلونه؟** فقلت: بلى، فقال: **فتلك عبادتهم**»[1].

قال الإمام المجدد ابن تيمية مبينًا المعنى الذي يجب أن يعلمه طالب العلم من هذه الآية ما نصه: (وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم اللَّه، وتحريم ما أحل اللَّه يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين اللَّه، فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم اللَّه، أو تحريم ما أحل الله؛ اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله اللَّه ورسوله شركًا، وإن

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٩٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٣).

لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك الغير دون ما قاله اللّٰه ورسوله صار مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله؛ كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب. . .)[١] إلخ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإلى هذا النوع من أنواع الشرك الأكبر قصدت بقولي:

ن:

وَمَـن يُـطِـع غَـيـرَ الإِلَـهِ قَـد هَـلَـك ... فَـالـعَـبـدُ مَـمـلُـوكٌ وَمَـعـهُ مَـا مَـلَـك
لِـخَـالِـقِ الـكَـونِ الـقَـدِيـرِ الأَحـكَـم ... وَمُـنـشِـئِ الـخَـلـقِ الـعَـلِـيِّ الأَعـظَـم
وَالـنَّـوعُ هَـذَا يَـا نَـبِـيـهُ الـثَّـالِـثُ ... فِي طَاعَةِ المَخلُوقِ خَابَ العَابِثُ

الشرح: والمعنى -باختصار-: أن من أطاع غير اللّٰه من الخلق في تحريم ما أحل اللّٰه، أو تحليل ما حرم اللّٰه، معتقدًا ذلك بقلبه ومستحلًا له كذلك فقد تسبب في هلاك نفسه وشقائه، وما ذلك إلا لأنه صرف الطاعة لغير مستحقها ولم يصرفها لمالكه ومالك كل شيء وهو القدير وهو الحكيم وهو العلي العظيم، فصار بطاعته لغير اللّٰه في معصية اللّٰه مشركًا كافرًا على أساس ما تقدم قريبًا.

النوع الرابع: **من أنواع الشرك الأكبر شرك المحبة**: والدليل على اعتباره شركًا أكبر قول اللّٰه -تبارك وتعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٠).

﴿ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، الآية.

والمقصود بهذه المحبة: محبة العبودية المستلزمة للذل والتعظيم والخضوع لغير اللَّه، وهذه لا يجوز أن تكون إلا لله وحده لا شريك له، إذ متى أحب المكلف غير اللَّه محبة ذل وخضوع وتعظيم صار مشركًا باللَّه شركًا أكبر، وما ذلك إلا لأن المحبة بهذا الاعتبار عبادة من أجلِّ العبادات، فصرفها للخلاق العليم توحيد، وصرفها لغيره شرك أكبر مخرج من الملة.

وقد فصَّل ابن قيم الجوزية في المحبة فقال: (وهاهنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها:

أحدها: محبة اللَّه لا تكفي وحدها في النجاة من عذاب اللَّه والفوز بثوابه؛ فإن المشركين وعُبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله).

قلت: كما في الآية المتقدمة وغيرها.

(**الثاني**: محبة ما يحب اللَّه، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى اللَّه أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

الرابع: المحبة مع اللَّه، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع اللَّه لا لله ولا من أجله ولا فيه؛ فقد اتخذه ندًّا من دون اللَّه، وهذه محبة المشركين)[1]. اهـ

وإلى هذا النوع من الشرك الأكبر قصدت بقولي:

وَالرَّابِعُ الإِشْرَاكُ فِي المَحَبَّهْ وَفْقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهْ

(١) الجواب الكافي (١/ ١٣٤).

النوع الخامس من أنواع الشرك الأكبر: شرك التوكل على غير الله: على التفصيل الذي سأذكره -إن شاء الله- ليتميز الشرك الأكبر في التوكل من الشرك الأصغر.

فأولًا: يجب أن يُعْلَمَ أن التوكل عبادة قلبية جليلة القدر، وما ذلك إلا لأن التوكل هو: تفويض الأمور إلى الله -جلَّ وعز-، والعلم والاعتقاد بأن الأمور كلها بيد الله، هو الذي يتصرف فيها بما يشاء ويريد، سواء من أمور الدنيا أو من أمور البرزخ وأمور الآخرة، فلا يكون منها شيء إلا بما قدره العلي القدير وجرى به القلم حينما قال له الرب -تبارك وتعالى-: «**اكتب، قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة، فجرى القلم في تلك الساعة بما هو كائن إلى قيام الساعة**»[1].

وإذ كان الأمر كذلك، فإنه يجب على المكلف أن ينزل جميع حاجاته بربه الكريم، ويفوض الأمر باطنًا وظاهرًا إليه، ثُمَّ يدلي بالأسباب المناسبة التي أمره الله بها وقبلها، ومعها الإيمان الذي لا شك فيه أن الذي يقضي الحاجات ويقدر المقادير ما دَقَّ منها وما جَلَّ، وما قَلَّ منها وما كثر، وما ظهر وما خفي، هو الخلَّاق العليم الذي أمرنا أن نتوكل عليه بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فإن منطوقها صريح في وجوب إفراد الله بعبادة التوكل العظيمة، ولم يأذن الله أن تصرف هذه العبادة إلى أحد سواه، أو أن يكون معه -عَزَّ شأنه- شريك فيها من مخلوقاته، ومثل هذه الآية: الآية التي في سورة يونس وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وكلتا الآيتين دليل على أن إفراد الله بالتوكل وحده دون ما

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٤).

سواه واجب، وأنه شرط في صحة الإيمان والإسلام، لختم الآية الأولى بقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ولختم الآية الثانية بقوله -جل وعلا-: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

وإذ قد علمنا أن التوكل على اللّٰه وحده واجب من واجبات الإسلام، وفرض من فرائضه، وعبادة قلبية محضة، فإنه يجب أن نعلم أن التوكل على غير اللّٰه شرك به سبحانه، وهل هو شرك أكبر أو أصغر؟

والجواب: قد يكون شركًا أكبر يخرج من ملة الإسلام، وذلك إذا توكل المكلف على أحد من الخلق في جلب نفع أو دفع ضر فيما لا يقدر عليه إلا اللّٰه الذي هو على كلِّ شيء قدير، كما هو معتقد القبوريين وغلاة الصوفية في كلِّ زمان ومكان، فإنهم يتوجهون بقلوبهم وجوارحهم إلى الموتى الذين يغلون فيهم ويسمونهم أولياء اللّٰه لهم ما يشاءون عند ربهم، فيطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلا اللّٰه كإنجاب الولد، ورفع المنزلة والدرجات العلا في الآخرة، وإنزال الغيث، ورفع الجدب عن الأرض، إلى غير ذلك مما يفعله أولئك الغلاة، ومن صنع مثلما صنعوا.

فيجب على أمة الإسلام أن يتعلموا فقه دينهم عقيدة وشريعة بنية خالصة وقصد حسن، وأن يعملوا بما علموا راجين من اللّٰه حسن الثواب خائفين منه سبحانه سوء العذاب.

النوع السادس من أنواع الشرك الأكبر: الخوف من غير الله: كالخوف من اللّٰه أو أعظم، قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والمعنى للآية الكريمة ما قاله الشيخ عبد الرحمن السعدي وغيره من المفسرين: (أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم قد جمعوا لكم داعٍ من دعاة الشيطان يخوف بها أولياءه الذين عُدِمَ إيمانهم أو ضَعُفَ

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ؛ أي : فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد اللَّه لا يتصرفون إلا بقدره ؛ بل خافوا اللَّه الذي ينصر أولياءه المستجيبين لدعوته ، وفي هذه الآية وجوب الخوف من اللَّه وحده وأنه من لوازم الإيمان ، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من اللَّه ، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله)[1] . اهـ

إذا فهم ما سبق فاعلم أن للخوف صفات :

الصفة الأولى : إذا كان الخوف من مخلوق يساوي الخوف من الخالق القدير أو يزيد عليه ، كخوف من تعلقت قلوبهم بأهل الأضرحة ، وأنهم يتصرفون فيمن شاءوا أن يتصرفوا فيه بضُر ، أو يتصرفوا بجلب النفع لمن أراد فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه ، فإن الخوف بهذه الصفة شرك أكبر يخرج من الملة ؛ بل إن من طلب ما يقدر عليه المخلوق الحيُّ من الموتى شرك باللَّه .

الصفة الثانية : أن يكون الخوفُ من المخلوق خوفًا طبيعيًّا ، كمن يخاف من عدو يريد قتله ، أو أخذ ماله ، أو يمسه بسوء ، مع إيمانه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فلا يكون خوفه بهذه الصفة شركًا أكبر ولا أصغر ولا محرمًا .

الصفة الثالثة : أن يكون المكلف عنده خوف داخلي من مخوف منه أن يلحق به ضررًا ، أو يحول بينه وبين مصالحه ، ويعتقد ذلك سببًا من الأسباب ، ولكن خوفه زاد عن العادة من الخوف الطبيعي ، فسبب ضعفًا في إيمانه بسبب ما حصل له من التعلق بذلك المخوف منه فوقع في الشرك الأصغر .

والذي ينبغي أن يعلم أن الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، ونحوها من العبادات القلبية من القرب العظيمة التي لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير اللَّه

---

(١) (٢/٦٢).

-جل وعلا-؛ بل يجب أن يتقرب بها المكلَّف إلى اللَّه وحده دون ما سواه، واللَّه أعلم.

وإلى هذا البحث المتعلق بهذين النوعين من أنواع الشرك أشرت بقولي:

وَخَامِسُ الأَنْوَاعِ فِي التَّوَكُّلِ وَسَادِسٌ فِي الخَوفِ فَاعلَم وَاعقِلِ

ن:

وَكَم لَهُ مِن صُوَرٍ لَا تُنكَرُ نُصُوصُهَا مُحكَمَةٌ فَادَّكِرُوا

الشرح: كم: هي الخبرية التي تفيد التكثير، والضمير في «له» عائد إلى الشرك بكافة أقسامه التي سبق الحديث عنها.

«من صور لا تنكر»؛ أي: إن صور الشرك كثيرة جدًّا لا ينكر العلماء شيئًا منها، وذلك أن كل من صرف نوعًا من أنواع العبادات المعروفة بالتتبع والاستقراء لغير اللَّه؛ فقد وقع في صورة من صور الشرك التي جاءت نصوص الكتاب والسنة ببيانها والزجر عنها وبيان مآل أهلها.

وأنواع العبادة كثيرة؛ منها: الاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والخوف، والخشية، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والإنابة، ونحوها، فمن صرف منها شيئًا لغير اللَّه فهو مشرك كافر بعد قيام الحجة الرسالية عليه، وبعد بيان ما يمكن أن يخفى عليه لكونه من دقائق العلم، ولبيان ذلك قصدت بقولي:

وَكَم لَهُ مِن صُوَرٍ لَا تُنكَرُ نُصُوصُهَا مُحكَمَةٌ فَادَّكِرُوا

ن:

فَوَضِّحِ الفُرُوقَ بِالمِثَالِ لِيُفهَمَ الحُكمُ بِلَا جِدَالِ

الشرح: هذا خطاب لطالب العلم أن يوضِّح قواعد التوحيد وأنواعه، ويبين صور الشرك بالأمثلة من الكتاب والسنة، وكذلك بذكر الفروق بين أنواع الكفر،

وأنواع الشرك، وأنواع النفاق، وأنواع الظلم، موضحًا ذلك بالأمثلة كي تفهم الأحكام، وينتهي جدال من يجادل في شيء من ذلك؛ إذ إن ذكر الدليل وشرحه وتوجيهه يزيل الإشكال فلا يبقى إلا التسليم من أهل الفضل والرشاد أو العناد من أهل البغي والفساد.

ن:

وَكُلُّ عَبْدٍ كَادِحٌ وَرَاجِعُ   لِخَالِقِ الكَونِ وَفَازَ الخَاشِعُ

الشرح: فيه بيان وتذكير لكلِّ مكلف ينتفع بالتذكير، أن كلَّ مكلف كادح؛ أي: عامل وساعٍ في حياة العمل وهي هذه الدار، ومُلاقٍ ربه بما عمل من خير وشر، كما قال -جلَّ وعز-: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: (أي: إنك عامل إلى ربك عملًا خيرًا كان أو شرًّا، فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ويوجب لك رضاه، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك)[1].

ومعنى «راجع لخالق الكون»؛ أي: صائر إلى الله وعائد إليه يوم البعث والنشور والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وهذه الآية آخر ما نزل من القرآن آخرية مطلقة.

قال في معناها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ **ما نصه**: (ثُمَّ قال تعالى يعظ عباده ويُذكِّرهم

(١) (٣٠/ ١١٥).

زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[1]. اهـ

ومعنى «فاز الخاشع»؛ أي: ظفر ظفرًا عظيمًا، والخاشع هو: المتذلل الخاضع لله خضوع عبادة، ظاهرها وباطنها حب الله والخضوع له والخشية منه -جل وعلا-.

والخلق نوعان في الخضوع لله:

١- نوع منهم خضوعهم لله عبادة أساسها المحبة الشرعية لله والخضوع له والتذلل، ودليلها امتثال أمره، واجتناب نهيه، ومتابعة رسوله ﷺ، وعمومًا: طاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ في أداء الفرائض والقيام بالواجبات، والرغبة فيما رَغَّب الله ورسوله فيه، والرهبة مما رهَّبَ الله منه ورهَّب رسوله ﷺ منه كذلك، وهذا النوع من الخلق هم المؤمنون الذين شهد الله لهم بالفلاح في صدر سورة المؤمنين ونظائرها من آيات القرآن الكريم.

٢- ونوع خضوعهم لله كرهًا لكونهم في قبضته، وتحت تصرفه، أقداره جارية عليهم بما يشاء ويريد، وأحكامه نافذة فيهم بما قضاه العلي القدير شاءوا أم أبوا، أحبوا أم كرهوا، فإن الخلق والأمر كله بيد الله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به، فطوبى للمؤمنين الذين أحبوا خالقهم وبارئهم فأطاعوه فأحبهم وأكرمهم بالفوز العظيم في جنات النعيم، ويا حسرة على المجرمين الذين عصوا ربهم وكذبوا المرسلين فصاروا بذلك من أصحاب الجحيم.

---

(١) (١/ ٤٣٥).

ن :

وَدُونَهَا شِركُ الرِّيَاءِ فَاحذَرَن ... أَعنِي اليَسِيرَ يَا نَبِيهُ فَاعلَمَن

دَلِيلُهُ ذِكرٌ كَرِيمٌ قَد عُلِم ... فِي آخِرِ الكَهفِ فَحَقِّق وَالتَزِم

وَثَالِثُ الأَقسَامِ يُدعَى بِالخَفِي ... وَيَشمَلُ النَّوعَينِ يَا شَهمُ اعرِفِ

دَلِيلُهُ نَصٌّ صَحِيحٌ مُحكَمُ ... فِي مُسنَدٍ وَقَد رَوَاهُ الحَاكِمُ

وَإِن تُرِد كَفَارَةً لإِثمِهِ ... فَالمُسنَدَ انظُر وَاستَفِد مِن عِلمِهِ

وَالطَّبَرَانِي قَد رَوَاهُ مُسنَدَا ... فَاحفَظهُ وَادعُ قَائِمًا وَقَاعِدَا

لِصَاحِبِ النَّظمِ وَكُلِّ مُؤمِنِ ... وَكُلِّ شَهمٍ مُخلِصٍ وَمُحسِنِ

بِالفِقهِ فِي الدِّينِ وَحُسنِ المُعتَقَد ... وَالمَنهَجِ الحَقِّ هُدِيتَ لِلرَّشَد

فَدَعوَةٌ كَرِيمَةٌ مِن خَاشِعِ ... نَافِعَةٌ حَقًّا بِنَصٍّ سَاطِعِ

الشرح: «ودونها شرك الرياء فاحذرن . . .» إلخ البيتين :

أي : ودون أنواع الشرك الأكبر التي تقدم ذكرها وشرحها مفصلًا فيما مضى أنواع الشرك الأصغر، والمراد به يسير الرياء، جاء مفسرًا بذلك من مشكاة النبوة الكريمة، وذلك فيما أخرج إمام أهل السنة في عصره وبعد عصره أحمد بن حنبل -رحمه اللّه ورضي عنه-، وابن ماجه -رحمه اللّه وطيب ثراه- من حديث أبي سعيد مرفوعًا أن النبي ﷺ قال : **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا : بلى يا رسول اللّه! قال : الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل»**[1] ، وهذا الحديث يعتبر تعريفًا لنوع من أنواع الرياء على ما سيأتي من بيان لأنواع الرياء في النصوص التي وردت في الكتاب العظيم والسنة الغراء.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٨٥٩)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠).

فمن النصوص الواردة في شرك الرياء:

أولًا: قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ففي هذه الآية براءة النبي ﷺ من أن يكون له شيء من الربوبية أو الألوهية؛ بل ذلك لله ﷻ وحده دون ما سواه من مخلوقاته، ولو كان من الملائكة المقربين، أو الأنبياء والمرسلين، ولو كان خير الخلق أجمعين وسيد المرسلين محمد بن عبد اللّه النبي العربي الهاشمي ﷺ.

والمراد بالعمل الصالح في الآية: ما اجتمع فيه شرطان:

الشرط الأول: الصواب.

والشرط الثاني: الإخلاص لله ﷻ.

وفي قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، نهي عام عن التوجه بشيء من العبادات لأحد من خلق اللّه سواءً كان حيًّا أو ميّتًا، عظيمًا أو حقيرًا، ناطقًا أو صامتًا، كما هو عام في جميع الشرك بجميع صوره سواءً كان شركًا أصغر أو أكبر أو خفيًّا، وسواء كان رياء أكبر أو أصغر.

ثانيًا: قول الحق -تبارك وتعالى- في وصف المنافقين النفاق الاعتقادي: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ثالثًا: قول النبي ﷺ عن ربه ﷻ أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[١].

رابعًا: ما جاء في حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: **أيها الناس، إياكم وشرك السرائر**، قالوا: يا رسول اللّه، وما شرك

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السرائر؟ قال: **يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر**»[1].

وما أشبه هذه النصوص من نظائرها، إذا فهم ذلك فإن مجموع النصوص المذكورة يؤخذ منه أن الرياء ينقسم إلى قسمين:

١- **قسم أكبر**: وهو شرك المنافقين الذين يُظهِرون الإسلام ويُبطِنون الكفر: وهؤلاء شر من الكفار والمشركين المجاهرين بكفرهم وشركهم، وقد ذكر اللَّه عقوبتهم، وأنها أشد من عقوبة الكافرين المجاهرين بكفرهم كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وفوقهم الكفار والمشركون.

٢- **والقسم الثاني**: هو الذي يصدر من المسلمين والمسلمات في العمل وهو نوعان:

أ- أحدهما: يحبط العمل، وصاحبه مأزور غير مأجور، وذلك حينما يكون عمل العبادة لله ويشاركه الرياء من أصله ومن بداية العمل إلى نهايته، ولكنه رغم فظاعته فإنه ليس كالأكبر، ولا يقال إنه يحبط جميع الأعمال؛ بل يبطل العمل الذي دخل على المسلم فيه من أصل عبادته.

ب- ثانيهما: أن يعمل المكلف المسلم العمل لله من بدايته، ثمَّ يطرأ عليه نية الرياء، فإذا استعاذ باللَّه ودفع ذلك الخاطر الذي هجم عليه فهذا لا يضره، لأنه جاهد نفسه وشيطانه فأعانه اللَّه وتخلص من داء ما هجم عليه، وأما المسترسل معه الرياء فإنه قد يحبط عمله الذي هو فيه أو ينقص ثوابه بقدر التأثير على العمل، واللَّه أعلم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٤٠٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١).

وهناك صورة أخرى يحسن ذكرها وقد سمَّاها النبي ﷺ عاجل بشرى المؤمن، وهي ما إذا عمل المكلف المسلم العمل لله خالصًا صوابًا، ثمَّ ألقى اللَّه له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، ففرح بذلك وصار مسرورًا استنادًا إلى قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فإن ذلك الفرح بثناء الصالحين عليه لا يضره؛ بل هو عاجل بشرى المؤمن كما ورد بذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه سئل عن الرجل يعمل الخير، ويحمده الناس عليه، فقال: **تلك عاجل بشرى المؤمن**»[1].

فنسأل اللَّه أن يصلح نيَّاتنا وأعمالنا وأن يرزقنا الصدق والصواب والإخلاص والقبول في كلِّ ما نأتي ونذر.

٣- النوع الثالث من أنواع الشرك: «الشرك الخفي»: وهو نوعان من حيث الحكم:

أ- شرك خفيٌّ مخرج من الملة ينافي أصل التوحيد.

ب- وشرك خفي أصغر ينافي كمال التوحيد ولا يخرج الواقع فيه من دائرة الإسلام، ولكنه ينقص بارتكابه ثواب العمل الصالح، ووجه تسميته خفيًّا لخفائه على نفس صاحبه، أولكون صاحبه يخفيه عن الناس فلا يطَّلع عليه أحد، ولا يطَّلع عليه إلا اللَّه -جل وعلا-، لأنه علَّام الغيوب، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومثال الأكبر منه: شرك المنافقين، ومثال الأصغر: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي سبق ذكره قريبًا وهو عند الإمام أحمد وغيره.

وكذلك من أمثلته قوله ﷺ: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء، على صفاة سوداء، في ظلمة الليل**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «**الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء...**» وقال الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٧٨٧): ضعيف جدًّا.

ومثله في الدلالة على هذا النوع -أي: الشرك الخفي الأصغر-، حديث حذيفة عند البخاري في الأدب المفرد وأبي يعلى وغيرهما من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**، قال أبو بكر: يا رسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله؟ قال: **ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ألا أخبركم بقول يُذهِبُ صغاره كباره**، - أو قال: صغيره وكبيره-؟، قال: بلى، قال: **تقول كل يوم ثلاث مرات: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، والشرك أن تقول: أعطاني اللّه وفلان، والند أن يقول الإنسان: لولا فلان لقتلني فلان**»[١].

وأمَّا آية الكهف المُنوَّه عنها في النظم؛ فإنها متضمنة للنهي عن الشرك كلِّه كبيره وصغيره، ظاهره وخفيه؛ لأن قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، فإنَّ «أحدًا» نكرة في سياق النهي، والنكرة في سياق النهي تتناول بعموم أنواع الشرك كلِّها، وإن كان قد فسَّر ابن كثير آية سورة الكهف بالرياء فقط فهو من باب تفسير العام ببعض أفراده، ويشهد لتفسير ابن كثير ما رواه الإمام أحمد وغيره من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء، يقول اللّه تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!**»[٢].

قلت: وفي هذه النصوص العظيمة الشأن، والجليلة القدر، الموضحة

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥١).

لأنواع الشرك وأحكامه المتنوعة، تخويف توجل منه القلوب، وترتعد منه الفرائص، وترهب منه النفوس، فطوبى لعبد عرف حقيقة التوحيد فحققه، وفضله العظيم فأحبه، وسعى في نيله، وتنعم بالحياة في ظله الوارف الظليل، وبجانب ذلك عرف حقيقة الشرك وأنواعه وصوره المتعددة، وشُعَبَه الخطيرة، وشره المستطير، فأبغضه، وأبغض جميع أنواعه، وكافة صوره وشعبه، وفرَّ من ذلك جميعًا كما يفرُّ العاقل من النار المُحرِقة، والعدو الماكر الغادر طلبًا للنجاة من الخسران المبين، فهنيئًا له النجاة بفضل اللَّه عليه ورحمته به، ثمَّ بما قام به في حياة العمل من فعل الطاعات وفي مقدمتها فريضة التوحيد الذي هو أعظم الفرائض، وأس الطاعات، وترك المعاصي على اختلاف جزئياتها، وفي مقدمتها الشرك باللَّه الذي هو أعظم الذنوب، وأسُّ المنكرات، والحاصل أنه لا يتحقق التوحيد لمكلف إلا بالكفر بالطاغوت الذي هو اسم عام لكل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، إذ لا ولاء لله ولمن أحبه اللَّه من الذوات والأعمال إلا بالبراء من الطاغوت وكلُّ ما يبغضه اللَّه ويأباه من الذوات والأعمال.

وإذ كان الأمر كما أوضحت لك أيها المسلم فإنه يجب عليك أيها المكلف أن تتقن علم التوحيد أصولًا، وحقوقًا، ومكملات، وتطبيقه تطبيقًا عمليًا، وأن تتقن أنواع الشرك وشُعَبه وصوره، وتجتنب كلَّ ذلك كي تكون من الفائزين برضا اللَّه وجنته ومن الناجين من سخط اللَّه وأليم عقابه.

ومما يحسن أن يعلم أنَّ لقول اللَّه -عزَّ شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، علاقة قوية بهذا البحث، وخلاصته باختصار: أنَّ العلماء -رحمهم اللَّه- اختلفوا في معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، فقال بعضهم: إنَّ الآية تفيد

أن المغفرة لا تكون أبدًا لمن مات مشركًا شركًا أكبر أو أصغر أو خفيًّا، فأما أصحاب الشرك الأكبر الذين ماتوا عليه بدون توبة فلهم اللعنة ولهم سوء الدار، نار جهنم يصلونها وبئس القرار، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها.

ومنهم في كلِّ زمان ومكان عباد القبور الذين يتوجهون بقلوبهم وجوارحهم إلى أصحاب الأضرحة المقامة في بعض بلاد الإسلام سواءً في بلاد العرب أو في بلاد العجم فينادونهم ويطلبون منهم رفع حاجاتهم إلى اللَّه لتقضى، كما هو فعل الكفار في زمن النبي ﷺ، وقد أذن اللَّه له في قتالهم، وسفك دمائهم، واسترقاقهم، وسبي نسائهم وأبنائهم، وأخذ أموالهم، وذلك حينما دعاهم النبي الكريم إلى التوجه بدعائهم دعاء العبادة والمسألة إلى الخلّاق العليم الرزّاق ذي القوة المتين، فأبوا إلا أن يعلقوا قلوبهم بتلك المعبودات التي يرجون شفاعتها لتقربهم إلى اللَّه زلفى، كما أخبر اللَّه عنهم بذلك في سورة الزمر إذ قال -جل وعلا- عن قيلهم يوم دعوا إلى التوحيد ونُهُوا عن المنكر: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وأمّا أهل الشرك الأصغر، والشرك الخفي الأصغر، فقد صرّح هؤلاء القائلون بالعموم أنهما غير داخلين تحت المغفرة؛ بل يكون بالموازنة بين الحسنات والسيئات، فلا ينجو من عذاب النار من أهل الشرك الأصغر إلا من عظمت حسناته فزادت على معصية الشرك الأصغر والخفي، وبقية السيئات التي مات قبل التوبة منها كالبدع وكبائر الذنوب وحقوق الخلق التي هي مبنية على المُقَاصَّة والمشَاحَّة، ولابد من استيفائها من الظالم للمظلوم، ومما لا شك فيه أن المعاصي التي يكون معها نوع من أنواع الشرك الذي لا يخرج من

الملة يكون مقترفها على خطر عظيم، فاللهم سلِّم سلِّم.

وقال بعض أهل العلم: إن قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وإن كان دالًّا على العموم لجميع أنواع الشرك إلا أنه من العموم الذي أريد به الخصوص؛ أي: خصوص الشرك الأكبر، فيكون المقصود بالشرك في هذه الآية ومثيلاتها الشرك الأكبر فقط دون ما سواه من أنواع الشرك وهما الشرك الأصغر، وما كان مثله من الشرك الخفي فإنهما داخلان تحت المشيئة؛ وإذ كان الأمر كذلك فيكون العموم في الآية الكريمة من سورة النساء وما في معناها من سورة المائدة وهي قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومثل الآيتين السابقتين قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، فالشرك الذي في هذه الآيات الثلاث هو الأكبر الذي يوجب الخلود في النار لمن مات عليه ولم يتب كما سبق بيانه، وأما من مات على الشرك الأصغر أو على أي صورة من صوره القولية أو الفعلية، فإنه وإن عذب في النار إلا أنه ليس من أهل الخلود فيها أبدًا؛ بل إن عذبه ربه فإنه يعذبه بقدر ما اقترف من الشرك الأصغر ثمَّ يكون مآله إلى الجنة، ولا يخلد في النار إلا أهل الشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي والإلحاد المخرج من الملة.

وفي الأبيات الثلاثة التي ختمت بها الفصل التماس من كلِّ قارئ لهذه المنظومة وشرحها، أن يتكرم ببذل الدعاء النافع لي ولكل مؤمن ومؤمنة، وكل مخلص لدينه، وذلك بنصره ونشره والذب عنه، وكل مخلص لولي أمر المسلمين بالسمع والطاعة له في المعروف، والنصح له على منهج أهل السنة

والجماعة، وإعانته باطنًا وظاهرًا على الخير ودفع الشر، الأمر الذي لا يتحقق إلا بفضل اللَّه وإعانته ثمَّ بتضافر الجهود من الراعي والرعية، كلٌّ في حدود ما يقدر عليه من نشر الخير ودفع الشر.

وكذلك من النصح للوالي المسلم الدعاء له بالعون والتوفيق والسداد في جميع شئونه، والذب عنه ممن ينشر عيوبه مشهرًا به، ومؤلبًا عليه الجهال، وأشباه الخوارج، الذين لا يتورعون عن ذم الحاكم المسلم بدون حق لهم في صنيعهم إلا ابتغاء الفتن، وإشاعة الفوضى بين الناس التي يعقبها اضطراب الناس، وزعزعة الأمن، وتعطيل المصالح الدينية والدنيوية، والدعاء ينبغي أن يبذل للأمة جمعاء فيما يتعلق بأمر دينها وأمر معاشها كل بحسب قدراته وما أعطاه اللَّه من علم وحكمة، لأن المؤمنين كالجسد الواحد كما دلَّ عليه قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، الآية، ودلَّ عليه قول النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[(١)].

كما ينبغي أن يُدعَى لكل محسن إلى نفسه بصالح العمل وكفِّ الأذى عن الغير طاعة لله ومتابعة لرسول اللَّه ﷺ فيما جاء به من شرع اللَّه الشريف المطهر، كما يدعى لكل من أحسن إلى ولي أمره من أهل الولايات العامة والخاصة امتثالًا لأمر اللَّه وكذلك متابعة لرسول اللَّه ظاهرًا وباطنًا.

كما ينبغي أن يدعى للمحسنين عمومًا، وما ذلك إلا لأن اللَّه يحبهم كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، سواءً كان الإحسان منهم فيما يتعلق بحقوق اللَّه -جل وعلا-، أو بحقوق النفس، أو بحقوق الناس على اختلاف طبقاتهم قربًا وبعدًا، وسواءً في أمور الدين أو في أمور الدنيا في حدود

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

الشرع الشريف، فالداعي لأهل الإحسان محب لهم، ومن أحب المحسنين حُشِر في زمرتهم لحديث: «المرء مع من أحب»[(1)]، وكانت الدعوات المطلوبة من القارئ والسامع لتُبْذَل بلسان صادق، وقلب سليم، وإلحاح في الدعاء، لصنف من الناس تحلو بأربع صفات من أكمل الصفات وأزكاها ألا وهي:

١- **الصفة الأولى: الإيمان الكامل**؛ أي: بكل ما جاء به محمد الأمين -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين-، الذي تلقاه عن الروح الأمين ﷺ، عن رب العالمين -جل وعلا- جملة وتفصيلًا، أصولًا وفروعًا.

٢- **الصفة الثانية: الشهامة**، وهي صفة لرجل ذكي الفؤاد، راجح العقل، عظيم المروءة.

٣و٤ - **الصفة الثالثة والرابعة: الإخلاص، والإحسان**، وقد مضى بيان شيء من جوانبهما ومزاياهما.

فأما الإخلاص؛ فهو العمل الذي يقصد به صاحبه وجه الله والدار الآخرة، **وأما الإحسان**؛ فقد فسره نبينا الكريم ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(2)].

هذا وقد ذكرت ما يدعى به ليتحقق لأهل الصفات الأربع ثلاثة أمور رفيعة القدر، والتي لا تُطلَب إلا من الله ﷻ:

١- **الأمر الأول: الفقه في الدين**، الذي خلق الله المكلفين من عالمي الإنس والجن، لتعلمه، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، ومنه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية، كما هو معلوم في موضعه، ولقد كلفنا الله بالعمل به وحده دون ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكما أمرنا ربنا بالإخلاص فيه فقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١-١٢].

٢- الأمر الثاني: حسن المعتقد، والمراد به الاعتصام بالعقيدة السليمة التي كان عليها النبي الكريم ﷺ وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين جملة وتفصيلًا، ولقد أمرنا اللَّه بالتمسك بها ونبذ ما يضادها من بدع أهل الزيغ والضلال الذين سلكوا مسلك المُشَاقَّة للرسول -عليه من اللَّه أفضل الصلاة والتسليم-، وتوعدهم اللَّه على ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في معنى هذه الآية: (أي: من يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله؛ فلا نوفقه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه؛ فجزاؤه من اللَّه عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالًا إلى ضلاله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بأن كان قصده وجه اللَّه، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثمَّ صدر منه من الذنوب أو الهمِّ بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع؛ فإن اللَّه لا يوليه نفسه وشيطانه؛ بل يتداركه بلطفه، ويَمُنُّ عليه بحفظه، ويعصمه من

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص؛ كما يدل عليه عموم التعليل وقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: نعذبه فيها عذابًا عظيمًا.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾؛ أي: مرجعًا ومآلًا)[(١)]. اهـ

٣- الأمر الثالث: الدعوة بفهم حسن المنهج العملي، والتمسك به، والدعوة إليه، سواءً كان ذلك في باب الدعوة إلى اللَّه، أو الجهاد في سبيل اللَّه، أو بذل النصيحة، أو في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو غير ذلك من أبواب العلم والعمل، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وبمناسبة حسن المعتقد وحسن المنهج يجب الحذر من العقائد الفاسدة، والمناهج الضالة المخالفة لسبيل المؤمنين، الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الغر الميامين، الذين أخذوا أحكام دينهم من مشكاة النبوة، ولم يقلدوا من ليس لديه علم، لأن تقليد من ليس لديه علم ضلال مبين، لمخالفته سبيل المؤمنين.

وأخيرًا: فقد أشرت في آخر هذه الأبيات أن الدعاء متبادل بين المؤمنين، فهو شعار لهم، وما ذلك إلا لأن كل واحد يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، انطلاقًا من أوثق عرى الإيمان التي هي الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه، والمعاداة في اللَّه، وبذلك تنال ولاية اللَّه.

كما ذكرت إخوة الإيمان الذين يسعون في طلب الخير لأنفسهم ولغيرهم من **إخوانهم أهل الإيمان والتقى خصوصًا وللناس عمومًا؛ لقول رسول اللَّه ﷺ: «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثله»**[(٢)].

---

(١) (١/٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

فصل في بيان أقسام الفسق والظلم

ن:

وَالفِسقُ فِسقَانِ فَفِسقٌ أَكبَرُ ... أَصحَابُهُ ذُنُوبُهُم لَا تُغفَرُ
وَدُونَهُ فِسقٌ ذَوُوهُ فِي خَطَر ... وَأَمرُهُم لِلرَّبِّ خَالِقِ البَشَر
فَإِن يَشَأ يَرحَم فَذَاكَ فَضلُهُ ... وَإِن يُعَذِّب فَالعَذَابُ عَدلُهُ
وَالظُّلمُ ظُلمَانِ فَظُلمٌ أَعظَمُ ... كَأَكبَرِ الشِّركِ أَيَا مَن يَفهَمُ
وَدُونَهُ ظُلمٌ كَمِثلِ مَا سَبَق ... فِي قِسمَةِ الفِسقِ وَمَا بِهِ التَحَق

ن:

وَالفِسقُ فِسقَانِ فَفِسقٌ أَكبَرُ ... أَصحَابُهُ ذُنُوبُهُم لَا تُغفَرُ

الشرح: تعريف الفسق لغة: الخروج من شيء، تقول العرب: فسقت الرطبة؛ إذا خرجت من قشرها.

وشرعًا: قسمان: فسق أكبر يخرج من ملة الإسلام، وفسق أصغر لا يخرج من ملة الإسلام، وقد وردت أمثلة كثيرة لكلٍّ قسم منهما.

فمن أمثلة الفسق الأكبر من القرآن الكريم: قول الحق ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، الآية.

قال ابن كثير في معناها ما نصه: (ينبه تعالى بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعًا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنعم عليه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى، ثمَّ بعد هذا والى إبليس وعادى الله فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: لجميعهم ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ أي: سجود تشريف وتكريم، وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما

ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(١)، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى هاهنا على أنه من نار، كما قال تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: فخرج عن طاعة اللَّه، ثم قال تعالى -مقرعًا لمن يتبعه وموبخًا لمن أطاعه-: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ أي: بدلًا عني ولهذا قال سبحانه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾)(٢). اهـ

ومن أمثلته: قول اللَّه سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السجدة: ٢٠].

قال المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة: (يريد: الكفار، دلَّ على ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾)(٣).

ومن أمثلته: قول اللَّه عز وجل: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والمعنى: فهل يهلك بالعقوبات العاجلة والآجلة إلا الخارجون عن طاعة ربهم خروجًا كليًّا، وذلك بتكذيبهم المرسلين وكفرهم بهم، وبما جاءوا به من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢).

(٢) ابن كثير (٣/ ٧٩-٨٠).

(٣) كتاب تعظيم قدر الصلاة (ص٣٤٣).

عند ربهم وماتوا على ذلك .

ففي هذه الآيات الكريمة دليل على صحة إطلاق الفسق على الكفر الأكبر .

وقولي في الشطر الثاني :

.... أَصْحَابُهُ ذُنُوبُهُم لَا تُغْفَرُ

أي : أن أصحاب الفسق الأكبر الذي سبق ذكر أمثلته كفار كفرًا أكبر موجب للعنة والخلود في النار وبئس القرار أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ونعوذ باللَّه من غضب رب العالمين ، ونسأله جنته ورضاه ومغفرته وهو خير الغافرين .

وأمَّا قولي :

وَدُونَهُ فِسْقٌ ذَوُوهُ فِي خَطَر ....

فالمراد به : الفسق الذي أطلق في بعض النصوص على المعاصي التي هي دون الفسق الأكبر المخرج من الملة ، وأمثلته ظاهرة في القرآن لا تخفى على طلاب العلم الذين سَلِمُوا من فكر الخوارج ، السفاكين للدماء ، المُكَفِّرين للمسلمين والمسلمات بالمعاصي التي دون الشرك باللَّه .

منها : قوله -تبارك وتعالى- : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة : ٩٧] ، الآية .

ومنها : قول اللَّه تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور : ٤] .

ومنها : قوله -جل وعلا- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

فأما آية البقرة ؛ فالشاهد فيها إطلاق لفظ الفسوق على المعاصي التي هي دون الفسق الأكبر المخرج من الملة ، فلا يبقى إلا أنه أريد بالفسوق هنا الذنوب التي لا يخرج فاعلها من ملة الإسلام كارتكاب محظورات الإحرام

عمدًا أو تساهلًا أو غيرها من الآثام المتعلقة بحق اللَّه أو بحقوق العباد.

فأصحاب هذا النوع من الفسق تحت مشيئة اللَّه، فمن أراد اللَّه أن يرحمه بفضله فلم يعاقبه بذنوبه فعل، وله الفضل سبحانه، ومن أراد اللَّه أن يعاقبه على معاصيه فهو الحكم العدل لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، بيد أن مآله إلى الجنة كما هو مقتضى نصوص الوعد الكريم.

وأما آية النور؛ فمحل الشاهد فيها: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، حيث جاء إطلاق لفظ الفسق على ذنب ليس كفرًا، وصاحبه ليس كافرًا؛ بل هو مسلم فاسق بسبب ارتكاب جريمة القذف.

وأما محل الشاهد في آية الحجرات؛ فهو قول اللَّه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية، حيث جاء إطلاق لفظ الفسق على ذنب ليس كفرًا، ألا وهو الكذب الذي سقطت بثبوته عدالة المسلم، ولا يسقط إسلامه وإيمانه بالكلية؛ بل يقال لمن وقع في الكذب: فاسقًا، كما سُمِّي في القرآن، ولكنه فسق لا يخرجه من الملة.

وأمَّا قولي:

.... **وَأَمـرُهُـم لِـلـرَّبِّ خَـالِـقِ الـبَـشَـر**

المراد بهم: من أُطلق عليهم لفظ الفسق بسبب ذنوب ارتكبوها لا تخرج من الملة كالشرك الأصغر وما في حكمه، وككبائر الذنوب، فإن هذا الصنف من البشر الذين استحقوا العذاب هم تحت المشيئة الإلهية، إن شاء اللَّه عذبهم بقدر ما جنوا على أنفسهم ثمَّ مآلهم إلى الجنة بما معهم من العمل الذي أساسه التوحيد.

وقد اختلف العلماء في أصحاب الكفر الأصغر والشرك الأصغر إذا ماتوا بدون توبة: هل هم تحت المشيئة الإلهية، بمعنى إن شاء اللَّه عذبهم فعل، وإن

شاء غفر لهم ذنوبهم فلم يدخلهم النار فعل، أم أنه لا بد من تعذيب من مات على الشرك سواءً كان كبيرًا أو صغيرًا؛ لقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] ؟ وقد تقدم تحرير هذه المسألة فيما مضى قريبًا.

قال ابن قيم الجوزية -رحمه اللَّه تعالى- مختصرًا بحث الفسوق في كتاب اللَّه قال: (وأمَّا الفسوق فهو في كتاب اللَّه نوعان: مفرد، مطلق ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج من الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام، فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧])[١]، وقد سبق إيضاح ذلك قريبًا.

ن:

وَالظُّلْمُ ظُلْمَانِ فَظُلْمٌ أَعظَمُ ... كَأَكبَرِ الشِّركِ أَيَا مَن يَفهَمُ
وَدُونَهُ ظُلمٌ كَمِثلِ مَا سَبَق ... فِي قِسمَةِ الفِسقِ وَمَا بِهِ التَحَق

الشرح: تعريف الظلم:

الظلم لغة: وضع الشيء في غير محله.

وشرعًا: يُطلَق ويراد به ظلم النفس بترك الطاعات المفروضة من غير عذر شرعي وعلى رأسها التوحيد، أو ارتكاب المحظورات، وعلى رأسها الإشراك باللَّه، ويطلق ويراد به ظلم الغير سواءً من بني آدم أو من العوالم الأخرى كالحيوانات ونحوها من كلِّ مظلوم نهى الشرع الشريف عن ظلمه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٩).

والظلم -من حيث الإطلاق- نوعان:

١- النوع الأول: يطلق الظلم ويراد به الكفر الأكبر، ومن أمثلة ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٦].

قال البغوي في تفسيره في معناها: (﴿وَلَا تَدْعُ﴾ لا تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فعبدت غير اللَّه ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الضارين لأنفسهم الواضعين للعبادة في غير موضعها)[١]. اهـ

والشاهد في هذه الآية: إطلاق لفظ الظلم والمراد به الكفر الأكبر، ويسمى ظلمًا أكبر.

ومن أمثلته: قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، فالمراد بالظالم في الآية الكافر الكفر الأكبر بدليل سبب النزول، وذلك أن عقبة بن أبي معيط -صاحب لأمية بن خلف- فأسلم عقبة، فقال أمية: «وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمدًا»[٢]، فكفر؛ فأطلق اللَّه ﷻ الظلم بمعنى الكفر الأكبر؛ إذ إن عقبة بن أبي معيط مات كافرًا، وغير هاتين الآيتين في إطلاق لفظ الظلم والمراد به الكفر الأكبر كثير.

وكما جاء في النصوص إطلاق الظلم على الكفر الأكبر كما رأيت، فإنه قد جاء إطلاقه على الكفر الأصغر وكبائر الذنوب ولكن ليس الظلم كالظلم؛ بل الظلم الأصغر الذي هو الكفر الأصغر، وكبائر الذنوب ليس كالأكبر لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن من أمثلة الظلم الأصغر قول اللَّه -جل وعلا-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ

---

(١) «تفسير البغوي» (٤/ ١٥٥).

(٢) أورده الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨).

سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فإن الظالم لنفسه في هذه الآية هو الذي ظلم نفسه بالمعاصي التي دون الكفر الأكبر ودون الفسق الأكبر اللذين يخرجان الواقع فيهما أو في أحدهما من الملة.

وهذا هو المراد بقولي:

وَدُونَهُ ظُلْمٌ كَمِثْلِ مَا سَبَق ... فِي قِسمَةِ الفِسقِ وَمَا بِهِ التَحَق

والمعنى: أن دون الظلم الأكبر المخرج من الملة ظلم أصغر لا يخرج صاحبه من الملة، كما أن الفسق منه ما هو أكبر يخرج صاحبه من الملة ويوجب له الخلود في النار إن مات عليه، ومنه ما هو أصغر لا يخرج مقترفه من ملة الإسلام ولا يوجب له الخلود في النار إن دخلها، وإن سمي ظالمًا كتسمية الكافر كفرًا أكبر ظالمًا.

قال محمد بن نصر المروزي: (قد يسمى الكافر ظالمًا، ويسمى العاصي من المسلمين ظالمًا، فظلم ينقل عن ملة الإسلام، وظلم لا ينقل)[١].

وبمثل هذا القول قال الإمام ابن تيمية مفرقًا بين نوعي الظلم: (إن الظلم المطلق يتناول الكفر ولا يختص بالكفر؛ بل يتناول ما دونه... وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الإنسان نفسه، وظلم الناس بعضهم بعضًا، وذلك قد عرف - ولله الحمد - أنه ليس كفرًا)[٢]. اهـ

* * *

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (ص٦٥٠).
(٢) «الفتاوى» (٧/ ٧٢).

فصل
في بيان نوعي النفاق

ن :

وَهَكَذَا النِّفَاق يَا إِخْوَانِي أَتَى بِهِ وَحِيٌ مِنَ الرَّحمَنِ
وَهوَ عَلَى نَوعَينِ بِالتَّفصِيلِ ذِكرُهُمَا آتٍ مَعَ الدَّلِيلِ
فَالأَوَّلُ الإِثمُ العَظِيمُ الأَكبَرُ أَتَى بِهِ النَّصُّ الصَّرِيحُ الأَظهَرُ
فِي سُورَةٍ عُظمَى تُسَمَّى البَقَرَه تُحَطِّمُ الفُسَّاقَ أَعنِي السَّحَرَه
وَسُورَةٍ أُخرَى تُسَمَّى الفَاضِحَه جَاءَت بَيَانًا لِلنِّفَاقِ وَاضِحَه
وَسُورَةٍ فُضلَى بِهِم قَد سُمِّيَت آيَاتُهَا جُلَّى بِخَيرٍ خُتِمَت
فَالنَّوعُ هَذَا اسمُهُ اعتِقَادِي مِنهُ حَمَانَا خَالِقُ العِبَادِ
عَذَابُ أَهلِهِ مَقَرُّهُ ثَبَت فِي أَسفَلِ النَّارِ رُءُوسُهُم هَوَت

ن :

وَهَكَذَا النِّفَاق يَا إِخْوَانِي أَتَى بِهِ وَحِيٌ مِنَ الرَّحمَنِ

الشرح : أي : كما انقسم الكفر إلى قسمين، وانقسم الشرك إلى ثلاثة أقسام، فإن النفاق ينقسم إلى نوعين سيأتي تفصيلها فيما بعد.

وقولي : أتى به وحي من الرحمن ؛ أي : إن النفاق بنوعيه جاء ذكره في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وستأتي الأمثلة لكل نوع من نوعي النفاق الاعتقادي والعملي فيما يلي.

ن :

وَهوَ عَلَى نَوعَينِ بِالتَّفصِيلِ ذِكرُهُمَا آتٍ مَعَ الدَّلِيلِ

الشرح : تعريف النفاق لغةً وشرعًا :

أمَّا تعريفه لغة: فهو إخفاء الشيء وإغماضه.

وشرعًا: إبطان الشر وكتمه، وإظهار الخير خديعة ومكرًا.

وإن شئت فقل هو إظهار الإيمان باللسان، والتصميم على الكذب بالقلب، وهو على نوعين:

١- الأول منهما: اعتقادي وهو ما أشرت إليه بقولي:

فَـالأَوَّلُ الإِثْـمُ الـعَـظِـيـمُ الأَكْـبَـرُ ....

أي: الذنب العظيم المخرج من ملة الإسلام، وأدلته وأمثلته واضحة في القرآن الكريم في آيات محكمات واضحة المعاني والدلائل، منها ما جاء في سورة البقرة التي تُحطِّم السحرة لعظم قدرها، وجلاء نصوصها، كقوله تعالى:
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ
أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا
كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
[illegible]

جاء بيان نفاقهم وفساد معتقداتهم في سورة كاملة سميت بهم هي سورة المنافقين، لأنها في بيان صفاتهم القبيحة الدالة على غاية كذبهم، ووضوح كبريائهم، ونهاية جبنهم، ووضوح غدرهم، وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين.

فهذا النوع يسمى اعتقاديًا مخرجًا من ملة الإسلام، موجبًا للخلود في الدرك الأسفل من النار، ومن غير شك أن الدرك الأسفل هو أشد الدركات عذابًا وهو مقر المنافقين، وأهل النار كلهم فوق المنافقين، ودركاتهم بحسب قبح أعمالهم الكفرية، وأهل النار الذين هم أهلها يشتركون في الخلود فيها: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٣-٢٦].

ن:

عَـذَابُ أَهْـلِـهِ مَـقَـرُّهُ ثَـبَـت فِـي أَسـفَـلِ الـنَّـارِ رُءُوسُـهُـم هَـوَت

الشرح: أي: إن عذاب أصحاب النفاق الاعتقادي المخرج من الملة في الدرك الأسفل من النار وبئس القرار، كما قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معناها ما نصه**: (يعني -جلّ ثناؤه- بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إن المنافقين في الطبق الأسفل من أطباق جهنم، وكل طبق من أطباق جهنم درك)[1]. اهـ

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معناها أيضًا ما نصه**: (يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشرّ الحالات من العقاب؛ فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله، وزادوا عليهم بالمكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يُشعَر به ولا يُحَسُّ، ورتبوا على ذلك جريان أحكام

(١) (٥/٣٣٨).

الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه؛ فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

وهذا عام لكل منافق إلا من مَنَّ اللَّه عليهم بالتوبة من السيئات ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ له الظواهر والبواطن، واعتصموا به، والتجئوا إليه في جلب منافعهم، ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾، فقصدوا وجه اللَّه بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق؛ فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ أي: في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] لا يعلم كُنهَهُ إلا اللَّه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وتأمل كيف خصَّ الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما، خصوصًا في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام باللَّه، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافٍ كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما)[1]. اهـ

وأقول بما قال به أئمة الهدى: إن اللَّه حكم عدل يجازي العاملين من جنس عملهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فيجازي المؤمنين بحسب أعمالهم، الجنة التي يدخلها أهل التوحيد والإيمان والإحسان بفضل اللَّه ورحمته، ويقتسمون منازلها بصالح الأعمال وهي درجات بعضها فوق بعض، كما قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

---

(١) (١/ ٣٧٥- ٣٧٦).

قال السيوطي في الدر المنثور نقلًا عن ابن جرير عن قتادة -رحمهما الله- في معناها: (انظر كيف فضلنا بعضهم في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، وإن للمؤمنين في الجنة منازل وإن لهم فضائل بأعمالهم، وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «**بين أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها**»[(١)])[(٢)]. اهـ

قلت: وكأنه يشير إلى ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: **بلى، والذي نفس محمد بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[(٣)] ويجازي الكفار والمشركين الكفر الأكبر والشرك الأكبر، فيدخلهم السعير وبئس المصير، لا يموتون فيها ولا يحيون، ولا خروج لهم منها؛ بل عذابهم أبدًا في دوام ومزيد، لا يفنى ولا يبيد، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، الذي لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون، قد انقطع رجاؤهم من كل خير، وكان كفر هؤلاء وشركهم ظاهرًا غير مخفي حتى ماتوا عليه.

وأما المنافقون الذين أظهروا الإسلام والموافقة للمؤمنين في كثير من أعمال الإسلام كالنطق بالشهادتين، والصلاة على الصفة التي وصفهم الله بها، والجهاد، واحترام الإسلام، وغير ذلك وكل ذلك في الظاهر، وأما في الباطن فإنهم أشد عداوة للإسلام والمسلمين ولرسول الإسلام من اليهود

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٤١٢).

(٢) (٤/ ٣٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

والنصارى، وعباد الأصنام والأوثان والمستقسمين بالأزلام، وهكذا هم في كل زمان ومكان، فكان جزاؤهم في الدنيا الخزي والفضيحة في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، ومن أراد أن يطلع على النصوص التي فضحهم اللَّه بها فليقرأ صدر سورة البقرة فقد قسم اللَّه الناس فيها إلى ثلاثة أقسام:

١- **القسم الأول**: المؤمنون وقد ذكر اللَّه أوصافهم الزكية في أربع آيات.

٢- **القسم الثاني**: هم الكافرون وقد ذكر اللَّه صفاتهم في آيتين اثنتين.

٣- **القسم الثالث**: المنافقون أهل الإسلام في الظاهر، وأهل الكفر في الباطن، وقد ذكر اللَّه صفاتهم في ثلاث عشرة آية.

وليقرأ صفاتهم أيضًا في سورة النساء، وسورة التوبة والتي من أسمائها: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين إخوان اليهود وأشد منهم عذابًا، وليقرأ سورة من أولها إلى آخرها ألا وهي السورة التي سميت بهم (المنافقون)، وليقرأ سورة الحشر، وسيتضح حينئذٍ للقارئ أن كفر المنافقين كان أخبث الكفر، لما اشتمل عليه من الخديعة والمكر بأولياء اللَّه المؤمنين، وكان جزاؤهم في الآخرة أن يكونوا في أسفل درك في النار، وجميع الكفار من فوقهم، وذلك مقتضى العدل في الجزاء؛ إذ لما كان كفرهم أخبث الكفر، ومكرهم أقبح المكر، كان جزاؤهم في الدنيا أشد الخزي، وأعظم المكر، ويكون جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم جزاءً وفاقًا، وفي السنة بيان كثير من صفاتهم، ومنها قوله ﷺ من حديث طويل: «. . . . **ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر**»[1].

وسيأتي إيضاح ذلك عند ذكر أنواعه، أعاذنا اللَّه من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٩)، ومسلم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقولي:

.... فِي أَسفَلِ النَّارِ رُؤوسُهُم هَوَت

معناه: أن المنافقين أمهم أسفل الهاوية، تهوي أجسامهم مقدمة رءوسهم إلى مقرهم الذي أعد لهم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وقولي في وصف عذابهم:

وَهَكَذَا الأَرْوَاحُ ثُمَّ الأَفْئِدَه تَحرِقُهَا النَّارُ عَلَيهِم مُؤصَدَه

الشرح: أي: كما تحرق النار أجسامهم وفي مقدمتها الرءوس التي فيها وجوههم، تلفحهم النار وهم فيها كالحون، كذلك تحرق النار أرواحهم التي في أجسامهم، وتحرق أفئدتهم، وتطبق النار عليهم من أسفل ومن أعلى، وهم وغيرهم من الخالدين في النار، كما قصَّ اللَّه حالهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ فيُجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

ن:

لَهُ مِنَ الأَنوَاعِ سِتَّةٌ أَتَت فِي شَرعِنَا المَيمُونِ حَقًّا ثَبَتَت

الشرح: أي: إن أنواع النفاق الاعتقادي ستة معلومة وثابتة، قد علمها أئمة العلم بالتتبع والاستقراء للنصوص الشرعية، وسأوردها واحدًا بعد واحد موضحة بالأمثلة:

النوع الأول: التكذيب للرسول ﷺ: وهذا أكبر الأنواع الستة وضوحًا، وأشدها خطرًا، لكونه تكذيبًا بالدين كله أصولًا وفروعًا، فرائض وواجبات، ومستحبات ومحرمات، وكل ذلك جاء به الرسول الكريم الصادق المصدوق

الذي زكّى ربُّه ظاهره وباطنه، قوله وفعله، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ١-٥]؛ أي: ما الوحي الذي جاء به محمد ﷺ إلا حق وصدق تلقاه عن جبريل الأمين، وجبريل تلقاه عن رب العالمين، وصدق به المؤمنون السابقون واللاحقون، وكذب به الكفار بكافة مللهم، وأشدهم تكذيبًا أهل النفاق لشدة الخطر والضرر الذي ألحقوا به الإسلام والمسلمين، لتظاهرهم بالإسلام وانتمائهم إلى المسلمين وهم كفار في الباطن عند أهل الإسلام حقيقة، وكفار في الظاهر والباطن عند إخوانهم اليهود، كما فضحهم اللّه بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال عنهم -جل ثناؤه- واصفًا لهم بما هم عليه من التكذيب والمكر والخديعة التي عادت عواقبها الوخيمة عليهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال -جل وعلا-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

قال ابن كثير في معناها ما نصه: (النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو نوعان:

١- اعتقادي: وهو الذي يخلد صاحبه في النار أبدًا.

٢- وعملي: وهو من أكبر الذنوب.

وقد نزلت صفات المنافقين في السور المدنية، لأن مكة لم يكن فيها نفاق؛ بل كان خلافه، فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا وهو في الباطن مؤمن،

فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وكان فيها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وفيها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل:

١- بنو قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج.

٢- بنو النضير.

٣- وبنو قريظة، وكانوا حلفاء الأوس.

فلما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة، أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود مثل «عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه» ولم يكن يوم ذاك نفاق أيضًا، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف؛ بل كان النبي -عليه الصلاة والسلام- وادع اليهود، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حول المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى، وأظهر اللَّه كلمته وأعز الإسلام وأهله؛ قال عبد اللَّه بن أبي ابن سلول - وكان رأسًا في المدينة - وهو من الخزرج، وهو سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل هو وطوائف ممن هم على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجِد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب.

فأما المهاجرون فلم يكن أحد فيهم منافقًا لأنهم لم يهاجروا مكرهين من قومهم؛ بل كان الواحد منهم يهاجر مختارًا ويترك ماله، وولده، وأرضه، رغبة فيما عند اللَّه في الدار الآخرة من النعيم المقيم، ورضا رب العالمين، وكان حينئذٍ المنافقون هم من قبيلتي الأوس والخزرج واليهود، ولذا فقد نبه اللَّه سبحانه على كيد المنافقين لئلا يغترَّ المؤمنون بظاهر أمرهم، ويقع في الأرض فساد عريض من اعتقاد إيمانهم وهم في الحقيقة كفار.

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾؛ أي: يكذبون على الله وعلى المؤمنين بمخادعتهم، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وقد أعلم الله رسوله قسمًا من المنافقين واستأثر بمعرفته بالباقين، فلم يعلمه بهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقد يقول قائل: لِمَ لم يقتل رسول الله المنافقين مع علمه بقسم منهم؟

فجواب ذلك: ما ورد في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب ﵁: «**دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»(١).

ومعنى هذا خشية أن يقع تغيير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، فإن العرب لا يعلمون نفاق هؤلاء، فيظنون أنه يقتلهم رغم إيمانهم به، فيقولون: محمد يقتل أصحابه.

وقال مالك: «إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه».

وقال الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرون من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يجبُّ ما قبله، يؤيد ذلك حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**»(٢).

وهذا متعلق بشأن من يعلم رسول الله ﷺ أعيانهم وأسماءهم، وأما الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

لم يُعلم اللَّه رسوله بنفاقهم فقد قال فيهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١]، فإن في هاتين الآيتين دليلًا على أنه لم يدرك أعيانهم، وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠])[1]. اهـ

وقال -جلَّ ثناؤه- مكذبًا لهم في ادعائهم الإيمان برسول اللَّه ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وكم لهذه الآيات الكريمات من نظائر، وكلها تدل بوضوح على أن هذا الصنف من الناس كافرون بدين الإسلام، ومُكذِّبون به وبمن جاء به من عند ربه، وضيعوا الأمانة باطنًا، وقاموا بها ظاهرًا رياءً وسمعة، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثمَّ بيَّن اللَّه أقسام الناس فيها بقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فقدم المنافقين ذاكرًا عذابهم قبل الكفار الصرحاء على اختلاف مللهم، وعطف عليهم كل مشرك كفور.

وختم الآية بوصف المؤمنين الأمناء وما لهم عند اللَّه الذي هداهم للإيمان، لأنهم أتوا بأسباب الهداية، فهم قاموا بالأمانة ظاهرًا وباطنًا، والمنافقون قاموا بالأمانة ظاهرًا وضيعوها باطنًا، والمشركون الصرحاء ضيعوا الأمانة ظاهرًا وباطنًا، وربك الحكم العدل يجازي كل عامل من جنس عمله، فهو يجازي

(١) (١/ ٢٥-٢٨).

المؤمنين من جنس أعمالهم الصالحة كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]؛ أي: لا يخاف زيادة في سيئاته، ولا نقصًا من حسناته، وإلى مقتضى هذا البيان أشرت بقولي:

أَوَّلُـهَـا الـتَّـكْـذِيـبُ لِـلـرَّسُـولِ مِـنْ فَـاجِـرٍ وَحَـاقِـدٍ جَـهُـولِ

والمراد بالفاجر: هو المنبعث في المعاصي والفساد، والمراد بالحقود؛ أي: صاحب الضغائن، والمراد بالجهول: البالغ في الجهل غايته.

٢- النوع الثاني من أنواع النفاق الاعتقادي: هو بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ: وهو خطير على المسلمين؛ إذ قد يقع فيه بعض المسلمين لجهله بحق المصطفى الكريم ﷺ، فتراه ينكر بعض الأحكام التي جاء بها رسول الإسلام -عليه الصلاة والسلام-، ويردها، وربما فضل غيرها عليها من كلام البشر ونحاتة أفكارهم تفضيلًا قلبيًّا، فيقع في داء النفاق الأكبر الذي يوجب الخلود في النار؛ بل في أشد دركاتها.

والذي يجب على المسلم ذكرًا كان أو أنثى أن يتعلم من دين الإسلام ما هو فرض عين، ومن غير شك أن محبة ما جاء به محمد رسول اللَّه ﷺ فرض عين على كل مكلف، فمن أبغض شيئًا منه فقد دخل في باب من أبواب النفاق الأكبر الموجب للخلود في أشد العذاب.

وأما من أحب ما جاء به الرسول الكريم -عليه من ربه أزكى الصلاة وأتم التسليم- فهو من عباد اللَّه الصالحين، وأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، فسبحان من اصطفى محمدًا ﷺ لحمل رسالته، وفضَّله على سائر البشر؛ بل على كافة مخلوقات الأرض والسماء، وأمر الثقلين بمتابعته، وأرشدنا أنه لا سبيل إلى دخول الدار الطيبة -الجنة- إلا برحمة اللَّه ثم بالإيمان به وبما جاء به من عند اللَّه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال -جل وعلا-: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال -عزَّ من قائل-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

فهنيئًا لمن أحب اللَّه وأحبَّ رسول اللَّه ﷺ، وأحب ما جاء به، وعمل بمقتضى موجبات رضا اللَّه والجنة، والنجاة من سخط اللَّه والنار.

وحقًّا إنه لا يصدر البغض لما جاء به النبي ﷺ، أو لشيء منه إلا من ملحد زنديق؛ أي: صاحب إلحاد أكبر مخرج من الملة، وصاحب بغي وكذب وعدوان، لا يبالي بالوقوع في جريمة الإلحاد والبغي والكذب، ولا يرعوي عن ذلك.

وهذه المعاني المنثورة هي التي قصدتها بقولي:

وَثَانِي الأَنْوَاعِ تَكْذِيبٌ أَتَى ... مِن مُلْحِدٍ بَاغٍ وَأَفَّاكٍ عَتَى
يَرفُضُ بَعضًا مِن شَرِيعَةِ النَّبِي ... بَغيًا وَعَدوًا يَا لَبِيبُ فَارهَبِ

٣- النوع الثالث من أنواع النفاق الأكبر: بغض الرسول محمد ﷺ، أو بغض شيء مما أتى به كما مضى: ومن غير ما شك أن هذا النوع كسابقيه، لا يصدر إلا من زنديق منافق خبيث أرعن لا يحب اللَّه ولا يحب كتابه ولا يحب رسوله؛ بل لو استطاع أن يمحو الإسلام من الكون لفعل، وأنى له ذلك، فتبًّا له وسُحقًا، لقد اشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فما أصبره على النار التي هي داره، فساءت الدار، وبئس دار البوار، وإلى هذا

أشرت بقولي:

ثَالِثُهَا يَا صَاحِ بُغضُ المُرسَلِ   أو بُغضُ مَا بِهِ أَتَى فَلتَعقِلِ

٤- النوع الرابع من أنواع النفاق الاعتقادي المخرج من الملة: بغض شيء مما أتى به النبي ﷺ: لأنه لا تحبه نفوسهم، ولم يتفق مع أهوائهم الشيطانية ورغباتهم الشهوانية، ولو عمل به وهو يبغضه فهو ناقض لإسلامه إن كان قبل ذلك مسلمًا حقيقة، فإذا وجد مكلفٌ يصلي ويصوم ولكنه يبغض الصلاة ويبغض الصوم مثلًا بدعوى أنهما يشقان على النفوس والأجسام فليس معه من الإسلام شيء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**[1].

وهذا النوع هو مرادي بقولي في الشطر الثاني:

....   أَو بُغضُ مَا بِهِ أَتَى فَلتَعقِلِ

٥- النوع الخامس من أنواع النفاق الاعتقادي المخرج من ملة الإسلام هو: الفرح والسرور والاستبشار بالضعف والانخفاض لدين الرسول الكريم ﷺ: وهو دين الحق الذي هو الإسلام، الذي أكرم اللَّه به مَن شاء مِن عالم الإنس وعالم الجن فأعزهم به في الدنيا، وجعلهم سادات الناس وقادتهم فيها، وجعل حياتهم به حياة طيبة مباركة، ورحم اللَّه الفاروق الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حفظ عنه أنه قال: «نحن قوم أعزنا اللَّه بالإسلام فلن نبتغي العزة بغيره»[2].

وحقًّا ما قال الفاروق المُلهَم، فإن من أقام شريعة الإسلام في نفسه ابتغاء

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٧) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (١٥).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠).

وجه اللَّه، ودعا الناس إلى الاعتصام بها علمًا وعملًا، ودعوة وجهادًا ونصحًا، فقد أتى بأسباب العزة في هذه الدار ويوم يقوم الأشهاد في دار القرار.

وأمَّا الفرحون بانخفاض الدين، وانتصار الكافرين والظالمين والفاسقين على المؤمنين والمسلمين، فأولئك هم المنافقون الذين يوالون اليهود وسائر الكافرين، ويعادون حزب اللَّه المفلحين الصالحين، ولا غرابة أن يكون المنافقون كذلك، فإن اللَّه قد أخبرنا عن أعمالهم وأخلاقهم وسلوكهم، فقال -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

ثمَّ توعدهم اللَّه على أفعالهم القبيحة، وانحرافاتهم الشنيعة، وخبثهم الخطير، بقوله -جلَّ ثناؤه-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

قال ابن كثير في معاني هذه الآيات الفاضحات للمنافقين والمنافقات والموضحات لعقوباتهم المهلكات ما نصه: (يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: عن الإنفاق في سبيل اللَّه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: نسوا ذكر اللَّه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها مُخلَّدين هم

والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: خالد لا ينتهي)[1]. اهـ

وهذا التفصيل هو شرح لقولي:

ثُمَّ السُّرُورُ بِانخِفَاضِ الدِّينِ ... مِن خُلُقِ الكُفَّارِ بِاليَقِينِ

والمعنى باختصار هو: أن الاستبشار بانخفاض الدين، وانتصار الكفر والكافرين على الإسلام والمسلمين والإيمان والمؤمنين من أخلاق الكفار والمنافقين، وهو قول صادر عن علم ويقين من دون ما شك من الموحدين.

ن:

وَكُرهُهُم لِلدِّينِ حِينَ يَنتَصِر ... قَاتَلَهُم رَبِّي فَهَل مِن مُدَّكِر

٦- النوع السادس -وهو الأخير من أنواع النفاق المخرج من الملة-: الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ: والمعلوم من أحكام الشريعة أن جميع الكفار والمنافقين النفاق الاعتقادي يكرهون أن يكون انتصارٌ لدين الرسول ﷺ لبغضهم له؛ لاسيما المنافقين، فإنهم يشتد حزنهم عند انتصار دين الإسلام، ويصيبهم من الغم والقلق الناتجين عن شدة الكره للدين وأهله، فلا تستغرب أن يكون مقرهم الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا يشفع فيهم ليخفف عنهم من العذاب أو يدفع عنهم شيئًا منه؛ بل قد استحقوا ما أصابهم بما كسبت أيديهم، كما استحقوا الغضب من اللّٰه الواحد القهار، واستحقوا الدعاء عليهم بما يخزيهم في الدارين لذا قلت في الشطر الأخير من البيت:

.... قَاتَلَهُم رَبِّي فَهَل مِن مُدَّكِر

(١) (٢/ ٣٥١-٣٥٢).

ن:

فَـهَـذِهِ الأَنْـوَاعُ يَـا ذَا أَهـلُـهَـا　　　فِي أَسفَلِ النَّارِ الشَّدِيدِ حَرُّهَا

الشرح: الإشارة عائدة إلى أنواع النفاق الاعتقادي التي سبق الحديث عنها وقولي: «يا ذا» نداء يفيد التنبيه للقارئ والسامع ليعلم نوع عذاب المنافقين نفاقًا اعتقاديًا، ليرهب ويسعى سعي الخائف من اللَّه الراجي رحمته ورضاه، لأن المؤمن العاقل إذا ذُكِّر بنصوص الترهيب ألجم نفسه بلجام التقوى، وهجر الآثام التي هي سبب العقوبات الدنيوية والبرزخية والأخروية، وإذا ذكر بنصوص الترغيب في الثواب العاجل والآجل، جَدَّ واجتهد في التقرب إلى اللَّه بالطاعات فرائضها ونوافلها، يرجو رحمة اللَّه ويخشى عذابه ويطمع في نيل رضاه، بالإضافة إلى هجر السيئات كبائرها وصغائرها قليلها وكثيرها لما فيه من الخطر الكبير والشر المستطير.

ن:

وَنَسأَلُ اللَّهَ نَعِيمًا وَرِضَا　　　وَجَنَّةَ الفِردَوسِ نِعمَ المُرتَضَى
وَالعَوذُ بِالرَّحمَنِ مِن حَرِّ سَقَر　　　أَلَا فَسَاءَت المُقَامَ وَالمَقَر
وَمِن جَمِيعِ النَّارِ رَبِّ نَجِّنَا　　　وَكُلَّ كَربٍ فِي القِيَامَةِ اكفِنَا
وَدَارِنَا الدُّنيَا كَذَاكَ البَرزَخِ　　　أَمِّن بِعَزمٍ مَع خُشُوعٍ يَا أَخِي
رَبِّي رَحِيمٌ وَكَرِيمٌ مُؤمِنُ　　　وَمَالِكُ المُلكِ غَفُورٌ مُحسِنُ

الشرح: تضمنت هذه الأبيات الخمسة أمورًا جليلة نافعة:

١- الأمر الأول: مشروعية التضرع والدعاء الشرعي والتوجه به إلى اللَّه -جل وعلا- في جلب المنافع ودفع المضار الدنيوية والأخروية، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فقد أمرنا اللَّه بالدعاء ووعدنا بالإجابة، وهو -جلَّ ثناؤه- لا يُخلِف الميعاد، غير أنه يشترط لإجابة

دعوة الداعي ثلاثة شروط:

١- الشرط الأول: ألا يكون الدعاء بمأثم.

٢- الشرط الثاني: ألا يكون الدعاء بقطيعة رحم.

٣- الشرط الثالث: ألا يستعجل بأن يقول: دعوت ودعوت فلم تستجب لي، يقول النبي ﷺ: «**ادعوا اللَّه وأنتم موقنون بالإجابة**»[١].

وليعلم الداعي ربه أن اللَّه ﷻ لابد أن يجيب دعاءه، وذلك إما أن يعجل له قضاء حاجته من جلب مصلحة أو دفع ضر، وإما أن يدفع عنه بها من الشر ما لا يعلمه، وإما أن يدخرها له إلى يوم القيامة حينما يكون الداعي في أَمَسِّ الحاجة إلى زيادة الحسنات ومحو السيئات، فادع أيها المسلم وأنت موقن بالإجابة، واعتبر الدعاء طلبًا لقضاء الحاجات، وكشف الكربات، وبالدرجة الأولى عبادة تتقرب بها إلى اللَّه كما قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٢]، وهو إما دعاء عبادة، وإما دعاء مسألة، وهو في ذات الأمر دعاء عبادة.

ألا وإن خير ما يدعو به العبد ربه أن يهديه هداية توفيق، وهي التي لا يملكها إلا اللَّه، وهي التي إذا منحها المكلف ظفر بالحياة الطيبة المباركة في دار العمل، وسَعِدَ سعادة لا نظير لها في الدار الآخرة حياة الجزاء على العمل، سعادة أبدية في روضات الجنات، وفي تلك الخيمات المجوفات، حياة الملك الكبير، والزوجات الحسان، والخدم والولدان، وفوق ذلك رضا الكريم الرحمن ورؤيته -جلَّ ثناؤه-، كل يوم هو في شأن، كل ذلك وقد زحزحه ربه عن النار مأوى المجرمين والفجار.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢) من حديث النعمان بن بشير ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

فهنيئًا لمن أدخل الجنة مع المنعَم عليهم المتقين الأبرار، جعلنا اللَّه وجميع المؤمنين من عباده الصالحين، وأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده المنصورين الغالبين.

٢- **الأمر الثاني**: لتعلم أيها المسلم المؤمن أن خير ما يسأل العبد ربه حسنة الدنيا والآخرة، كأن يقول المكلف المسلم في دعائه: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢]، ألا وإن من حسنات الآخرة: دخول الجنة والنجاة من النار، ورضا اللَّه العزيز الغفار.

٣- **الأمر الثالث**: كما اشتملت الأبيات على الإرشاد إلى طلب النجاة من اللَّه تعالى من كربات الدنيا والبرزخ والدار الآخرة إذ لا يملكها سواه.

٤- **الأمر الرابع**: وقد اشتملت الأبيات على وجوب الثناء على اللَّه بما هو أهله، وذلك في كلِّ حال من الأحوال وفي كلِّ شأن من الشئون؛ لاسيما في أوقات التضرع والدعاء، فإن الثناء على اللَّه ينبغي أن يتصدر الدعاء، لما روى فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: دخل رجل في صلاة فلم يحمد اللَّه ولم يمجِّد ولم يُصَلِّ على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**عجلت أيها المصلي**»[1].

ن:

وَدُونَـهُ نَـوعٌ يُـسَمَّـى الـعَـمَـلِـي ... فَـاحـذَرهُ تَـسلَـم مِـن عِـقَـابِ الأَوَّلِ
أَنـوَاعُـهُ مَـشـهُـورَةٌ ثَـمَـانِـيَـه ... نُـصُـوصُـهَـا وَاضِـحَـةٌ وَدَانِـيَـه
أَوَّلُـهَـا كَـذبُ الـحَـدِيـثِ فَـاعـلَـمَـن ... جَاءَ صَرِيحًا فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَن
فَـاحـذَرهُ دَومًـا وَبِـضِـدِّهِ الـتَـزِم ... مَع رَبِّنَا الرَّحمَنِ فَاصدُق يَا فَهِم

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٧)، والنسائي (١٢٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٨٨).

وَهَكَذَا مَعَ العِبَادِ دَائِمَا ... فِي كُلِّ حَالٍ قَاعِدًا وَقَائِمَا
وَالوَعدُ ثَانِيهَا فَبَادِر بِالوَفَا ... وَاحذَر مِنَ الخُلفِ سَبِيلِ مَن جَفَا
ثُمَّ خِيَانَةٌ فَعَنهَا فَابتَعِد ... وَعَكسَهَا أَدِّ كَفِعلِ المُقتَصِد
وَالنَّوعُ هَذَا يَا أُخَيَّ الثَّالِثُ ... فَحَقِّقِ العِلمَ فَأَنتَ الوَارِثُ
وَالرَّابِعُ الغَدرُ بِعَهدٍ مُطلَقَا ... جُرمٌ كَبِيرٌ فِي النُّصُوصِ حُقِّقَا
وَعَكسَهُ الزَم وَعَلَيهِ فَاستَقِم ... وَالرَّبُّ أَوصَى بِالوَفَاءِ فَاعتَصِم
ثُمَّ الفُجُورَ إِن تَكُن مُخَاصِمَا ... دَعهُ احتِسَابًا تُحرِزِ المَكَارِمَا
وَالنَّوعُ هَذَا خَامِسٌ كَمَا تَرَى ... فَرَاجِعِ النَّصَّ وَكُن مُستَبصِرَا
لِأَنَّهُ نَوعٌ خَطِيرٌ فَاحذَرَن ... وَعُذ بِرَبِّي مِن مُضِلَّاتِ الفِتَن

الشرح:

وَدُونَهُ نَوعٌ يُسَمَّى العَمَلِي .... إلخ البيت.

أي: ودون النفاق الاعتقادي - الذي سبق الحديث عنه مفصلًا -: النفاق العملي الذي سيأتي تفصيل القول فيه إن شاء اللَّه.

تعريفه: هو الذي لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام، وقد أُطلِق لفظ النفاق على فاعله.

وقولي: .... فَاحذَرهُ تَسلَم مِن عِقَابِ الأَوَّلِ

معناه: التحذير الشديد من الوقوع في أحد أنواعه التي سأذكرها فيما بعد -إن شاء اللَّه-، فإن في الحذر منه السلامة من العقوبات العاجلة والآجلة.

والمراد بالأول: اسم اللَّه -جل وعلا- الذي دلَّ عليه قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، الآية، ودلّ عليه قول النبي ﷺ: **«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء»**[1] الحديث.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ن:

أَنـوَاعُـهُ مَـشـهُـورَةٌ ثَـمَـانِـيَـه نُـصُـوصُـهَـا وَاضِـحَـةٌ وَدَانِـيَـه

أي: إن أنواع النفاق العملي الذي تقدم قبل قليل تعريفه سبعة عُرفت باستقراء النصوص وتتبعها، فصارت معروفة لدى أهل العلم ومشهورة في كتبهم، ككتب التفسير وكتب الحديث وكتب العقائد ونحوها، وأنواعه سبعة:

١- النوع الأول: الكذب في الحديث وهو المراد بقولي:

أَوَّلُـهَـا كَـذِبُ الـحَـدِيـثِ فَـاعـلَـمَـن جَاءَ صَرِيحًا فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَن
فَـاحـذَرهُ دَومًـا وَبِـضِـدِّهِ الـتَـزِم مَع رَبِّنَا الرَّحمَنِ فَاصدُق يَا فَهِم
وَهَـكَـذَا مَـعَ الـعِـبَـادِ دَائِـمَـا فِـي كُـلِّ حَـالٍ قَـاعِـدًا وَقَـائِـمَـا

والمعنى: أن أول نوع من أنواع النفاق العملي -حسب ترتيبي لها في المنظومة-: الكذب في الحديث، سواءً فيما يتعلق بحق الله أو فيما يتعلق بحقوق الخلق، وفي كلا الحالين فالكذب في الحديث نفاق عملي جاءت النصوص الصحيحة بالتحذير منه.

ومنها: قول النبي ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**[1].

ومنها: قوله ﷺ: **«إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على غيري، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**[2].

ومنها: قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«.... وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ومنها: قوله ﷺ: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

ومنها: قوله ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(٢).

وهناك نوع من الكذب يسمى بغير اسمه يُسمَّى (مزحًا) وهو صريح الكذب، وذلك كأن يخبر المخبر الجاهل بخطر حصائد اللسان بكذب فيقع في المأثم الذي تترتب عليه العقوبات العاجلة والآجلة، فاحذر أيها المسلم مما حذرك اللّٰه ورسوله منه جملة وتفصيلًا، ومن ذلك فلتات اللسان، فإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

ومنها: ما جاء في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا: بلى يا رسول الله! قال: **الإشراك باللّٰه، وعقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس فقال: **ألا وقول الزور**، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»(٣).

أقول: لا غرابة أن يعظم النبي ﷺ شأن الكذب ويبين خطره وضرره، فإن فيه من المفاسد العظيمة ما يوجب الفرار من أسبابه والحذر من الوقوع فيه، سواءٌ كان فيما يتعلق بحق اللّٰه، أو بحق الخلق، مما يترتب عليه انتهاك عرض، أو سفك دم، أو أخذ مال، وقد حذرتُ منه استنادًا إلى تلك النصوص التي أوردتها بقولي: «فاحذره دومًا»؛ أي: احذر أيها المسلم الكذب، سواءً كنت جادًّا أو مازحًا، لأن المسلم لا يجوز له أن يكون كذابًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وأصغ سمعك إلى قول المعصوم ﷺ في بيان فضل ترك الكذب ولو كان على سبيل المزح إذ قال -عليه الصلاة والسلام- : **«أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب ولو كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»**[١].

وقد وجهت بقولي: «وبضده التزم مع ربنا الرحمن» وضد الكذب: الصدق؛ أي: التزم بالصدق مع اللَّه، ومع عباد اللَّه، لا تنفك عنه، فإنه خلق المؤمنين، وسبيل النجاة من غضب اللَّه رب العالمين، وبالتزامه تتحقق مطالب رفيعة، ومصالح كبيرة، لمن لازمه طاعة لله، واستحياءً منه، وحفظًا للنفس من موجبات غضب اللَّه، ومنها الكذب الذي يهدي إلى الفجور.

ومعنى قولي: «فاصدق يا فهم»؛ أي: لازم الصدق أيها المكلف الذكي، لا يخدعك العدو من شياطين الإنس والجن فتسقط في المأثم والمغرم في أُخراك ودنياك بسبب الكذب المشين، المسقط لعدالتك عند الناس أجمعين.

حقًّا أيها المسلم، إن ربك ناداك في محكم التنزيل لتكون من أهل الصدق في كل شأن من شئونك وفي كل حال من أحوالك إذ قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وبذلك أمرك رسول اللَّه ﷺ فيما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللَّه صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللَّه كذابًا»**[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٦٤).
(٢) سبق تخريجه (ص١٦١).

ن:

وَالـوَعـدُ ثَـانِـيـهَـا فَـبَـادِر بِـالـوَفَـا وَاحذَر مِنَ الخُلفِ سَبِيلِ مَن جَفَا

الشرح: والمعنى: أن النوع الثاني من أنواع النفاق العملي الذي يجب أن يحذره المسلم هو خلف الوعد، الذي يعتبر من كبائر الذنوب وإن تساهل فيه كثير من الناس لجهلهم بما يترتب عليه من العقوبات العاجلة والآجلة، وقد جاء التحذير منه في هذا البيت من المنظومة وبيان أنه سبيل أهل الجفاء لا سبيل أهل الوفاء، وقد دل على اعتبار خلف الوعد بدون عذر شرعي نفاقًا عمليًا قول النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[1] وفي رواية: «**وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**»[2]، وفي رواية لمسلم: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»[3] ومجموع الروايات تفيد أن علامات المنافق نفاقًا عمليًا خمس علامات.

والمعنى المستفاد من مجموع الروايات: أن هذه الخصال الخمس إذا وجدت في مكلف من ذكر أو أنثى مجموعة، أو وجد بعضها فيه تقدر بقدرها نفاقًا، غير أن المراد بهذا النفاق: نفاق العمل، وهو النفاق الأصغر كما لا يخفى على من درس النوعين بالتفصيل، وفهم الفروق بين النوعين الاعتقادي والعملي، غير أنه كلما كان عدد الخصال أكثر كان الإثم أكبر؛ بل ويخشى عليه عند اتصافه بأكثرها أو بمجموعها من الوقوع في النفاق الأكبر، لأن المعصية الصغيرة والاستمرار عليها تجرُّ إلى الكبيرة.

والخلاصة: أن البيت تضمن وجوب المبادرة بالوفاء بالوعد عند وجود

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦١).

(٢) سبق تخريجه (ص١٦١).

(٣) برقم (٥٩).

شرط وجوب الوفاء وهو القدرة على الوفاء، وانتفاء المانع الشرعي وهو عدم القدرة لسبب من الأسباب التي يكون الإنسان بها معذورًا.

كما تضمن البيت أن خلف الوعد بدون مانع شرعي هو طريق أهل الجفا بالتقصير في أداء بعض الواجبات، وهو نقص في الإيمان لكون الإيمان ينقص بالمعصية.

ن:

ثُمَّ خِيَانَةٌ فَعَنْهَا فَابْتَعِدِ ... وَعَكْسَهَا أَدِّ كَفِعْلِ الْمُقْتَصِدِ

وَالنَّوعُ هَذَا يَا أُخَيَّ الثَّالِثُ ... فَحَقِّقِ الْعِلْمَ فَأَنْتَ الْوَارِثُ

الشرح: في هذين البيتين إرشاد وتوجيه إلى ترك المحرم، وفعل الواجب، أمَّا المحرم فهو الخيانة، وأما الواجب فهو أداء الأمانة، إذا فهم هذا فاعلم أن الخيانة هي:

٣- **النوع الثالث من أنواع النفاق العملي**، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، سواءً كانت فيما يتعلق بحقوق اللّه، أو بحقوق الخلق، وقد نهى اللّه عنها في محكم القرآن بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ففي الآية الكريمة نهي صريح عن خيانة اللّه ورسوله، وذلك بتضييع التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وتحليلًا وتحريمًا، وعن خيانة الخلق في أموالهم أو دمائهم أو أعراضهم، نهى اللّه عن ذلك كله كما نهى النبي ﷺ عن ذلك بقوله: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن اللّه الذي نهى عن الخيانة قد أمر بأداء الأمانة وتمام حفظها، فقال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٠).

أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، الآية.

وقد انقسم الناس في الأمانة بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

أ- قسم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا وهم المنافقون الذين فضحهم اللَّه في آيات بينات، وذكر اللَّه فيها أعمالهم القبيحة، وصفاتهم الذميمة، ومصيرهم السيئ الخطير، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ب- وقسم لم يقوموا بها لا ظاهرًا ولا باطنًا وهم المشركون الذين أعلنوا شركهم، وعبدوا من دون اللَّه ما لم ينزل به سلطانًا، وردوا دعوة المرسلين، فأصلاهم اللَّه جهنم وبئس المصير.

ج- وقسم قاموا بالأمانة ظاهرًا وباطنًا وهم المؤمنون الذين وصفهم ربهم بأعظم الصفات، ووعدهم جزيل الهبات، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

ولقد ذكر اللَّه أعمال هذه الأقسام الثلاثة وجزاءهم في آية واحدة فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

ومما هو جدير بالمعرفة وقد دلَّ عليه ظاهر القرآن، أن الأمانة قد عرضت على السموات والأرض والجبال قبل عرضها على آدم أبي البشر، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية الكريمة : (الأمانة هي الفرائض، عرضها اللَّه على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيمًا لدين اللَّه ﷻ ألَّا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فتقبلها بما فيها، وهو قوله : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ غرًّا بأمر اللَّه)[1].

ثمَّ اعلم -أيها المسلم- أن اللَّه الذي أسلمت وجهك له، وأقررت له بالخلق والرزق والفضل والإحسان قد ائتمنك على أمور كثيرة داخلة تحت وسعك وقدرتك وسوف يسألك عنها، فإن أنت أديت الأمانة فيها فلك من اللَّه الحياة المباركة، حياة الأمن والطمأنينة في دار السلام، وإن أنت خنت الأمانة فيها فقد بؤت بالإثم والخسران والندامة والهوان.

من هذه الأمور التي ائتمنك ربك الحكيم عليها :

أ- الاستقامة والثبات على الشهادة لله بالوحدانية، وأنه هو المعبود الحق وعبادة من سواه باطلة، والشهادة لرسول اللَّه ﷺ بالرسالة، وأنها هي الرسالة العامة الخاتمة، فلا نبيَّ بعد محمد ﷺ، ولا رسالة تحكم شئون العالم إلا رسالته، فمن ابتغى غيرها، وادعى صحة التعبد بسواها، فقد ضلَّ سواء السبيل، واشترى الباطل بالحق، واستحب العمى على الهدى، فقد قال -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فمن قام بها علمًا وعملًا ودعوة إليها فقد أدَّى الأمانة، ومن بخسها فقد خان بقدر ما حصل منه من بخس في حقها، وسوف يسأل عن ذلك يوم الجزاء والحساب على الأعمال.

ت- الطهارة بقسميها: طهارة الباطن، وطهارة الظاهر.

والمراد بطهارة الباطن: هي تزكية النفس وتصفيتها من كل انحراف عقدي أو خلقي أو سلوكي.

والمراد بطهارة الظاهر: هي الطهارة من الحدث والنجس، وقد جعل اللَّه الماء طهورًا لذلك كله، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وعند فقده شرع اللَّه التيمم بالصعيد الطيب رحمة بعباده، وتيسيرًا عليهم، لئلا يقعوا في حرج أو عنت، حيث قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٦-٧].

فمن قام بالطهارتين وأدَّاهما على مراد اللَّه ومراد رسوله ﷺ فقد أدَّى الأمانة فيهما، ومن أضاعهما أو بخس شيئًا منهما فسوف يسأل عن ذلك كله يوم الجزاء على الأعمال.

ث- جميع الجوارح أمانة في عنق صاحبها وسوف يُسألُ عنها جارحة جارحة:

فالفرج أمانة يجب على الإنسان حفظه من جعله في الحرام، إذ إن استعماله في الحرام خيانة، توجب العقوبة الدنيوية والأخروية، كما قال المولى الكريم سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وورد في السنة المطهرة ما رواه مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خذوا عني خذوا عني: قد جعل الله لهن سبيلًا؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**»[1].

وما تلك العقوبات إلا بسبب تضييع أمانة هذه الجارحة، جارحة الفرج الذي أمر الله أن يحفظ من الحرام ويوضع في الحلال.

وجارحة السمع أمانة لدى صاحبها، فاستعمالها فيما يجب أداء للأمانة، وذلك كسماع قراءة القرآن وسماع السنة المطهرة اللذين يستمد منهما كل خير وبر وصلاح، هكذا سماع الخطب والمواعظ والوصايا وكل نافع يستفيد منه الإنسان في دينه ودنياه.

أما إذا استعملت هذه الجارحة في سماع ما يحرم على العبد كالتجسس على المؤمنين للإضرار بهم، أو سماع الغيبة والنميمة، وقول الزور، وفحش القول، أو سماع الأغاني الخليعة التي يجب على المسلم أن ينزه سمعه عنها، أو سماع ضرب الطبول والعود والرباب والمزامير، أو سماع أصوات النساء الأجنبيات على سبيل التمتع والتلذذ النفسي، فهذا ونحوه كله خيانة في استعمال هذه الجارحة التي اؤتمن عليها هذا المخلوق المكلف.

وجارحة البصر أمانة لدى صاحبها، فإذا استعملها فيما يجب النظر فيه كالنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي الكتب النافعة دينًا ودنيا، وكالنظر

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠).

في مخلوقات اللَّه للتفكر والاستدلال بها على وجود خالقها وبارئها، وغير ذلك مما ينبغي النظر فيه، وكذا النظر إلى كل ما يباح النظر إليه، فإن استعمال هذه الجارحة على هذا النحو حق وحلال ووضع للشيء في موضعه.

وأما إذا استعملت جارحة البصر في النظر إلى ما لا يحل للإنسان النظر إليه، كالنظر إلى النساء الأجنبيات على أي صفة من الصفات على سبيل التلذذ، أو النظر إلى الشاب الأمرد لاسيما الوسيم من الشبان، أو النظر إلى أي منكر يفعل، فإن ذلك خيانة لا يقرها عقل صحيح، ولا يرتضيها الشرع الإلهي الشريف.

وجارحة اللسان أمانة، وهي من أعظم الجوارح إما نفعًا أو ضررًا، فإن استعمل هذا الجِرْم الصغير في قول الحق كقراءة القرآن الكريم، والذكر لله بجميع أنواعه، والاستغفار، وتعليم الناس أمور دينهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وبذل النصح لهم، ونحو ذلك من كل كلم طيب، فإن صاحبه يجني ثمراته في دنياه وأخراه وكان حافظًا للأمانة فيه، وأما إذا استعمل في غير وظيفته، كأن يستعمل في منكر القول وفحشه، من كذب، وسب، وشتم، وغيبة، ونميمة، وسخرية، وغناء، وقلب للحقائق لينصر الباطل ويغمط الحق، فقد خان الأمانة وانحرف بهذا العضو إلى غير ما خلق له.

والبطن أمانة، فلا تؤدى الأمانة فيه إلا إذا أودع فيه الحلال، وحفظ به وأودع فيه الخير بحذافيره، فيكون وعاء لذلك الخير، وأما إذا أودع صاحبه فيه الشر، وجعله وعاء له فقد انحرف به وخان الأمانة في هذا العضو.

وهكذا اليد أمانة، والرِّجل أمانة، فإذا استعملهما العبد في كل ما ينفعه في دينه ودنياه، وزاول بهما جلب المصالح ودفع المضار، وراقب اللَّه في كل تحركاتهما وسكناتهما، فقد أدَّى الأمانة فيهما، وإن سلطهما فيما لا يحل له

من سفك دم معصوم، أو ضرب بريء، أو سرقة، أو نهب، أو مشي إلى محرم وفساد، فقد خان الأمانة التي فرضت على هذه الأعضاء.

وبالتالي فليعلم الإنسان أن هذه الجوارح من نعم المولى عليه وسوف يسأل عن استعمالها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهناك أمانات أخرى اؤتمن عليها هذا الإنسان المكلف، وذلك كتربية الأولاد، وبذل النصح للرعية، وتبليغ الدعوة إلى الله، والقيام بحق القرابة والجوار، وأداء ما أنيط به من عمل ما في جهة من الجهات، وفي أي حقل من الحقول، وفي أي نوع من أنواع العمل.

ومن هذا العرض المفصل يدرك القارئ الكريم مدى أهمية الأمانة في شرائع الله المنزلة، إذ بمراعاتها توجد الحياة السعيدة، وبإضاعتها أو بخسها تختل موازين الحياة، وتسوء العاقبة، وتسود الفوضى، ويتسلط القوي على الضعيف بدون خوف أو حياء، وبدون تفكير أو تأمل في نهايات الأمور.

وأمَّا ثمرات الأمانة، فمنها:

أ- الظفر بثواب الله العاجل والآجل.

ب - براءة الذمة والخروج من التبعة.

ج- الفوز برضا الله واتقاء سخطه.

هـ - ارتفاع راية العدل فيما كان متعلقًا بحق الله، أو فيما كان متعلقًا بحقوق عباد الله)[1]. اهـ

والمعنى الإجمالي المختصر لهذين البيتين: الحذر والتحذير من الوقوع في

---

(١) «المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم ﷺ» (ص٢٢٠-٢٢٦).

وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١).

وقال أيضًا: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار**»(٢).

وكلُّ هذه النصوص تدل على خطر الفجور في الخصومات بالباطل وعقوبة الفاجر فيها، وبيان أنه من الظالمين الظلم الأصغر الذي قد يفضي بصاحبه إلى الظلم الأكبر، وأنه من المنافقين النفاق العملي الذي قد يفضي بصاحبه إلى الوقوع في النفاق الأكبر.

وإذ كان الأمر كذلك؛ فإن الواجب الحذر من الظلم والبعد عن أسبابه وأساليبه، فقد ثبت في الحديث القدسي الذي يرويه رسول اللَّه ﷺ عن ربه -تبارك وتعالى- أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»(٣).

والمعنى الإجمالي لهذه الأبيات الثلاثة هو: وجوب الحذر والتحذير من الفجور في الخصومة سواءً كانت دينية أو دنيوية، ووجوب الاحتساب حين الترك لذلك، فإن تارك المعصية خوفًا من عذاب اللَّه يثيبه اللَّه ثوابًا عظيما لخوفه من ربه واستحيائه منه -جل وعلا-.

كما دلَّت هذه الأبيات على بيان خطر هذا النوع من أنواع النفاق العملي وأنه من مضلات الفتن التي تفتن المكلف في دينه، وتكون سببًا في غضب ربه عليه؛ لأن المعصية تُغضِب الرحمن وتُرضِي الشيطان.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

ن:

وَنَفسَكَ احفَظهَا وَجَنِّبهَا الزَّلَل إِن رَامَتِ الظُّلمَ وَمَالَت لِلخَطَل

الشرح: في هذا البيت توجيه وإرشاد لنفسي ولإخواني المسلمين الذين أعزهم اللَّه بمعرفة مراتب الدين التي هي الإسلام والإيمان والإحسان أن يصونوا أنفسهم من دنس المعاصي، ويلجموها بلجام التقوى، سعيًا في حفظها وعتقها من النار، كما قال نبي الرحمة ﷺ: «**احفظ اللَّه يحفظك**»(١)؛ أي: احفظه بفعل طاعته وترك معصيته يجازك بحفظه لك من السوء والفحشاء والشرور في دنياك وبرزخك وآخرتك، والمراد بالخطل: الباطل والفاسد -أعاذنا اللَّه منه ومن وسائله وأسبابه-.

ومعنى البيت باختصار: أنك أيها المكلف مسئول بالدرجة الأولى عن نفسك، فلا ترضَ تقصيرًا في طاعة، أو ارتكابًا لمعصية، ومتى رأيت ميولها إلى فعل الطاعة وترك المعصية، ومحبة الخير وبغض الشر، فاحمد اللَّه الذي هداك لهذا وما كنت لتهتدي لولا أن هداك اللَّه، ومتى رأيت من نفسك ميولًا إلى الشر والفساد فازجرها فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم، واعلم أن كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها بفعل الطاعة وترك المعصية أو موبقها بعكس ذلك.

رزقنا اللَّه وإياكم نفوسًا مطمئنة تُنَادَى يوم القيامة على رءوس الخلائق تشريفًا وتكريمًا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، فيعلوها من الفرح والسرور ما لا يُقَدِّره إلا الرحيم الغفور.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس ﵄، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة اللَّه حتى يؤديها، والصبر عن معصية اللَّه حتى يتركها، والصبر على أقدار اللَّه المؤلمة فلا يتسخطها، فالصبر هو حبس النفس على ما أمر اللَّه بالصبر عليه فيه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره اللَّه، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر يستعان بها على كل أمر من الأمور، ﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية اللَّه ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحًا صدره لترقبه للثواب وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع: هو خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونَفَّس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه)[1]. اهـ

وفي معنى ما ذكر من اعتبار التخلف عن صلاة الجماعة بدون عذر شرعي لاسيما صلاة العشاء وصلاة الفجر من علامات النفاق الأصغر ما جاء عن عبد اللَّه ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من سره أن يلقى اللَّه غدًا مسلمًا فليحافظ على هذه الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإنهن من سنن الهدى، وإن اللَّه شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة

(١) (١/ ٦٠-٦١).

نبيكم، ولو أنكم تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثمَّ يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب اللَّه له بكلّ خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»(١).

وفي لفظ آخر قال: «إن رسول اللَّه ﷺ علمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى: الصلاة في المسجد الذي يؤذَّن فيه»(٢).

وحقًّا: إنه ليؤخذ من مجموع هذه النصوص التي رأيتَ ما يلي:

أ- إن العناية والاهتمام بشأن الصلوات فرائضها ونوافلها جمعة وجماعة في بيوت اللَّه الطاهرة من أجلِّ صفات أهل الإيمان.

ب - وإن تضييعها والتثاقل عن أدائها في أوقاتها، وتقديم هوى النفس الأمارة بالسوء على إقامتها، دليلٌ على وجود الإصابة بمرض النفاق العملي الذي نحن بصدد الحديث عنه، أعاذنا اللَّه وجميع إخواننا من المؤمنين والمؤمنات منه.

ج- ومن غير شك أن المُضَيِّع لها -على الوصف الذي تقدم ذكره- فاسد، ويحمل وزرًا عظيمًا، مع فوات خير كثير، وشرف كبير، يمنحه المصلون حقيقة من اللَّه العلي الكبير.

د- وأن الصلوات سهلة ويسيرة على أهل الخشوع والخشية؛ بل وراحة ولذة لقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم؛ لذا فقد كان النبي الكريم الذي يقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(٣)، ويقول: «**يا بلال، أرحنا بها**»(٤)؛ أي: الصلاة.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤). (٢) التخريج السابق نفسه.

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد (١١٨٨٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

وقد أجملت هذا التفصيل المنثور في البيتين اللذين سبق تدوينهما .

ن :

وَتَـركُ غَـزوٍ لِـلـجِـهَـادِ قَـد وَرَد نَـوعُ نِـفَـاقٍ وَكَـمَـالٌ لِـلـعَـدَد
وَمَـن نَـوَى وَلَـم يُـطِـق فَـقَـد سَـلِـم مِـن سَـخَـطِ الـلَّـهِ بِـنَـصٍّ قَـد عُـلِـم

الشرح : في هذين البيتين بيان :

٧- النوع السابع من أنواع النفاق العملي : ألا وهو ترك الغزو للجهاد في سبيل الله ، وعدم النية على الغزو متى دعا الداعي إلى ذلك ، وتوفرت شروط الغزو ، وانتفت موانعه ، فحينئذٍ يشرع الجهاد : إما على سبيل الوجوب ، وإما على اعتباره فرض كفاية أو تطوعًا ، إذا لم يزاحمه عمل هو أولى منه بالتقديم شرعًا كَبِرِّ الوالدين مثلًا ، والدليل على أن ترك الغزو في سبيل الله وعدم حديث النفس به نفاق عملي : ما رواه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : أن رسول الله ﷺ قال : «**من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق**»[١] .

وما ذلك إلا لما للجهاد من فضائل متعددة ، ومكانة رفيعة في شريعة الإسلام جاءت بذكرها نصوص كريمة تدلُّ على ذلك ، ومنها :

قول الله -تبارك وتعالى- : ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) .

وقوله -جل وعلا-: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقوله -عزَّ من قائل-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وغيرها من الآيات التي سأذكرها في مكانها المناسب.

وأمَّا الأحاديث الدالة على فضل الجهاد وشرفه العظيم فكثيرة، أذكر منها ما يلي:

- ما جاء في الصحيحين عن عطاء بن يزيد: أن أبا سعيد قال: «قيل: يا رسول اللَّه، أيُّ الناس أفضل؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **مؤمن مجاهد في سبيل اللَّه بنفسه وماله**، قالوا: ثمَّ من؟ قال: **مؤمن في شعب من الشعاب يتقي اللَّه ويدع الناس من شره**»(١).

- وما أخرجه أبو عوانة في «مسنده» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**من خير منازل الناس: حابس نفسه وفرسه في سبيل اللَّه يلتمس الموت أو القتل في مظانه، أو رجل في غنيمة له في رأس شعب من الشعاب، أو بطن واد من الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتَّى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**»(٢).

- وما أخرجه الشيخان بسنديهما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل اللَّه دعاه**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).

(٢) أخرجه أبو عوانة في مسنده (٤/ ٤٧٤) برقم (٧٣٨٣).

خزنة الجنة، كل خزنة باب: **أي فُلُ، هلمَّ**، فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه، ذلك الذي لا توى عليه؟ قال رسول اللَّه ﷺ: **إني لأرجو أن تكون منهم**»(١).

- وما أخرجه النسائي في «سننه» وغيره عن خُرَيم بن فاتك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أنفق نفقة في سبيل اللَّه، كتبت بسبعمائة ضعف**»(٢).

- وما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ: **لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة**»(٣).

وما أخرجه الطبراني بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن للشهيد عند اللَّه تسع خصال** -أو قال: **عشر خصال**: - **يغفر اللَّه له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلية الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويزوج من الحور العين، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه**»(٤).

- وما أخرجه النسائي عن راشد بن سعد رحمه الله، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: «أنَّ رجلًا قال: يا رسول اللَّه، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: **كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤١)، ومسلم (١٠٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (٣١٨٦)، وأحمد (١٨٥٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١١٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٢).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٦٦)، وأخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (١٦٧٣٠)، ولفظه: «**للشهيد عند اللَّه ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحلَّى حُلَّة الإيمان، ويُزَوَّج من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنسانًا من أقاربه**» وهذا لفظ ابن ماجه. وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢١٣).

(٥) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٢٠٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٨٣).

فهذه النصوص الكريمة من كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ تدلُّ بوضوح على فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وعلى جزيل ثوابه في دار البرزخ ودار القرار بطريقة الترغيب في الفوز بكل محبوب ومرغوب، والنجاة من كلِّ مخوف ومكروه ومرهوب.

وغير هذه الفضائل للجهاد الشرعي كثير وأدلتها من الكتاب والسنة جمٌّ غفير يراجع لها «الأفنان الندية» الجزء الرابع كاملًا.

والمعنى الإجمالي المختصر للبيتين هو: أن ترك الإسهام في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وعدم حديث النفس به، يعتبر نوعًا من أنواع النفاق العملي وبه تتم الأنواع السبعة، ويعذر من نوى الجهاد ولكنه لم يطق فهذا لا إثم عليه لحسن نيته، وعدم قدرته على الجهاد في سبيل الله، ولا يناله سخط من الله لكونه معذورًا وقد قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي كلِّ ذلك قال الربُّ: «**قَدْ فَعلتُ**»[١] كما صحّ ذلك عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومثلها في الدلالة على المطلوب قول الحق -جلَّ ثناؤه-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ومثلهما في الدلالة على المطلوب قول المصطفى الكريم: «**ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»[٢]، وقال ﷺ: «**اكلفوا من العمل ما تُطيقون، فإن خير العمل أدومُهُ وإن قلَّ**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٢٩).

فالحمد للَّه الذي رحم ضعفنا؛ فقبل منا اليسير من صالح العمل وضاعفه وتجاوز عنا في الكثير تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا ورحمة، فتبارك اللَّه أرحم الراحمين، وولي المتقين وخير الغافرين.

ن:

مُـرتَـكِـبٌ كَـبِـيـرَةً لَا يَـكـفُـرُ بِذَا أَتَى النَّصُّ الصَّرِيحُ الأَظهَرُ
تَـحتَ مَـشِـيـئَـةٍ لِـرَبِّـنَـا الـعَـلِـي مَـن شَـرَّفَ الـرُّسـلَ بِـوَحـيٍ مُـنـزَلِ
فَـمَـن يَـشَـأ رَبِّـي عَـذَابَـهُ فَـعَـل وَمَـن يَـشَـأ يَـرحَـم وَيَـغـفِـرِ الـزَّلَـل
فَـهـوَ الـغَـفُـورُ وَالـعَـفُـوُّ الأَكـرَمُ وَهـوَ الـعَـزِيـزُ وَالـحَـكِـيـمُ الأَعـلَـمُ

الشرح: المرتكب؛ أي: الواقع في كبيرة من كبائر الذنوب، وضابط الكبيرة عند أهل العلم ما اختاره ابن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال: (وأحسن ما حُدَّت به الكبائر: أن الكبيرة ما فيه حَدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة أو غضب عليه)(١).

قلت: وهذا يدرك بالتتبع والاستقراء للنصوص ويحتاج إلى جهد كبير.

وأما ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ فقد أورد أقوالًا كثيرة للمفسرين في معنى الكبيرة وعدد الكبائر عند تفسيره لقول اللَّه تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

ومن جملة ما أورده: كلام البحر ابن عباس في حد الكبائر إذ قال ابن عباس: (هي كلُّ ذنب ختمه اللَّه بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب.

ولما سئل عن عددها أجاب مرة أنها إلى السبعين أقرب منها إلى سبع، وأجاب أخرى أنها إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار)(٢). اهـ

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (١/ ٣٠١). (٢) (٤/ ٤٤).

والكبير من الذنوب قسمان :

١- أحدهما صاحبه خالد مخلد في النار : كالكفر الأكبر بجميع أقسامه ، والشرك الأكبر بكافة أقسامه .

٢- وثانيهما صاحبه على خطر ؛ إذ هو تحت المشيئة الإلهية غير أنه إن عُذِّب بالنار فإنه لا يُخَلَّد فيها كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ومعتقدهم ومنهجهم ، وذلك كالكبائر من الذنوب التي ليست كفرًا أكبر ولا شركًا أكبر ؛ بل دون ذلك كالزنا ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والقذف لمحصنة ، وشرب الخمر ، وعقوق الوالدين ، وقتل معصوم الدم من مسلم وغيره ، وما شابهها فإن هذه الكبائر من مات وهو متلبس بها أو بشيء منها غير مستحل لذلك بقلبه وهو من أهل التوحيد علمًا وعملًا ومن أهل الصلاة إيمانًا وعملًا فهو تحت المشيئة الإلهية ، إن شاء اللَّه عذبه بقدر ما جنى وأدخله الجنة ، وإن شاء عفا عنه فلم يعذبه بالنار بل أدخله الجنة ولم تمسه النار كما أسلفت قريبًا ، وهذا القول هو قول أهل السنة السابق منهم واللاحق ، كثر اللَّه سوادهم ، وأورثهم الفردوس الأعلى ، وأسأل اللَّه -جل وعلا- أن أكون رفيقهم في خير مستقر وأحسن مقيل بمنه وكرمه .

وقد رتب العلماء الذنوب من ناحية شدة العذاب المترتب عليها وصفته وذلك بحسب الجرم الذي اقترفه المكلف بدءًا بالأشد فالشديد فقالوا :

- الكفر الأكبر ، الشرك الأكبر .
- والكفر الأصغر والشرك الأصغر .
- البدع .
- الكبيرة .
- الصغيرة .

فأما الكفر الأكبر بجميع أنواعه وصوره، والشرك الأكبر بجميع أقسامه فهما موجبان للعنة وسوء الدار وبئس القرار على سبيل الخلود، وعذابهم في مزيد لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

وأمَّا الكفر الأصغر والشرك الأصغر فقد اختلف العلماء فيمن مات وهو مُصِرٌّ عليهما أو على واحد منهما، هل لابد أن يطهر بالنار بقدر ذنبه أم أنه كأهل الكبائر التي دون الشرك الأكبر والكفر الأكبر، وهم تحت المشيئة الإلهية من شاء اللَّه تعذيبه عذبه بإدخاله النار لكونه مات على الشرك الأصغر أو الكفر الأصغر بدون توبة، ومن شاء عفا عنه فلم يدخله النار أبدًا، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء وهو الغفور لمن هو أهل للمغفرة وهو الكريم صاحب الجود والكرم وهو العزيز الأعلم ذو المغفرة العظيمة والعلم المحيط بكلِّ شيء؟

قولان للعلماء قد سبق إيرادهما في فصل تقسيم الشرك، وسيأتي الكلام على حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة، وعند الخوارج والمعتزلة والمرجئة إن شاء اللَّه.

* * *

فصل

في الفرق بين الشرك والكفر وبين الكفر والنفاق -أعاذنا اللّٰه منهما-

وَقَد جَرَى الخِلَافُ بَينَ العُلَمَا ... فِي الكُفرِ وَالشِّركِ ألَا فَليُعلَمَا
فَقِيلَ بِالفَرقِ وَهَذَا الظَّاهِرُ ... إذ بِعُمُومِ الكُفرِ جَزمًا أخبَرُوا
وَقِيلَ كَلَّا بَل كِلَاهُمَا أتَى ... لِمَعنَى صِنوِهِ فَحَقِّق يَا فَتَى
وَالفَرقُ بَينَ الكُفرِ وَالنِّفَاقِ ... دَلِيلُهُ القُرآنُ بِاتِّفَاقِ
فَالكُفرُ مَا أظهَرَهُ الضُّلَّالُ ... وَحَارَبُوا اللَّهَ لَهُم أغلَالُ
وَاعتَقَدُوهُ بَاطِنًا كَالظَّاهِرِ ... بِدُونِ خَوفٍ مِن مَلِيكٍ قَاهِرِ
أمَّا النِّفَاقُ فَهوَ كُفرُ البَاطِنِ ... وَظَاهِرٌ مِنهُم كَحَالِ المُؤمِنِ
أعَاذَنَا مِنهَا الإلَهُ الوَاحِدُ ... وَالصَّمَدُ القَيُّومُ ثُمَّ المَاجِدُ

ن :

وَقَد جَرَى الخِلَافُ بَينَ العُلَمَا ... فِي الكُفرِ وَالشِّركِ ألَا فَليُعلَمَا
فَقِيلَ بِالفَرقِ وَهَذَا الظَّاهِرُ ... إذ بِعُمُومِ الكُفرِ جَزمًا أخبَرُوا
وَقِيلَ كَلَّا بَل كِلَاهُمَا أتَى ... لِمَعنَى صِنوِهِ فَحَقِّق يَا فَتَى

الشرح : هذه الثلاثة الأبيات تتضمن بيان مسألة واحدة ألا وهي :

هل الكفر والشرك مترادفان أو متباينان مع بيان القول الراجح بدليله، وقد أشرت إلى ذكر الخلاف ووجوده في البيت الأول وأشرت إلى قولي العلماء في البيتين اللذين بعده.

القول الأول لبعض العلماء : أن الكفر والشرك الذي سبق تعريفهما من قبيل المترادف، ومعنى المترادف عند الأصوليين : تعدد اللفظ مع اتحاد المعنى، وعلى هذا القول : يطلق لفظ الشرك على الكفر والعكس صحيح قاعدة مطردة.

والقول الثاني لبعضهم : وهو التفريق بين الكفر وبين الشرك، كما افترقا في

المعنى اللغوي والشرعي، فيكون الكفر أعم من الشرك لتضمنه الشرك وزيادة، إذ يعتبر الشرك أكبر شعبة من شعب الكفر، فيقال: بينهما عموم وخصوص، فالشرك أخصُّ من الكفر والكفر أعمُّ منه، وبعرض بعض الأمثلة يتضح عموم الكفر وشموله ودخول الشرك في عموم الكفر وأنه شعبة من شعبه كما تقدم.

فمثلًا: سبُّ اللَّه -جلَّ ثناؤه- وسبُّ الرسول الكريم -عليه من ربه أزكى الصلاة والتسليم-، والاستهزاء بدين الإسلام، ووضع المصحف في المزبلة إهانة له -أهان اللَّه صانعي ذلك-، وهذه المفردات لا يتناولها تعريف الشرك، ولا تندرج تحت معناه اللغوي ولا الشرعي، بخلاف اندراجها تحت معنى الكفر لكونه يتضمن معنى الشرك وأكثر، ولهذا يظهر رجحان المعنى الثاني وهو أن الكفر أعمُّ من الشرك.

وأمَّا ما يتعلق بإطلاق أحدهما على الآخر لأمر يقتضيه المقام فهو وارد وأمثلته كثيرة في القرآن، فمن إطلاق الشرك على معنى الكفر قول اللَّه -جلَّ ثناؤه- عن صاحب الجنتين: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]، فأطلق الشرك هنا على معنى الكفر.

وأمَّا إطلاق الكفر على معنى الشرك فقد مثَّل له العلماء بقول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وهذا كما سبق من باب إطلاق الكفر على بعض شُعَبِه، وقد عرفنا مما سبق أن الشرك بعض شعب الكفر العظمى.

ومن خلال هذا البحث المختصر يتضح لنا الفرق بين لفظ الكفر والشرك، وإمكان إطلاق أحدهما على الآخر.

الشرح: في هذه الأبيات:

١- بيان موجز لعقيدة ومنهج وسلوك الفرق الصوفية الغلاة الموغلون في الإلحاد والزندقة، والتي ائتمت بابن عربي الملحد الكافر الزنديق الذي أفتى بكفره أكثر من خمسين عالمًا، ولا شك ولا تردد ولا توقف أن جميع من اعتبروه إمامًا لهم في التصوف ومجدوه سواءً كانوا من المتقدمين في عصره أو من المتأخرين الذين تتلمذوا على كتبه كلهم أصحاب كفر وزندقة وإلحاد، وكم لهم من نعوت أطلقوها عليه وعلى أقرانه في الزندقة والغش للمسلمين، إذ قالوا: ابن عربي الشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر، وقالوا عن ابن الفارض الملحد: سلطان العاشقين، وقالوا عن الجيلي: إنه العارف الرباني، والمعدن الصمداني، وقالوا عن الشعراني: إنه القطب الرباني، وغير هؤلاء من زعماء الصوفية الحمير كثير.

معبود الفرق الصوفية أتباع ابن عربي ومن على شاكلته معبودهم الكون بأسره، لا يؤمنون بالرب العظيم؛ بل عندهم العبد رب والرب عبد، فهل بعد هذا الإلحاد إلحاد يساويه؟! وهل بعد هذا الكفر كفر؟!

الجواب: «لا» إنه كفر يفوق كفر اليهود والنصارى والمجوس وعباد البقر والفروج، قاتلهم اللَّه وأصلاهم نارًا حرها شديد وقعرها بعيد وطعام أهلها الزقوم، وشرابهم المهل والصديد، وعذابهم أبدًا في مزيد.

الصوفية كما أسلفت فرق هالكة متعددة، وطرق سميت بأسماء أصحابها متنوعة وتجمع في العقيدة على اعتقاد وحدة الوجود عقيدة الملحد ابن عربي ومن على معتقده ومنهجه، وكفى بذلك كفرًا على وجه الأرض فاق كفر جميع الكافرين باللَّه ورسله، **وأما عباداتهم وأذكارهم التي يمارسونها فهي**:

الذكر الشيطاني المنحرف الذي لا يقره الإسلام ولا المسلمون كما أوضحت ذلك في الأبيات المنظومة.

السماع ومعه الرقص وما يصحب ذلك من ادعاء الكشف والجذب والمعاريج.

الخضوع لمشايخهم والتأدب معهم كمثل الميت مع المغسل.

وغير ذلك مما هو مسطر في المؤلفات التي اهتم مؤلفوها لبيان عقائد ومنهاج الفرق الهالكة، ومنها أصحاب الطرق الصوفية الملحدة أتباع ابن عربي ومن على شاكلته من الزعماء الفجار والأتباع الأغرار، وقد بينتُ ما ترى أيها القارئ من عقائد هذه الفرقة كالقول بوحدة الوجود؛ أي: إن الكون كله إله واحد فالعبد ربٌّ والربُّ عبد - قاتلهم اللَّه أنى يؤفكون!

٢- بيان عباداتهم وذكرهم الخاص بهم ألا وهو إنشاد القصائد المملوءة بالشرك والفجور والتلذذ بسماعها ومع الإنشاد دقُّ الطبول والرقص المرذول.

ومن أراد الاطلاع على مصرع التصوف فليقرأ الكتب التالية أسماؤها:

أ- الجزء الحادي عشر من فتاوى ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

ب - الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التأريخ لمؤلفه محمود عبد الرءوف القاسم.

ج- هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل.

د- الرد الأوفر على فقه الشيخ الأكبر لعبد القادر السندي.

وإنني -بحمد اللَّه- لم أنظم هذه المعلومات في هذه المنظومة التي سميتها الفروق إلا بعد قراءة جادة لكتب تعتبر مراجع صادقة وموثقة من مؤلفيها -رحمهم اللَّه وأكرم نزلهم-، وقد تعودت من فضل اللَّه عليَّ أنني لا أكتب إلا في حدود ما أعلم، وذلك في جميع مؤلفاتي المنثورة والمنظومة، وذلك أمر واجب عليَّ وعلى كل من كتب للناس علمًا لينتفعوا به، وأسأل اللَّه أن يرزقنا جميعًا الصدق والصواب والإخلاص والقبول؛ لأن كل كاتب سوف يُسأل عمَّا كتب،

كما قال الأول :

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويُبقِي اللَّهُ ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

وقد أضفتُ إليهما :

ولا تسمح لنفسك طرف عين ... تقص اللهو أو ترضى خناه
فتلقى في القيامة يوم حشر ... عذابًا مؤلمًا تصلى لظاه
وعتق النفس فابذل كل حين ... لتحظى بالنعيم ومنتهاه
ضعيف العقل لا تشغلك دنيا ... عن المولى تعالى في علاه
وبادر بالفلاح كمثل قوم ... تواصوا مخلصين لمن رضاه
من الغايات يطلبه لبيب ... حصيف العقل يرجو ما نواه
ويسعى جاهدًا لينال ذخرًا ... وعند الله ذخر لا سواه

ن :

وَفِرقَةُ التَّفوِيضِ نَهجُهَا خَطَر ... وَلَازِمُ القَولِ لِفِكرِهِم ظَهَر
بِتُهمَةِ الرَّسُولِ بِالكِتمَانِ ... أو جَهلِهِ المَقصُودَ بِالمَعَانِي
كِلتَاهُمَا بِقَادِحِ الزُّورِ أَتَت ... تَقدَحُ فِي الدِّينِ فَبِئسَ مَا جَنَت
وَتَفتَحُ البَابَ لِكُلِّ مُلحِدِ ... يُرَوِّجُ الأَمرَ بِسُوءِ المَقصِدِ
يَقُولُ لِلنَّاسِ تَعَالَوا وَاعلَمُوا ... أَنَّ أَخَا التَّفوِيضِ حَبرٌ أَحكَمُ

الشرح : هذه الأبيات الخمسة فيها بيان عقيدة المفوضة وهم الذين : يفوضون علم معاني الصفات إلى اللَّه في زعمهم ويدَّعون أن هذا هو مذهب السلف.

والحق أنَّهم ضلوا فيما ذهبوا إليه وكذبوا على السلف فيما نسبوه إليهم، فإن السلف لَم يفوضوا علم المعنى، وإنما يفوضون علم الكيفية فقط، فقد تواترت

النقول عن السلف بإثبات معاني نصوص الصفات إجمالًا وتفصيلًا.

فمن الإجمال قولهم: «أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف».

ومن التفصيل: ما ثبت عن الإمام مالك وشيخه ربيعة في الاستواء: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

وقد رد الإمام ابن تيمية على انحراف المفوضة بقوله: (وأما التفويض فمن المعلوم أن اللَّه أمرنا بتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله).

إلى أن قال: (فعلى قول هؤلاء «المفوضة» يكون الأنبياء والمرسلون لا يعلمون معاني ما أنزل اللَّه عليهم من هذه النصوص، ولا الملائكة ولا السابقون الأولون، وحينئذٍ فيكون ما وصف اللَّه به نفسه في القرآن أو كثير مما وصف اللَّه به نفسه لا يعلم الأنبياء معناه؛ بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء، إذ كان اللَّه أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدى وبيانًا للناس، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه هو ما أخبر به الرب عن صفاته، أو عن كونه خالقًا لكل شيء وهو بكل شيء عليم، أو عن كون أمر ونَهي ووعد وتوعد، أو عما أخبر به عن اليوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يعقل ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بَيَّن للناس ما نزل إليهم ولا بلغ البلاغ المبين.

وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته

---

(١) أورده اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٣٩٨) (٦٦٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» (١/ ١١٦).

برأيي وعقلي؛ وليس في النصوص ما يناقض ذلك لأن تلك النصوص مشكلة متشابِهة ولا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به. فيبقى هذا الكلام سدًّا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء وفتحًا لباب من يعارضهم ويقول: إن الهدى والبيان في طريقنا لا في طريق الأنبياء لأنا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالأدلة العقلية، والأنبياء لَم يعلموا ما يقولون فضلًا عن أن يبينوا مرادهم، فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنَّهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[1]. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلت: وإذ كنت قد عرفت فيما تقدم تدوينه براءة أهل السنة والجماعة من انحراف هذه الفرقة الهالكة فيما يتعلق بباب الأسماء والصفات وغيرها مما تقدم تدوينه، فلتعلم يا أخي المسلم أنهم أشد براءة من كل كافر ومشرك وملحد وزنديق من الذين ألحدوا في آيات اللَّه واتخذوا سبيل الغي سبيلًا منهم من تقدم ذكرهم، ومنهم من سيأتي الحديث عنهم إن شاء اللَّه تعالى.

ن:

وَفِرقَةٌ لِلوَقفِ مَالَت فَهَوَت ... فِي حُفرَةِ السُّوءِ فَسَاءَ مَا أَتَت

مَوقِفُهَا سَلبِي وَتَعطِيلٌ خَفِي ... فَهَل عَلِمتَ مَا عَلَيهِ الخَلَفِي

الشرح: في هذين البيتين بيان فكر الفرقة «الواقفة» وقد سميت بهذا الاسم لقولهم: لا نقول القرآن مخلوق ولا غير مخلوق.

وقد سئل عنهم الإمام أحمد فقال: هم شر من الجهمية.

كما دلَّ البيتان: على أن التوقف عن القول بأن القرآن كلام اللَّه يعتبر موقفًا سلبيًا وتعطيلًا خفيًا لهذه الصفة العظيمة ألا وهي القرآن الذي هو كلام اللَّه

---

(١) انظر كتابه القيم «درء تعارض العقل والنقل» المعروف باسم «العقل والنقل» (١/ ١٦) المطبوع على هامش «منهاج السنة» (١/ ٢٠١)، تحقيق رشاد سالم رَحِمَهُ اللَّهُ.

حروفه ومعانيه، -وسوره وآياته، وجمله وألفاظه، كلها كلام اللَّه حقًّا، فلا موجب للتوقف عن التصريح بهذا القول السلفي، ولا يخالفه فيتوقف عنه إلا الخَلَفي، والخلفي -والياء فيه ياء النسب- فهو منسوب إلى الخلف الذين يخالفون السلف مخالفة كليَّة أو جزئية.

ن:

وَفِرقَةُ التَّخيِيلِ كُفرُهَا ظَهَر ... بِنَبزِهَا الهَادِي النَّبِيِّ المُعتَبَر
تَقُولُ جَهرًا إِنَّهُ لَا يَعلَمُ ... حَقِيقَةَ الأَمرِ كَذَا لَا يَفهَمُ
وَفِرقَةُ التَّأوِيلِ تَتبَعُ الهَوَى ... زَيَّنَهُ الشَّيطَانُ جَالِبُ الغَوَى
تَتَّهِمُ الرَّسُولَ بِالكِتمَانِ ... وَعَدَمِ الإِيضَاحِ لِلمَعَانِي
وَفِرقَةُ التَّجهِيلِ أَمرُهَا عَجَب ... أَتَت بِقَولٍ قَد خَلَا مِنَ الأَدَب
لَهُ مَسَاسٌ بِالنُّصُوصِ المُحكَمَه ... وَلَيسَ مَقبُولًا وَلَستُ مُكرِمَه

الشرح: هذه الستة الأبيات تضمنت البيان عن معتقد ومنهج ثلاث فرق من فرق الضلال، الفرقة الأولى: أهل التخييل، والفرقة الثانية: أهل التأويل، والفرقة الثالثة: أهل التجهيل، وكلها فرق منحرفة ومشاقة لرسول اللَّه ﷺ وسبيل المؤمنين، وبعضها أشد غلطًا من بعض، وقد تحدث ابن تيمية الإمام الجامع بين علمي النقل والعقل والجامع القول والفعل والعمل، إذ هو المجدد حقًّا لا من يُدَّعى له التجديد وليس بمجدد.

تحدَّث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفرق المنحرفة ومنها هذه الفرق الثلاث وخلاصة ما قال عن معتقداتها الفاسدة ومناهجها المنحرفة:

(والمنحرفون عن طريق المؤمنين فهم ثلاث طوائف: أهل التخييل) ثم قال: (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف)، ثم ذكر مقالاتهم فقال: (فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول ﷺ من أمر الإيمان باللَّه واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق ينتفع بها الجمهور، لا أنه بين به الحق

ولا هدى به الخلق ولا أوضح الحقائق)[١].

ثم هم على قسمين: منهم من يقول: إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه ومن الفلاسفة من علمها.

ومنهم من يقول: إن الرسول علم الحقائق ولكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها.

وانتهى به الكلام إلى أن هذه الفرق باطنية ملاحدة.

وإذ كان الأمر كذلك؛ فلا شك في كفر من اعتقد تلك الاعتقادات الفاسدة والاتجاهات المنحرفة.

وأما أهل التأويل فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها؛ بل أراد منهم أن يعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدون في صرف النصوص عن مدلولها، وأئمة هذه الفرقة هم المعتزلة الذين سبق الحديث عنهم وعن عقائدهم الفاسدة، والمتكلمة الذين لا علم لديهم بعلوم الشريعة؛ لأنهم لم يطلبوه ولم يأخذوه عن أهله فضلوا وأضلوا وضل معهم من دخل معهم.

وأما أهل التجهيل: **فيقول الإمام ابن تيمية**: (فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف، يقولون: إن الرسول ﷺ لم يكن يعرف معاني ما أنزل الله عليه من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني تلك الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك، وكذلك قولهم في أحاديث الصفات أن معناها لا يعلمه إلا الله، مع أن الرسول تكلم بهذا ابتداء، فعلى قولهم: تكلم الرسول بكلام لا يعرف معناه). اهـ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣١).

وذكر كثيرًا من انحرافاتهم وبيَّن أخطاءهم فيما استندوا إليه للاستدلال به[١].

أقول: ومما يحسن ذكره ويجمل إيراده عقب ضلالات تلك الفرق الثلاث موقف السلف الصالح وأتباعهم إلى يوم الدين في باب بعثة الرسول الكريم وفوائده الجليلة، فهم يؤمنون بالبعثة الميمونة وبفوائده التي لا توجد في سواها وبآثارها المجيدة، كيف لا وهي بعثة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق إلى عالم الإنس وعالم الجن؟!

وهم المؤمنون بكل ما جاء نبي الرحمة والهدى من شرع اللَّه المطهر أصولًا وفروعًا ومكملات، فهم حملته وهم مُبَلِّغوه وموروثه ووارثوه؛ أي: يرث السلفيُّ السلفيَّ علمه الصافي النقي من كل شائبة من شوائب الباطل والانحرافات وفقههم العظيم وهديهم المستقيم ولم يغيروا ولم يبدلوا وحاشاهم؛ لذا فقد أتبعت تلك الستة الأبيات في وصف تلك الفرق الثلاث بالبيتين التاليين فقلت:

وَلْيَعْلَمِ الأَوَّابُ أَنَّ السَّلَفَا ... حُبُّهُمُ دِينٌ وَبُغْضُهُم جَفَا
هُمُ الهُدَاةُ الغُرُّ فَاسلُك دَربَهُم ... تَغدُو رَفِيعَ القَدرِ يَا ذَا مِثلَهُم

مشيدًا فيهما بالسلف الكرام، ومعلنًا وجوب محبتهم على كل مسلم ومسلمة، ومحذرًا من بغضهم أو بغض واحد منهم، وواصفًا لهم بما هم أهل له من الحرص على هداية الخلق وجمال الظاهر والباطن، وموصيًا كل قارئ وسامع بسلوك دربهم ولزوم منهجهم، فإن من سلك دربهم ونهج نهجهم رفع اللَّه قدره وأصلح شأنه كما قلت محذرًا من اتباع مخالفيهم عمومًا ومن الإخوان المسلمين وفرقة التبليغيين خصوصًا:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٤).

ن:

يَا وَيحَ مَن يُدعَى لِتَنظِيم عُرِف ... بِمَنهَجِ الإِخوَانِ أَجلَى مَا عُرِف
بِالمَنهَجِ السِّرِّيِّ حَقًّا يُعلَمُ ... فَاحذَرهُ تَغنَم وَانتَبِه يَا مُسلِمُ
كَم حَدَثٍ غِرٍّ قَد أَضحَى مُفلِسَا ... فِي خَندَقِ الإِخوَانِ يُمسِي فِي أَسَى
وَبَيعَةٍ وَإِمرَةٍ وَمَرتَبَه ... وَكُلُّهَا وَهمٌ كَذَاكَ المَنقَبَه
لَهُ دُعَاةٌ يَعمَلُونَ فِي الخَفَا ... فِي مَهبِطِ الوَحيِ وَأَرضِ الحُنَفَا
يُؤسِفُنَا حَقًّا عَظِيمَ الأَسَفِ ... صَنِيعُهُم هَذَا بِأُسلُوبٍ خَفِي
وَمَن تَصَدَّى لِبَيَانِ أَمرِهِم ... قَالُوا عَمِيلٌ لِوَلِيِّ أَمرِهِم
وَغَيرُ هَذَا مِن هُجُومِهِم عَلَى ... خَيرِ الدُّعَاةِ وَالهُدَاةِ النُّبَلَا
وَقَولُهُم عَنهُم ضِعَافٌ سُذَّجُ ... فَاحذَرهُمُ يَا صَاحِ هَذَا المَنهَجُ
وَكُلُّ أَمرٍ مُحدَثٍ لَهُ سَبَب ... زَيَّنَهُ الشَّيطَانُ جَالِبُ العَطَب
وَسَبَبُ التَّنظِيمِ هَذَا الوَافِدِ ... وَكَونُهُ سِرًّا خَفِيُّ المَرصَدِ
هُوَ الغُرُورُ وَالأَمَانِي الخَائِبَه ... لِتُنشَرَ الفَوضَى وَتُخزِي العَاقِبَه
وَقِلَّةُ الفِقهِ وَسُوءُ المَقصِدِ ... فَعَنهُمَا حَدَّث بِلَا تَرَدُّدِ
كِلَاهُمَا شَرٌّ وَفِتنَةٌ طَغَت ... مِن شَهوَةٍ أَو شُبهَةٍ قَدِ انطَلَت
عَلَى ضِعَافٍ فِي العقولِ السُّذَّجِ ... مَن قَلَّدُوا فِعلًا دُعَاةَ المَنهَجِ
مَن قَالُوا يَا قَومُ تَعَالَوا نَحوَنَا ... نَسعَى جَمِيعًا لِنَلُمَّ شَعثَنَا
لِنَتَّفِق فِيمَا عَلَيهِ نَتَّفِق ... وَنُسقِطُ النُّصحَ لِئَلَّا نَفتَرِق
وَحِينَمَا بَانَ الطَّرِيقُ الأَقوَمُ ... عَادَ القَلِيلُ مِنهُمُ فَلتَفهَمُوا
لِمَنهَجِ الأَسلَافِ أَنصَارِ الهُدَى ... فَاشكُرهُمُو يَا صَاحِ تَنجُ مِن رَدَى

الشرح:

هذه الأبيات تتعلّق بالحديث عن جماعة الإخوان المسلمين المعدودة من الفرق المبتدعة، وقد كتبتُ عن هذه الجماعة في كتب متعددة ومطبوعة

ومتداولة في العالم، ومنها «الأجوبة السديدة عن الأسئلة الرشيدة» في الجزء الثالث والجزء الخامس، وفي «الأجوبة المختصرة على الأسئلة العشرة»، و«أسباب استقامة الشباب وبواعث انحرافهم»، و«العقد المنضَّد الجديد في الإجابة عن مسائل في الفقه والمناهج والتوحيد» الجزء الأول، و«قطوف من نعوت السلف»، وكانت كتابتي متنوعة تارة على سبيل الاختصار، ومرة على طريقة التوسط، وتارة أخرى على سبيل التفصيل والتوسع في البيان، لتحذر البدع، ويُجانب أهلها، وحسبي هنا ما ذكرته في أبيات المنظومة، بيد أني سَأُضيف المآخذ التي أخذها أهل السنة على فرقة جماعة الإخوان المسلمين، وقصدي مما مضى ومما أدونه الآن البيان للحق، والدعوة إليه للعمل به، والبيان لما يضاده من شركيات وأمور محدثات يضل بها المسلم عن سواء السبيل فإلى المآخذ:

١- **عدم العناية والاهتمام بعلم عقيدة التوحيد**، سواءً كان ذلك في باب توحيد الألوهية المسمى بتوحيد القصد والطلب، أو في باب الأسماء والصفات المعروف عند علماء التوحيد بتوحيد المعرفة والإثبات، والدليل على ذلك ما وقع فيه كثير من قادة هذه الجماعة من الخطأ في هذين البابين وفي غيرهما من الأمور الَّتِي لا تشكل على طالب المرحلة المتوسطة في نظام التعليم الحالي، فهذا قائل منهم يقول مخاطبًا رسول اللَّه ﷺ وهو قرب المنبر النبوي الشريف في طيبة الطيبة:

يا سيدي يا حبيب اللَّه جئت إلى ... أعتاب بابك أشكو البرح من سقمي
يا سيدي قد تَمادى السقم في جسدي ... من شدة السقم لَم أغفل ولَم أنم

وهذا صنيع مخالف لما أرشد إليه القرآن الكريم حيث قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وغيرها من النصوص في هذا المعنى كثير، وكلها تدل على أن شفاء المرض، ودفع الكروب، وقضاء الحاجة، لا يجوز طلبها من الخلق، وإنَّما تطلب من خالق الخلق وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ولَم ينقل مثل هذا التصرف عن شخص واحد من أهل السنة والجماعة - السلف وأتباعهم- عبر تاريخ زمانِهم وتعدد أماكنهم، وما ذلك إلا لتمكنهم من الفهم الصحيح لنصوص عقيدة التوحيد، والفهم الحق لضروب الشرك وصوره المتعددة الظاهرة والخفية.

ويقول آخر من قادة الإخوان - هدانا اللَّه وإياهم- وهو يرد على السلفيين ما نصه: «فلا داعي إذن للتشدد في النكير على من يعتقد في كرامة الأولياء واللجوء إليهم في قبورهم الطاهرة والدعاء فيها عند الشدائد».

ويقول أيضًا: «فما لنا وللحملة على أولياء اللَّه وزوارهم والداعين عند قبورهم»[(١)]. اهـ

أقول: إن هذا الإنكار العجيب في هذا التعبير الغريب ليدل بجلاء للقراء الفضلاء على الجهل الفاضح بأصل الأصول من دين اللَّه البين الواضح؛ إي واللَّه، إن هذا الإنكار على علماء السلف لزلة عظيمة تخالف من على الحق سلف، وتفتح بابًا عظيمًا للدخول في الشرك الذي يجب أن تسد أبوابه وتغلق مداخله، وتقطع وسائله وأسبابه، في كل زمان ومكان عمومًا، وفي الأماكن التي فشا في أهلها الشرك والبدع خصوصًا كما هو الحال في العالم الإسلامي اليوم إلا من رحم اللَّه من عباده، لقد وقع كثير من الناس في معظم بلدان العالم

---

(١) «شهيد المحراب، عمر بن الخطاب» لعمر التلمساني (ص٢٢٦) و (ص٢٣١) بواسطة وقفات مع كتاب «للدعاة فقط» لمحمد بن سيف العجمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

في تقديس القبور وتشييدها ببناء القباب عليها والغلو في أهلها كل بحسب هواه وما زينه له شيطانه وأملاه، ولا غرابة أن يكون هذا من عوام الناس ورعاعهم إذ قد وقع في الغلو والتقديس قوم ادعيت لهم الإمامة في العلم والفتوى والقيادة في الدعوة والجهاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويعتبر قائد آخر من قادة تلك الجماعة أن العقيدة الأشعرية والماتريدية هي العقيدة السلفية التي أجمعت الأمة على صحتها وصوابِها، بينما يعتبر علماء السلف أصحاب العقيدة الأشعرية المعروفة قد ضلوا في كثير من أبواب العلم لاسيما في باب الصفات الإلهية والإيمان والقدر والنبوات وأفعال المخلوقات وغير ذلك مما سبق لي تدوين شيء منه في كتاب آخر.

وعليه -يا أخا الإسلام-: فإن تقرير هذا القائد المُنَظِّر والمؤلف المُكثِر يعتبر منكرًا من القول وزورًا لا يجوز أن يُتابع عليه أو يُقتدَى به في شيء من ضلالاته وانحرافاته، ومن أراد منهج الدعوة الحق فعليه أن يترسم خطا أئمة السلف الذين لا مستند لهم في عقيدتهم ومنهج دعوتهم وجهادهم وجميع علومهم إلا كتاب ربِّهم وسنة نبيهم ﷺ، واسمع إلى شاعرهم الموهوب حافظ ابن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ما العلم إلا كتاب اللَّه أو أثر ... يجلو بنور هداه كل منبهم
ما ثم علم سوى الوحي المبين وما ... منه استمد ألا طوبى لمغتنم

وقبله أنشد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ:

دين النَّبِي محمد أخبار ... نعم المطية للفتى آثار
لا ترغبنَّ عن الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نَهار
ولربَّما جهل الفتى أثر الهدى ... والشمس بازغة لَهَا أنوار

ومنهم قادة آخرون كثر خفي عليهم كفر الشيعة الإمامية الاثني عشرية

الجعفرية الرافضة، ومنهم الخميني الشيعي الرافضي المتعصب صاحب السياسة السبئية، مما جعلهم يعترفون بأخوتهم للمسلمين في الدين ويتهمون من يكفرهم من الراسخين في العلم بالسذاجة وقلة البضاعة في العلم وسوء التصرف في منهج الدعوة إلى اللَّه، وغير ذلك من الصفات الذميمة الَّتي يعلم اللَّه من هم أحق بها وأهلها، أَهُم قادة الإخوان وأتباعهم، أم السلفيون وأتباعهم؟!

٢- سقوطهم[١] في حمأة البدع الَّتي سماها نَبِيُّ الهدى ﷺ: «**ضلالة**».

ومنها:

أ- بدعة الحزبية:

إن مما لا شك فيه عند أهل العلم الداعين إلى اللَّه على علم وبصيرة أن هذه الأحزاب والجماعات والمنظمات الإسلامية بوضعها الحالي من البدع المحدثة التي لَم يسبق لها مثيل في تاريخ الدعوة والدعاة من علماء السلف وخُدَّام السنة وحراس العقيدة السلفية، ومن كان في شك - بسبب داء الحزبية - مما أقول فليجمع بين يديه كتب سلفنا الصالحين، وليضع بين عينيه وفي قلبه تاريخ حياتهم العلمية والعملية، وليجلس بين يدي من آتاهم اللَّه علمًا وبصيرة لاتباعهم كتاب ربِّهم، واقتدائهم بسنة نبيهم ﷺ، وسيرهم على منهاج السلف من علماء ربانيين، وفقهاء محققين ومحدثين بارعين ناجحين، ودعاة صالحين ومصلحين، فإن من فعل ذلك ابتغاء مرضاة اللَّه وطلبًا للحق ليعلمه ويعمل به فقد أراد اللَّه به خيرًا، وسوف يبصر الطريق كما أبصر سلفه الصالح، ويقف في مواضع ما وقفوا.

أولئك آبائي فجئني بِمثلهمُ إذا جمعتنا يا جرير المجامع

حقًّا -يا أخي المسلم-: إن التحزب[٢] بأساليبه ونظمه ومناهجه المعاصرة،

(١) أي: من جملة المآخذ.

(٢) لقد سلك جماعة الإخوان - هداهم اللَّه - مسالك متعددة لإقناع طلاب العلم بصحة تعدد الجماعات والمنظمات، ومنها: =

تشقيق لجماعة المسلمين، وتشطير للصف المسلم، بسبب تعدد ألقابه ومنظماته وجماعاته، ومن ثَمَّ - وهو الأخطر - اختلاف اتجاهات تلك الجماعات والمنظمات في كثير من أصول الدين ومنهج الدعوة التوقيفي، مما سبب الضرر الديني والدنيوي على الدعوة والداعية؛ بل وعلى عامة المسلمين.

وإذ كان الأمر كذلك - ولا إخالك تجادل وإن جادلت فبالباطل تجادل - فاحذر يا طالب العلم ويا محب الخير لنفسك أو لغيرك التحزب مع أي جماعة ذات اسم أو رسم أو منهج أو طريقة قد خالف فيها مؤسسوها وأتباعهم شيئًا من منهج شرع اللَّه، ومن صفات حزبه المفلحين وجماعة المسلمين السائرين على الشرع الشريف الأقوم، والطريق النبوي الأسلم والأحكم، واعتبر نفسك فردًا من أفراد إخوانك المسلمين كافة، وليس من لازم طلب الإصلاح لنفسك أو الإصلاح لغيرك أن تكون منتميًا إلى حزب معين أو جماعة أو منظمة من تلك الأحزاب والمنظمات الَّتي لَم يتم تأسيسها على منهج الحق والصواب الذي تشهد له نصوص السنة، ومحكمات الكتاب.

= أ- قولهم: إن هذه الجماعات المتعددة كلها متفقة في الأسس الدعوية والغاية من الدعوة ولَم تختلف إلا في الأساليب والوسائل.

ب- ومنها قولهم: إن الدعوة إلى اللَّه إن لَم يكن لها تنظيم كوحدة المنهج وآمر ومأمور ونحو ذلك فلن يكتب لها النجاح.

وأقول: هذه مغالطة بَينة لكل طالب علم متبصر يعرف مواطن الوفاق والخلاف إذ لو كان الأمر كما قالوا: لما رأيت تعددًا ولا خلافًا يذكر، ولما حصل نقد وتوجيه وأخذ ورد ورفض، قال صفي الرحمن المباركفوري في كتابه «الأحزاب السياسية في الإسلام» (ص١٩): «إن تعدد الأحزاب في أي مجتمع يعني أن هناك أمورًا اجتماعية تتعارض فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الآراء بحيث لا يمكن الوصول إلى نقطة يقتنع بِها الجميع، بل إن ما يراه أحد الأحزاب خيرًا يراه الآخر شرًا، وما يراه أحدها سعادة يراه الآخر شقاء»، وقال سليم الهلالي في كتابه «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة» (ص٣٢): «وهذه الجماعات المتعددة لو كان ما تدعيه صحيحًا من أنها جميعًا على الكتاب والسنة لما تفرقت لأن الحق واحد لا ثاني له، وتعددهم هذا دليل قاطع على اختلافهم، واختلافهم ناتج عن تعلق كل فرقة بحبل غير حبل الأخرى، حينئذٍ لابد من التفرق والاختلاف والتدابر».

هذا -يا أخي المسلم-، وكم للحزبية والدخول في الجماعات والمنظمات المعاصرة من ضرر ديني ودنيوي، لاسيما في الدول المسلمة الَّتي واليها مسلم وله نوابه في القضاء بالشرع والسلطة التنفيذية والدعوة إلى اللَّه، وغير ذلك من الأمور الَّتي يتم توظيفها في الدولة الإسلامية، وهذه بعض الأمثلة الَّتي تجسد مضار الحزبية وتعدد الجماعات والمنظمات:

١- التنكر من ذوي الأحزاب والجماعات والمنظمات لغيرهم ممن لَم يكن من أهل حزبِهم أو جماعتهم مهما كان خلقه ودينه وصلاحه كما صرح بذلك أحد زعماء الإخوان «جاسم المهلهل» في كتابه «للدعاة فقط»[1] حيث قال: «بل دعوة الإخوان ترفض أن يكون في صفوفها أي شخص ينفر من التقيد بخططهم ونظامهم، ولو كان أروع الدعاة فهمًا للإسلام وعقيدته، وأكثرهم قراءة للكتب، ومن أشد المسلمين حماسة، وأخشعهم في الصلاة».

ونقول لجاسم - هداك اللَّه -: لو أنك اطلعت على قول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لما أقدمت على تدوين هذا البيان، يقول ابن تيمية عن العلماء والمربين: (وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا في موافقته في كل ما يريده، وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه؛ بل هذا من جنس فعل جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليًّا، ومن خالفهم عدوًّا بغيًا)[2].

حقًّا لقد سبق ابن تيمية بالرد على جاسم المهلهل وزملائه وأتباعهم كل من كتب ردًّا عليهم ابتغاء وجه اللَّه ونصرة للحق ورحمة بالخلق، فالحمد لله الذي جعل على الحق نورًا وجعل له أنصارًا وقبولًا ممن أراد اللَّه بِهم خيرًا فرضوا باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا وفي الحديث: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل**

---

(١) (ص١٢٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٨/ ١٦).

الجاهلين»[١].

٢- الفرقة الماحقة التي سببها عدم اقتناع كل جماعة بما عند الأخرى من الأفكار والمناهج، وأن كل جماعة ترى أحقية ما هي عليه بخلاف غيرها من الجماعات والأحزاب والمنظمات وهكذا.

٣- الوقوع في أدواء - جمع داء- كثيرة، من الهمز واللمز والسخرية والأحقاد والإحن من جماعة لأخرى، ومن حزب لحزب، وقد نَهى الشرع الإسلامي المسلمين عن ذلك كله في كثير من نصوص الكتاب والسنة، غير أن أهل البدع يُبْغَضُون بقدر ما لديهم من بدع وانحرافات كما هو منهج السلف - رحمهم الله-.

٤- التفكك حتى في الأسرة الواحدة أو المؤسسة الواحدة التي توجد فيها هذه الانتماءات.

٥- التأثير الواضح على الدعوة إلى اللَّه الَّتي لا غنى للبشرية عنها في كل زمان ومكان.

٦- الصد عن معرفة الحق والانتصار له، والتعصب للباطل والوقوف مع أهله جهلًا بِهما وبالأمور المؤدية إلى كل منهما.

٧- التأثير الملموس على قانون الأخوة الإيمانية، وحكم الولاء والبراء في اللَّه تعالى، وهذه الأمثلة تعتبر غيضًا من فيض.

وقد عقد الشيخ بكر أبو زيد فصلًا مستقلًا لبيان الأضرار الحزبية على جماعة المسلمين في كتابه «حكم الانتماء»[٢] ذكر فيه إحدى وأربعين مضرة وآفة، فليرجع إليه كل طالب علم ليفيد منه علمًا وحكمة وبصيرة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٠٩)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٥٦)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٢/ ٧٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩).

(٢) انظر «حكم الانتماء» ص١٣٥-١٥٢).

٨- ومنها بدعة البيعة الَّتي فرضها قادة الإخوان المسلمون وجعلوا لها عشرة[١] أركان، وهذه البيعة الَّتي يرى قادة الإخوان وأتباعهم وجوبها على كل فرد من أفراد الجماعة، بل وعلى غيرهم، يحتمل أن تكون للخليفة المجهول، ويحتمل أن تكون لمن تبوأ منصب الإرشاد العام للإخوان حيث قال حسن البنا: «أيها الإخوان الصادقون، أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها»[٢].

وقال سعيد حوى بعد أن أثنى على المرشدين حسن البنا والهضيبي: «وإن لخليفة الاثنين في أعناقنا لبيعة»، وهم يسمونَها بيعة على البر والتقوى، كمثل بيعة شيوخ الصوفية الَّتي سموها بأسماء مبتدعة ما أنزل اللَّه بِها من سلطان من عهد وعقد وميثاق ونحوها.

وأما السلف الصالح: فإنَّهم يعتبرون بيعة الإخوان المسلمين، وبيعة الصوفيين من البدع المحدثة في الدين، لأن الداعين إليها لا يستندون إلى دليل من كتاب أو سنة أو عمل خليفة راشد أو عمل صحابي جليل أو إلى إمام من أئمة الحديث والفقه، وإن لها لآثارًا سيئة على جماعة المسلمين أشهرها:

أولًا: حدوث الفوضى بين الناس بسببها، إذ من المسلَّم به أن أفراد كل جماعة استقلت بلقب ومنهج سيدعون إلى بيعة زعيمهم، وإلى الالتزام بالوفاء بِما تتم عليه تلك البيعة المحدثة جملة وتفصيلًا، وحينئذ سيحل الشقاق محل الوئام، والخلاف محل الوفاق، وذلك بسبب تعدد الجماعات والبيعات.

ثانيًا: جعل شباب الأمة في حيرة من أمرهم بحيث لا يدري الواحد منهم أو الجماعة إلى أي جماعة ينتمون ولا أي زعيم يبايعون.

ثالثًا: أنه ينتج عن هذه البيعة التباغض والتدابر والفرقة، وهذه أمور نَهى

---

(١) انظر «رسالة التعاليم» لحسن البنا (ص٣)، و«المدخل لدعوة الإخوان» لسعيد حوى (ص٣٠).
(٢) المصدر السابق نفسه.

عنها دين الإسلام في غير ما آية وحديث.

رابعًا: في هذه البيعة الإخوانية تشبه واضح بالطرق الصوفية -كما أسلفنا- وإحياء لخرافة الشيخ والمريد في مصطلحاتِهم.

خامسًا: أنَّها قد تحمل قادة الجماعة ونوابهم على منع أتباعهم من الجلوس إلى غيرهم من أهل العلم الذين ليس لهم انتماء ولا مؤازرة للجماعة على أساس منهجهم المُحدَث.

سادسًا: إنه ليكفي في شؤم البيعة المذكورة - بأي اسم سميت- وبطلانِها أنَّها بدعة محدثة مردودة على أهلها لحديث: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[1]. ولحديث: «. . . . **وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[2] ألا فهل من مُدَّكر؟!

إذا عُلِم ما دونته في هذه الفقرة وهو معلوم قبل هذا عند علماء السلف وأتباعهم، فاعلم - حفظك اللَّه ورعاك -: أن البيعة الشرعية في ديننا الحنيف هي بيعة تنعقد بِموافقة أهل الحل والعقد من الأمة المسلمة، كما حصل في عهد الخلفاء الراشدين، ومن سار على نَهجهم ممن ولاه اللَّه أمر الأمة الإسلامية كلها أو بعضها ولو في جزء من أرض اللَّه لَم يستطع أن يتجاوزه إلى غيره، وكذا من حصل على الإمامة أو الإمارة بطريق المصاولة والغلبة، واستقر له الأمر وأصبح ذا سلطان وقوة وشوكة، واتجه إلى السعي في إصلاح الدين والدنيا بحيث يقيم الحدود، وينفذ الأحكام الشرعية، ويؤمن السبل، ويرعى أحوال الرعية، جاعلًا نصب عينيه وجوب حراسة العقيدة، وصيانة الأعراض، وحقن

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢٣).

(٢) أخرجه النسائي (١٥٧٨) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، وأخرجه مسلم (٨٦٧)، ولفظه: «.. وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

الدماء، وحفظ الأموال، ويقيم في الأمة علم الجهاد، وشعائر العبادة كالحج والجمع والجماعات، وغيرها من الأمور الَّتي لا تقوم إلا بوجود الإمارة ذات النفوذ المذكور، فهذا أيضًا يجب السمع والطاعة له، والتعاون معه في كل ما من شأنه صلاح الدين والدنيا، ولا يجوز الخروج عليه بحال بحجة أنه وصل إلى الإمارة بطريق الظلم والقهر لمن كان قبله، ولا مانع يمنع من مبايعته بعد أن يمكن اللَّه له في الأرض، ويصبح صاحب شوكة وسلطان، لاسيما إذا كان ذا اهتمام بأمر الدين والدنيا.

ولا يشترط أن يكون سلطانه وولايته على الدنيا كلها لعدم قدرته على ذلك، ولقد أبعد النجعة من يرى أن لا بيعة شرعية إلا لأمير المؤمنين المنتظر الذي سيأتي في آخر الزمان، كما صرح بذلك بعض طلبة العلم المعاصرين في كتبٍ مطبوعة وأشرطة منشورة.

تنبيه: أما نحن في المملكة العربية السعودية علماء وعقلاء وعامة، فإننا نعلنها صريحة ظاهرًا وباطنًا بأن في أعناقنا بيعة شرعية لملك المملكة العربية السعودية عبد اللَّه بن عبد العزيز، الوفاء بِها واجب شرعي بشرطه، ونعتبر ذلك نعمة عظمى كلما أرسلنا النظر إلى دنيا البشر شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا.

نعم: إننا نعتبر إمامته علينا رحمة، وولايته شرعية تستدعى البيعة الشرعية، لأنه يحرس أصل الدين وقاعدته، ويفتح حقول العلم الشرعي الشريف في بلادنا المملكة العربية السعودية؛ بل وخارجها مما لا يحتاج مني إلى إقامة الأدلة والبراهين، ولأنه ينفذ أحكام الشريعة الإسلامية من فرائض وواجبات وحدود وشعائر في شعبه الذي استطاع أن يبسط عليه سلطانه؛ بل ويرعى مصالح الرعية دينًا ودنيا، ويرعى كثيرًا من مصالح الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربِها كما هو واضح لكل ذي عينين صاحب عدل وإنصاف.

ونحن إذ نقول هذا : فإننا أيضًا لا نَدَّعي لولاة أمرنا الكمال في كل شيء، فالكمال عزيز في دنيا البشر، ولا ندعي لهم العصمة من الوقوع في الخطأ، كلا فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وننصح لهم من صميم قلوبنا، وندعو لهم سرًّا وعلنًا أن يكونوا معتصمين بحبل اللَّه المتين، وكتاب اللَّه المبين، ورسالة الرسول الصادق الأمين، عليه أتم الصلاة وأزكى التسليم من اللَّه أرحم الراحمين إذ بذلك تبرأ الذمم، وتدوم النعم، وتدفع المحن والنقم ويمكِّن اللَّه في الأرض: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أعود فأقول: أما البيعة لزعيم منظمة أو حزب أو شيخ طريقة سواء في دولة إسلامية أو غير إسلامية فإنَّها باطلة ولا أساس لها في شرع اللَّه، ولا صلاح يترتب عليها؛ بل الفساد والإفساد في الأرض حليفها، واللَّه المستعان.

ت- ومنها بدعة سرية التنظيم الذي جرَّ على الدعوة والدعاة كل سوء ومكروه.

أقول: إن المتتبع لتاريخ دعاة السلف الصالح يجد أن دعوتَهم إلى اللَّه كانت ظاهرة معلنة تتسم بالحكمة والموعظة الحسنة، يستفيد منها الصغير والكبير والغني والفقير والذكر والأنثى والحر والعبد والحاكم والمحكوم، إلا من أبى وشرد منها شراد البعير على أهله ممن قال اللَّه فيهم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وما ذلك إلا لأن علماء السلف الصالح فقهوا أن الإسلام قد انتشر في أرض اللَّه طولًا وعرضًا، وأصبح كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ في متناول كل يد من أيدي العباد عربهم وعجمهم قاصيهم ودانيهم، وأصبح كل مسلم حتى ولو كان في دول الكفر يعلن إسلامه ويؤدي الشعائر التعبدية ويدعو إلى الإسلام في حدود

قدرته واستطاعته الَّتي لا يطالبه الشرع الشريف بأكثر منها وهذا لا يعني أن الجهاد في سبيل اللَّه لنشر الإسلام قد سقط في مفهوم دعوة السلف على ما وصفت؛ بل إن حكمه باقٍ، ولكن تحت راية وولاية إسلامية تملك القوة في العدد والعدة لترد كيد الأعداء في نحورهم، ويمضي الإسلام في طريقه إلى حيث شاء اللَّه له، لا تحت مظلات الجماعات والمنظمات باسم الحركات الإسلامية الَّتي لا تعرف طريقًا إلى نصرة الإسلام إلا بواسطة التجمعات السرية المظلمة والتخطيط للاغتيالات والتفجير في المنشآت، وإلحاق الضرر بمن لا يجوز إلحاق الضرر به شرعًا وعقلًا، ومحاولة الانقلاب بمن في أيديهم السلطة والقوة الَّتي لا طاقة للدعاة إلى اللَّه بِمصاولتهم ومجابَهتهم في دنيا البشر حتى يحكم اللَّه وهو أحكم الحاكمين.

نعم أكرر: إن الدعوة السلفية عبر تاريخ زمانِها ومكانِها ورجالها دعوة ظاهرة صريحة ينتج عنها كل بر وصلاح وأمن وإيمان وأمان، وما ذلك إلا لأصالة الأسس الَّتي قامت عليها، والأساليب الحكيمة الَّتي أُديت بِها، والمقاصد الحسنة الَّتي ترجى من ورائها، بينما كل الجماعات والمنظمات الدعوية المعاصرة الَّتي خالفت السلفيين في منهج دعوتِهم لا تقوم دعوتُهم إلا على التنظيم السري المبتدع ظنًّا منهم أن هذا هو الطريق الصحيح لنجاح الدعوة إلى شريعة الإسلام، ولقد نتج عن ذلك شيء كثير من الآثار السيئة، الَّتي أصابت الدعوة والدعاة في المقاتل، أذكر منها:

١- فتح باب واسع للحكام العلمانيين الذين يحكمون شعوبَهم بالقوانين ليدخلوا منه ويضربوا بيد من حديد على كل من يظنون أنه من منظمة الدعوة السرية، ولو كان بريئًا من الانتماء إلى أي هيئة إسلامية من طبيعة عملها التنظيم السري المظلم، فما ظنك بِمن علمه الحكام العلمانيون أنه من قادتِها أو العاملين فعلًا في حقلها، وما حصل اليوم وقبل اليوم من محاكمة وقتل وسجن وتعذيب

لأهل الدعوة السرية من بعض الحكومات العربية عن الأذهان ببعيد، وذلك بسبب فقد الحكمة في أسلوب الدعوة ومنهجها الصحيح[١].

٢- وجود وحشة ونفرة مستمرتين بين الجماعات ذات التنظيمات السرية في الدعوة وبين كثير من طبقات الناس، وبالأخص بين الجماعات وعلماء السلف، ولا مسوغ لها ولا سبب إلا أن علماء السلف وأتباعهم أبوا إلا أن يكتبوا توجيهات لتلك الجماعات تتجلى في بيان الأخطاء الصادرة منهم، براءة للذمة ونصحًا للأمة.

٣- كما بسبب التنظيم السري - بصفته من شروط نظام الجماعات- وضع الولاء والبراء في غير موضعهما الشرعي فيقرب ويحب من جهة الجماعات من كان من المنتمين إليها أو المؤازرين لها مهما كان حاله، ويقصى ويهجر من قبلهم من خالف الأحزاب والجماعات ولو كان ذا خلق ودين، وخشية لله رب العالمين.

ويطيب لي أن أختم حديثي في هذا الموضوع -موضوع السرية- بِما أثر عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «**إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون عامتهم؛ فاعلم أنَّهم على تأسيس ضلالة**»[٢].

د- بدعة تمييع الدعوة إلى اللَّه بفتح بابِها المصون لبعض انحرافات الصوفية، وإضفاء هالات المدح على بعض زعمائها الضالين الزائغين عن سنن الحق المبين.

---

(١) وأما من أوذوا من قبل الحكام الظلمة وهم من أئمة الدعوة السائرين على منهج السلف فأسوتُهم الرسل الكرام الذين لَم يسلكوا مع الجبابرة مسلك النِّزاع على السلطة، ولا مسلك الاغتيالات لهم، ولا التفجير في منشآتِهم ومركباتِهم ونحوها).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (١ / ١٠٣) (٣٠٧).

وقبل الدخول في مناقشة بعض ما سطره للناس بعض قادة الإخوان المسلمون في قضية هذه البدعة أحب أن أقول: إن غلاة الصوفية أصحاب مخالفة للكتاب العزيز والسنة المطهرة في العقيدة والشريعة والأدب والسلوك وغير ذلك مما هو معروف عنهم ومدون في كتب الردود عليهم.

وبعد: فليعلم طالب العلم والداعية إلى اللَّه أنه لا يجوز لأحد أن يصف الدعوة إلى اللَّه بأنَّها «صوفية» مهما تكلف لها من تأويلات وأورد لها من تفسيرات، ومهما ادعى لهذه التسمية من أهداف وأوجد لها من مسوغات.

ويؤسفنا -أعظم الأسف- أن هذا التصرف قد حصل من المؤسس الأول لجماعة الإخوان المسلمين في مصر بالإضافة إلى ما أضفاه من ثناء ومدح على بعض الطرق الصوفية الضالة وزعمائها الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، بل ويؤسفنا ما أثر عنه من مشاركات في بدع الصوفية وضلالاتِها فعلًا، وتبعه على ذلك الجمع الغفير والعدد الكثير من المسلمين وانطلاقًا من مبدأ تقليد الأتباع للمتبوعين، فقد قام بعض منظري جماعة الإخوان بالتأليف في فضل بعض الطرق الصوفية -لا كثَّر اللَّه من أمثاله وأمثالها- وإليك تبيان ما ذكرت وأنكرت: قال حسن البنا وهو يصف دعوة الإخوان المسلمين:

١- دعوة سلفية.

٢- حقيقة صوفية.

٣- هيئة سياسية.

٤- جماعة رياضية.

إلى آخر الأرقام الثمانية[1].

---

(١) «مجموعة رسائل البنا» (٢ / ٢٢-٢٤).

ولي وقفة مع وصفه للدعوة إلى اللَّه بأنَّها صوفية فأقول: كيف يمكن أن تكون سلفية صوفية ومصادرهما مختلفة اختلافًا كثيرًا، إذ مصادر السلفية الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح بينما مصادر الصوفية تلك الكتب الَّتي تنضح بالشرك والبدع والخرافة والشعوذة والادعاءات الكاذبة وأئمتها هم الزنادقة والقائلون بوحدة الوجود، ولكن عند التأمل في نشأة حسن البنا وتعلقه بشيء من التصوف طيلة حياته لا يستغرب أو يستبعد أن يقول في وصف الدعوة إلى اللَّه إنَّها صوفية.

قال أبو الحسن الندوي[1] في كتابه «التفسير السياسي للإسلام»[2]:

«الشيخ حسن البنا ونصيب التربية الروحية في تكوينه وفي تكوين حركته الكبرى، إنه كان من أول أمره -كما صرح بنفسه- في الطريقة الحصافية، وكان قد مارس أشغالها وأذكارها وداوم عليها مدة، وقد حدثني كبار رجاله وخواص أصحابه أنه بقي متمسكًا بِهذه الأشغال والأوراد إلى آخر عهده وفي زحمة أعماله».

قلت: ثم صرح حسن البنا في موضع آخر من «مذكرات الدعوة والداعية» تحت عنوان «الطريقة الحصافية» حيث قال: «رأيت الإخوان الحصافية يذكرون اللَّه تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة وكنت مواظبًا على حضور دروس الشيخ زهران رَحِمَهُ اللَّهُ بين المغرب والعشاء، فاجتذبتني حلقة الذكر بأصواتِها المنسقة، ونشيدها الجميل، وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين

---

(١) وكم على أبي الحسن الندوي من مآخذ أذكر منها: تفضيله لرجل اسمه (خالد النقشبندي) مؤسس الطريقة النقشبندية على الإمام المجدد شيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.
نعم إن تفضيل أبي الحسن الندوي لزعيم من زعماء الصوفية على ابن تيمية لدليل على انغماسه في الفكر الصوفي المنحرف عياذًا باللَّه من عمى القلوب. انظر لهذا وأمثاله: «القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ» (ص١٣٨-١٣٩).

(٢) (ص ١٣٨، ١٣٩).

من شيوخ فضلاء، وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر اللَّه - تبارك وتعالى -، وتوطدت الصلة بيني وبين شباب هؤلاء الإخوان الحصافية ومن بينهم الثلاثة المقدمون الشيخ شلبي الرجال، والشيخ محمد أبو شوشة، والشيخ سيد عثمان والشبان الصالحون كانوا أقرب الذاكرين إلينا في السن محمد أفندي الدمياطي، وصاوي أفندي الصاوي، وعبد المتعال أفندي سنكل وأضرابهم.

وفي هذه الحلبة المباركة التقيت لأول مرة بالأستاذ أحمد السكري وكيل الإخوان المسلمين فكان لهذا اللقاء أثره البالغ في حياة كل منا، ومنذ ذلك الحين أخذ اسم الشيخ الحصافي يتردد على الأذن فيكون له أجمل وقع في أعماق القلب، وأخذ الشوق والحنين إلى رؤية الشيخ والجلوس إليه والأخذ عنه يتجدد حينًا بعد حين، وأخذت أواظب على الوظيفة الرزوقية صباحًا ومساء وزادني بِها إعجابًا أن الوالد قد وضع عليها تعليقًا لطيفًا جاء فيه بأدلة صيغها جميعًا من الأحاديث الصحيحة وسمى هذه الرسالة "تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الرزوقية" إلى أن قال: وفي هذه الأثناء وقع في يده المنهل الصافي في مناقب حسنين الحصافي وهو شيخ الطريقة الأولى ووالد شيخها الحالي السيد الجليل الشيخ عبد الوهاب الحصافي أمد اللَّه في عمره ونفع اللَّه به»[1].

قلت: ويهمني أن تعلم هنا معنى الطريقة الصوفية -أيَّ طريقة كانت حصافية أو غيرها مما يعد أشهرها بالمئات- ونشأة التصوف وكيفية الذكر عندهم الذي ذكر البنا أنه اجتذب قلبه وملك عليه وجدانه وشعوره، ولعل قائلًا يقول: هذا كان في أول أمره وفي سن الصغر، ونقول له: ومتى كتب مذكرات الدعوة والداعية الَّتي أشاد فيها بالذكر الصوفي -هداك اللَّه-؟!

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» حسن البنا (ص٢٢، ٢٣).

أما معنى الطريقة الصوفية: فهي نسبة إلى شيخ يدعي لنفسه الوصول إلى مرتبة المربي في مصطلح الصوفية، ورحم اللَّه الإمام الشافعي إذ قال: «ما لزم أحد التصوف أربعين يومًا فعاد إليه عقله أبدًا»، ثم وصف الصوفية بالحمق[1].

البنا والطريقة الميرغنية

أقول: إنَّ الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ لم يقصر حبه على الحصافية والحصافيين، بل تجاوز الحدود ففتح قلبه للطريقة الميرغنية والميرغنيين أجمعين أقطابًا وأذنابًا، ويتجلى هذا الحب والتبجيل والتكريم لهذه الطريقة وأهلها في الخطاب الذي ألقاه البنا في دار الإخوان في القاهرة في (٩/٦/١٩٤٨) بمناسبة زيارة شيخ الطريقة في عصره المدعو/ محمد بن عثمان الميرغني وارث أبيه، وهذا نص الخطاب: «إن دار الإخوان لتسعد وتأنس أعظم الإيناس إذ تستقبل هذه القلوب الطاهرة، والنفوس الكريمة، أعلام الجهاد، وأبطال العروبة، وأقطاب قادة الإسلام... وقال: لعل الكثيرين أيها السادة لا يعلمون أننا نحن الإخوان مدينون للسادة الميرغنية بدين المودة الخالصة والحفاوة البالغة الَّتي غمرونا بِها من قبل ومن بعد كلما ذهب مبعوثونا إلى السودان، لا ولكنه دين قديم منذ نشأت هذه الدعوة بالإسماعيلية[2]، ولقد حضرت عام ١٩٣٧م حفلًا للإسراء والمعراج في زاوية وخلوة السيد عثمان الميرغني الكبير ووارثه السيد/ محمد عثمان هو أول من حمل هذا اللواء وبشر به، فهذا تاريخ نتحدث عنه أيُّها السادة لنعبر عما يكنه الإخوان لسماحته من حب

---

(١) يراجع لبحث التصوف كتاب «زهد الصوفية»، وكتاب «مصرع التصوف» وغيرهما كثير.

(٢) من هنا يمكنك أن تفهم بوضوح عمق العلاقة بين دعوة الإخوان وبين الصوفية الظالِمة الملحدة بداية وامتدادًا، ولكن أصحاب الجدل والبدع لو تتناطح الجبال أمام أعينهم وبين أيديهم لاستمروا على ما هم عليه إلا من رحم اللَّه.

ومودة وتقدير لهذا الجميل الذي أسدوه للدعوة في فجر تاريخها»[١].

قلت: وإذا كان هذا هو الواقع فإنني أرى أنه لزامًا عليَّ بل وعلى كل طالب علم يؤمن بوجوب النصيحة أن نقول لأتباع البنا والغلاة في شخصه ومؤلفاته ومنهجه ومن أطراه بقوله:

إن للإخوان صرحًا كل ما فيه حسن
لا تسلني من بناه إنه البنا حسن

وما كان مثل ذلك نظمًا ونثرًا نقول لهؤلاء جميعًا: اتقوا اللَّه ربكم، وأعلنوا براءتكم من تصرف البنا وكافة زملائه حيال الشيعة الإمامية الرافضة الذين قد تبين لنا فساد ما هم عليه من عمل واعتقاد بالأدلة النقلية والعقلية، وحيال الصوفية الضالة المضلة والملحدة في العقيدة والشريعة، بل وحيال كل خطأ خالف فيه هو أو خلفاؤه من بعده شرع اللَّه الكريم فإن الخطأ لا تجوز متابعة أهله عليه مهما كان منزلة صاحبه ومستواه، واستغفروا للرجل فإنه عمل بقدر علمه فأخطأ خطأً فاحشًا يتعلق بأصول الدين قبل فروعه بدون عذر يلتمس له، ولا تأويل يقبل منه فحسبه اللَّه وقد قدم على اللَّه وما منا إلا ويقع في الخطأ، ولكن الواجب بيان الخطأ والإقلاع عنه إنكم إن فعلتم ذلك فقد أصبتم وأحسنتم، وإن أبيتم إلا البقاء على التعصب المقيت لحسن البنا وشيعته - وأعيذكم باللَّه من ذلك- وأحذركم نقمة اللَّه التي أعدها للمجاهرين بالبدع والمعاصي فقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**» وأي مجاهرة أوضح من استمرار سير الإخوان المسلمين على منهج البنا المنحرف في دعوته.

وعليه فإنني لأتساءل قائلًا:

أمثل هذا المشرك الدجال المتعمد للكذب على اللَّه وعلى رسوله يستحق

---

(١) انظر كتاب: «قافلة الإخوان» (٢ / ٨).

مثقال ذرة من تلك الهالة والتكريم والتبجيل الَّتي جرى بِها قلم البنا ونطق بِها لسانه وتفاعلت معها الجماهير الإخوانية؟!

أمثل هذا المدعي ختم الولاية به والطرق الصوفية بطريقته يستحق شيئًا من الثناء والإشادة به وبطريقته الجهنمية الآثِمة؟!

أمثل هذا الذي يرفع منْزلة نفسه فوق منْزلة كل نبي مبعوث ورسول مرسل يستحق شيئًا من محبة المسلمين ومودتِهم؟!

أين الحديث عن الولاء والبراء أَرْفِعَ من شريعة الإسلام؟! «لا» ولكن الهوى يُعمِي ويُصِم!

أمثل هذا الذي يُري عينيه ما لَم ترياه حقًّا بدون خوف من اللَّه ولا استحياء منه ولا من صالحي خلقه يستحق أن ينادى هو وأذنابه بأبطال العروبة وأقطاب قادة الإسلام، ويوصفون بأصحاب القلوب الطاهرة والنفوس الزكية؟! سبحانك ربنا وبحمدك، إن هذا الصنيع لإثم عظيم وإن أثره على الأمة لسيئ جسيم.

وبعد هذا: فعلى جماعة الإخوان التابعين لحسن البنا عمومًا أن يراجعوا حسابَهم قبل فوات الأوان، وعلى فرقة الإنشاد الذين أنشدوا: إن للإخوان صرحًا... إلخ منهم أن يرفضوا الغلو في شخص حسن البنا، لا أقول ذلك حسدًا له -معاذ اللَّه- ولكن رحمة بالشباب وبمن هم في مستوى الشباب الذين انقادوا لدعوة الإخوان، انقياد العميان الأغبياء، وخروجًا من تبعة الغش الذي حرمه اللَّه على ألسنة الرسل وجميع الأنبياء والحديث عن مثل هذه المآسي موصول إن شاء اللَّه.

* * *

ن:

وَمَنهَجُ التَّبلِيغِ ذَاكَ المُحدَثُ كَم قَادَةٍ يَا قَومِ فِيهِ أَحدَثُوا
مِن بِدعَةٍ فِي الدِّينِ لَم تَكُن عَلَى عَهدِ الرَّسُولِ وَالصِّحَابِ الفُضَلَا
كَبَيعَةِ الصُّوفِي وَتَركِ المُنكَرِ مِن دُونِ إِنكَارٍ تَعَجَّب وَانظُرِ
شِعَارُهُم اخرُج وَبَيِّن يَا فَتَى وَالعِلمُ فَيضٌ عِندَهُم قَد ثَبَتَا
بِسَبَبِ الخُرُوجِ لِلبَيَانِ وَدَعوَةُ الدَّاعِ شِعَارٌ ثَانِ
وَغَيرُ هَذَا مِن تَصَرُّفٍ عَرِي مِن زَهرَةِ الحَقِّ وَحُسنِ المَخبَرِ
هَذَا قَلِيلٌ مِن كَثِيرٍ فَاعلَمَن مِن فِرَقِ الشَّرِّ وُقِيتَ مِن مِحَن

الشرح: هذه الأبيات التي تتعلق بالحديث عن فرقة التبليغ المعدودة من الفرق المبتدعة، وقد كتبتُ عن هذه الجماعة في كتب متعددة ومطبوعة ومتداولة في العالم، ومنها «الأجوبة السديدة عن الأسئلة الرشيدة» في الجزء الثالث والجزء الخامس، وفي «الأجوبة المختصرة على الأسئلة العشرة» وحسبي في هذه الأبيات ما دونته، بيد أني سأوضح بمنثور الكلام منظومه، لما في ذلك من الفائدة لكل من قرأ المنظوم والمنثور:

فأقول: جماعة التبليغ جماعة حركية كبرى قديمة في تأسيسها، ونشأتُها مخالفة لمنهج الدعوة السلفية في التنظيم والأهداف والوسائل، بالإضافة إلى فساد الاعتقاد والتصرف عند كثير من أمرائها ونوابِهم -هداهم الله-، وقد لاحظ على منهج هذه الجماعة في دعوتِهم وعلى أمرائها جماعةٌ من أولي العلم والبصيرة بمنهج الدعوة السلفية الأصيل، منهم من كتب عنها استقلالًا، ومنهم من كتب عنها ضمن بحوثه العلمية الدعوية استطرادًا، أذكر منهم على سبيل المثال:

الشيخ حمود التويجري في رسالته «القول البليغ في التحذير من جماعة

التبليغ»[1].

والشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين في رسالته المطبوعة: «الدعوة إلى الله تعالى وما اختصت به جزيرة العرب».

والشيخ نزار بن إبراهيم الجربوع في رسالته: «وقفات مع جماعة التبليغ».

والشيخ محمد أمان بن علي الجامي ضمن كتابه: «أضواء على طريق الدعوة».

والشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان في مقدمته لكتاب: «منهج الأنبياء في الدعوة فيه الحكمة والعقل» وفي كتابه: «ثلاث محاضرات».

والشيخ ربيع بن هادي المدخلي ضمن أبحاث كتابه المذكور.

والشيخ بكر أبو زيد في كتابه: «حكم الانتماء» المتعلق بالرد على الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية وربط جميع الأمة المسلمة بمنهج النبوة الحكيم ودعوة السلف الصالح إليه، المتميزة في الغاية والوسيلة عن جميع الدعوات الوافدة إلى جزيرة العرب.

والشيخ ميان محمد أسلم في رسالته: «جماعة التبليغ» وكثيرًا ما ينقل منها ويعزو إليها.

والشيخ سعد بن صالح السحيمي ضمن أبحاث كتابه القيم: «تنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار».

والدكتور صالح بن عبد الله بن عبد الرحمن العبود ضمن أبحاث رسالته -الدكتوراه-: «عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي».

---

(١) وقد تم طبعها في (٣٥١) صفحة من القطع الوسط.

وغير هؤلاء ممن لَم تحضرني أسماء كتبهم حال تدويني لهذا البحث، وفيما يلي رءوس أقلام مما كتب هؤلاء الناصحون الذابون عن حوزة السنة والحامون منهج السلف في جميع مراتب الدين ودعوة الخلق إلى رب العالمين -عن منهج هذه الجماعة وأمرائها وتحذير الخلق من الانتماء إليها.

أ- المؤسس لهذه الجماعة:

* المؤسس الأول لجماعة التبليغ هو محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي.

* المولود عام (١٣٠٢)، مات عام (١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م).

* حفظ القرآن، وقرأ الكتب الستة في الحديث، على المنهج الديوبندي، الحنفي مذهبًا، الأشعري الماتريدي عقيدة، الصوفي طريقة.

* أخذ البيعة الصوفية على يد الشيخ/ رشيد أحمد الكنكوهي، ثم جددها بعد موت الشيخ/ رشيد على يد أحمد السهارنفوري الذي أجازه في مبايعة غيره على النهج الصوفي المعروف، كان يجلس في الخلوة عند قبر الشيخ/ نور محمد البدايوني، وفي المراقبة الجشتية عند قبر عبد القدوس الكنكوهي الذي كانت تسيطر عليه فكرة وحدة الوجود[١].

ورث إمارة الجماعة بعد موت محمد إلياس ابنه محمد يوسف الكاندهلوي وكان قد تلقى البيعة من أبيه في حياته نيابة عن رسول الله ﷺ، ويزعم معاصروه أن جميع صفات الوالد المورث ومميزاته الدينية انتقلت إلى الولد بعد موت أبيه[٢].

كما ورث الإمارة من بعد محمد يوسف: إنعام الحسن، وهو الأمير الحالي

---

(١) «الإمام السرهندي حياته وأعماله». أبو الحسن الندوي (ص١١٨) بواسطة: «حقيقة الدعوة إلى الله تعالى»، لسعد الحصين.

(٢) «جماعة التبليغ»، ميان محمد أسلم، بواسطة المصدر السابق.

للجماعة، وحوله عدد كثير من الأمراء من قدماء الجماعة في القارة الهندية، مهمتهم المحافظة على سير نظام الجماعة المرسوم لئلا يدخله تغيير أو تبديل، ومراكزها الرئيسية ثلاثة، وهي:

١- دلهي.

٢- رائي وند.

٣- دكا.

ومعظم الأمراء المنفذون من أصول هندية أو تحت إشراف هندي لئلا يتسرب إلى نظام الجماعة تغيير، بل يؤخذ النظام بكامله مع الرضا والتسليم، وهم في جميع شئونهم يرجعون إلى الأمير العام صاحب الولاء التام والطاعة العمياء من الجميع.

* **أما أهداف الجماعة الَّتي يسعون لتحقيقها ويحصرون دعوتَهم فيها - ويا ليتها على الوجه الصحيح؛ بل فسروها بتفسير غير صائب- فهي ستة:**

١- **تحقيق الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللَّه، محمد رسول الله»** ومدلولها عندهم ومقصودها: هو إخراج اليقين الفاسد من القلب على الأشياء وإدخال اليقين الصحيح على ذات اللَّه، أنه لا خالق إلا اللَّه، ولا رازق إلا اللَّه ولا مدبر إلا اللَّه، أي: قصر معناها على توحيد الربوبية الذي أقر به الكفار ولَم يدخلهم في الإسلام، ونعوذ باللَّه من الجهل وبالأخص في أصل الدين وقاعدته.

٢- **الصلاة ذات الخشوع والخضوع، وأقول:** كيف تكون الصلاة ذات خشوع بدون معرفة لأحكامها من كتب الحديث الشريف والفقه الإسلامي.

٣- **العلم بالفضائل لا المسائل مع الذكر، وأقول:** لا نعرف الفضائل إلا من أحكام الشريعة ومسائلها.

٤- **إكرام المسلم، وأقول:** لا يتم إكرام المسلم إلا بعلم شرعي؛ لأنه

عبادة، وأين أنتم يا جماعة التبليغ مما سبق ذكره؟!

٥- تصحيح النية، وأقول: لا يكفي حسن النية؛ بل لا ينفع مع مخالفة العمل للصواب كخروج جماعة التبليغ وما هم عليه من مخالفات ضلوا بها أنفسهم وأضلوا بها غيرهم.

٦- الدعوة إلى اللَّه، والخروج في سبيل اللَّه، وعلى منهج التبليغ المجرد من النهي عن المنكر ولو كان شركًا باللَّه أكبر[1]، **وأقول:** لا تكون الدعوة إلى اللَّه خروجًا في سبيل اللَّه إلا إذا كانت على منهاج النبوة لا على منهاج جماعة التبليغ.

*** وأما المصادر الَّتي يأخذون منها العلم فمنها الخاص ومنها المشترك.**

أما الخاص بالعرب: فرياض الصالحين مع قراءة سور قليلة من المفصل.

وأما الخاص بالعجم - وما أكثرهم-: فهو كتاب «تبليغي نصاب» لمؤلفه محمد زكريا كاندهلوي في فضائل الأعمال، وهو كما ذكر الأخوان: الجربوع والحصين: كتاب مملوء بالبدع والخرافات والشركيات.

وهذه أمثلة من نصوصه البدعية والخرافية الَّتي لا يوجد لها أصل في كتاب ولا سنة ولا عمل صحابي ولا عمل عالم من العلماء الذين يعتد بِهم إلى يومنا هذا:

١- اللهم صَلِّ على روح محمد في الأرواح، اللهم صَلِّ على جسد محمد في الأجساد، اللهم صَلِّ على قبر محمد في القبور... إلخ.

أقول: أين يوجد هذا الذكر من كتب الأذكار الشرعية؟!

٢- اللهم صل على سيدنا مُحمَّد، بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان

(١) المصدر السابق مع «وقفات مع جماعة التبليغ».

حجتك، وعروس مملكتك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك، والمتقدم من نور ضيائك.

٣- السلام عليك يا رسول اللَّه من زكريا بن يحيى الكاندهلوي يستشفع بك إلى ربك[١].

٤- ومن شعر بعض مشايخهم قوله:

يا شفيع العباد خذ بيدي ... أنت في الإضطرار معتمدي
ليس لي ملجأ سواك أغث ... مسني الضرار سيدي سندي
غشني الدهر يا بن عبد الله ... كن مغيثًا فأنت لي مددي
ليس لي طاعة ولا عمل ... عندي حبيتك فهو لي عتدي
يا رسول الإله بابك لي ... من غمام الغموم ملتحدي[٢]

وأما المشترك: فكتاب «حياة الصحابة» لمؤلفه محمد يوسف الكاندهلوي أمير الجماعة الثاني، وكم فيه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة مما هو غير خَافٍ على من اطلع على الكتاب المذكور.

*** وأما الطرق الصوفية الَّتي تأخذ البيعة من المنتظمين في الجماعة عليها فهي:**

١- الجشتية.

٢- النقشبندية.

٣- القادرية.

---

(١) وكتاب آخر يسمى كتاب «فضائل الحج» وفيه قصة أحمد الرفاعي صاحب الطريقة، وقد تقدم تدوينها في المآخذ على الإخوان.

(٢) عن كتاب «نظرة عابرة اعتبارية في الجماعة التبليغية» لمؤلفه سيف الرحمن أحمد، وعنه «وقفات مع جماعة التبليغ» للشيخ الجربوع (ص٧١).

٤- السهروردية .

وأما الأمور المحظورة لدى الجماعة فقد ذكرها الشيخ/ نزار بن إبراهيم في كتابه «وقفات مع جماعة التبليغ» بقوله : «من أصول الجماعة : منع أفرادها من الخوض في المسائل الاعتقادية -مثل التوحيد- أو المسائل الفقهية ؛ إذ ترى الجماعة أن ذلك يفتح عليها أبوابًا من الشر وينفر المسلمين عنها ، وقد يتسبب في إيجاد عقبات أمام الدعوة ، ومحظور أيضًا طلب العلم في صفوفها ، ولو طلب العلم أحد من أفرادها لمنعوه كما حدث لبعض الإخوة ، كذلك فإن من منهجهم عدم إنكار البدع والانحرافات الَّتي يتلبس بِها الناس بل الأمر أشمل من ذلك ؛ فهم لا يرون أصلًا مبدأ إنكار المنكر ويكتفون بالأمر بالمعروف فقط»[١] .

قلت : ويشهد لما ذكره الشيخ نزار ما حصل لبعض إخواننا الدعاة إلى اللَّه في المنطقة الجنوبية حيث رغب الخروج مع جماعة التبليغ ليكون مشاركًا لهم في الدعوة إلى اللَّه وموجهًا لهم كذلك ، وكان قد طبع كتابًا[٢] محتويًا على بيان عقيدة السلف الصالح ومنهجهم في الدعوة إلى اللَّه وشروط الداعية المستمدة من الكتاب والسنة وعمل ذويها ، ومحتويًا أيضًا على كثير من مسائل الفقه الإسلامي وآدابه وفضائله ، فقام بتوزيع نسخ الكتاب على بعض أفراد فرقته فبلغ ذلك أميرهم فعاتبه عتابًا شديدًا وأوقف توزيع الكتاب حفاظًا على نظام الجماعة الصادر من قيادته العليا ، فأدرك أخونا خطر السير مع هذه الجماعة الَّتي تحب الغث وتبغض السمين الثمين ، فتركهم وأقبل على المشاركة في مدارسة العلوم الشرعية ونشرها على أصول أهل الدعوة السلفية أهل السنة والجماعة ،

---

(١) المصدر السابق (ص١٣).

(٢) وأنا أعرف الكتاب الذي وزعه هذا الداعية الملوم من قبل الجماعة عدد صفحاته (٣٤١) صفحة، وعدد نصوصه من الكتاب والسنة (٦٠٣، ستمائة نصًّا وثلاثة نصوص)، ومسائله من غرر المسائل وجواهر الفضائل، غير أن الجاهل بالشيء يعاديه .

والحمد لله الذي إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه وفتح لأهله أبوابه، فضلًا منه ورحمة، وهو الغفور الرحيم، وهادي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومِمَّا كتبه العلامة الشيخ صالح بن عبد اللَّه الفوزان -حفظه الله- عن هذه الجماعة قوله: «وجماعة أخرى تنتمي إلى الدعوة لكنها تسير على منهج آخر يختلف أيضًا عن منهج الرسل فلا تعير العقيدة أهمية، وإنَّما تَهتم بجانب التعبد وممارسة بعض الأذكار على نَهج الصوفية، ويركزون على الخروج والسياحة والذي يهمهم استقطاب الناس معهم دون النظر إلى عقائدهم.

وهذه كلها طرق مبتدعة، تبدأ من حيث انتهت دعوة الرسل، وهي بِمثابة من يعالج جسدًا مقطوع الرأس من الجسد، والمطلوب من هذه الجماعة أن تصحح مفاهيمها بمراجعة الكتاب والسنة لمعرفة منهج الرسل في الدعوة إلى الله»(١).

ومِمَّا كتبه شيخنا العلامة/ محمد أمان بن علي الجامي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الجماعات المعاصرة تحت عنوان «النفرة وعدم الانسجام» حيث قال: «توجد في العصر الحديث جماعات تدعو إلى اللَّه ولكنها في الغالب تتخبط على غير بصيرة، فالواجب على دعاة الحق أن يكونوا على بصيرة فاهمين ما يدعون إليه، ومتصورين له ومؤمنين به: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: من الآية ١٠٨].

هاتان صفتان لأتباع محمد -عليه الصلاة والسلام-:

١- القيام بواجب الدعوة.

٢- أن يكسبوا البصيرة قبل أن يشرعوا في الدعوة، والبصيرة هي العلم الذي مصدره الوحي والفقه الدقيق الذي يستفيد منه الداعية الحكمة وحسن الأسلوب

---

(١) بواسطة الأجوبة السديدة (٢) لراقم هذه السطور.

وكسب القلوب والتحبب إلى الناس دون تَملق ولا نفاق، والتحاب بين المسلمين عامة وبين الدعاة خاصة أمر ضروري لحياة الدعوة بل سبب لرضا الرب تعالى ودخول دار الكرامة: «**ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[١].

ومما تشكوه الدعوة الإسلامية هذا اليوم: النفرة وعدم الانسجام وقلة التعاون بين الجماعات الَّتي تتصدى كل واحدة منها للدعوة إلى اللَّه، وفي الواقع أن أكثر تلك الجماعات بحاجة ماسة إلى من يدعوهم إلى اللَّه ويبصرهم في دينهم حتى يكونوا مؤهلين أولًا في أنفسهم للدعوة بالقضاء على التنافر فيما بينهم وتنافر مناهجهم وبرامجهم في العمل.

وهذه الجماعات أشبهها بالأحزاب السياسية المتنافسة لمصالحها الشخصية وأغراضها الذاتية، وهي ذاتُها محنة من المحن، ومشكلة من المشاكل للدعوة والدعاة معًا إذا هي بقيت على وضعها ولَم تعد النظر في سلوكها ومنهج عملها وبرامجها وأساليب دعوتِها وسياستها، فخطرها على الدعوة يفوق كل خطر يهدد الدعوة من خارجها[٢]، فعلى هذه الجماعات أن تدرس تاريخ الدعاة الأولين من الصحابة والتابعين الذين نطق بِهم القرآن، وبه نطقوا، والذين انتشر الإسلام بدعوتِهم بل عليهم أن يفهموا الدين كما فهم أولئك السادة، ويسيروا سيرتَهم وينسجوا على منوالهم مع ملاحظة المناسبة في العصر الحديث والملابسات والظروف وأحوال الناس، وإن لَم يسلكوا هذا المسلك فسوف لا يكتب للدعوة أي نجاح أو أي تقدم لأنه عمل لَم يستوف الشروط وهو عمل غير صالح» إلى أن قال: «نعم ينطلي أسلوب هذه الجماعات

(١) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حقًّا يا شيخنا إنَّها باقية على وضعها الذي تعرف ولَم نسمع -مع كل أسف- شيئًا عن تغيير منهج عملها ولا برامجها ولا أساليب دعوتِها، وإذن فالخطر قائم، والحل بيد اللَّه ولا حول ولا قوة إلا به.

على بعض الناس فترة من الزمن ويحسبهم صادقين في دعوتِهم لكثرة لمعان الأسلوب، ولكنه لا ينطلي على اللَّه الذي بيده النجاح والتوفيق، فعليهم أن يراقبوا اللَّه وحده؛ لأنه هو الذي له الأمر كله وبيده الخير كله لا إله إلا هو ولا رب سواه وهو المستعان»[١].

ومِمَّا كتبه أخونا الفاضل الشيخ/ صالح بن سعد السحيمي -حفظه اللَّه ونور بالهدى والعلم بصيرته- في قاسم مشترك بين الجماعات المعاصرة المخالفة لمنهج السلف الصالح في العقيدة ومنهج الدعوة إلى الله- قوله: «وإن المتتبع لهذه الجماعات الَّتي ظهرت في هذا العصر وما هي عليه من مناهج يمكن أن يخرج بالنتائج التالية:

١- اتفاق الجماعات على إهمال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة بدعوى أن هذا المسلك يفرق الأمة، وكأن الدعوة إلى العقيدة سبب تفرق الأمة، وذلك يخالف المنهج الذي جاء به النَّبِي ﷺ وسار عليه أصحابه من بعده وكذلك من تبعهم بإحسان.

٢- الجهل المطبق بأحكام الشرع لدى هذه الجماعات بل يصل إلى حد الجهل بأبسط قواعد الإسلام.

٣- إضفاء هالة من المدح والثناء على زعماء تلك الجماعات حتى ولو كانوا جهالًا، أو ليسوا من الراسخين في العلم.

٤- إيهام الجاهل بأنه عالم ومؤهل للدعوة إلى اللَّه تعالى محتجين بقول النَّبِي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[٢]، ولا شك أن الحديث صحيح، وأن كل مسلم عليه واجب أن يبلغ ما علم، لكن بعد أن يكون مؤهلًا لأن يكون ممن قال فيهم النَّبِي ﷺ:

---

(١) انظر كتاب: «أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام» (ص١٩٢-١٩٤) طبعة ثانية.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

«نضر اللَّه امرأً سمع منا حديثًا فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلغ أوعى من سامع»[١].

وأما أن يتصور أحد أن مجرد الانتساب إلى الجماعات والبيعات ومباشرة طقوسها كالخروج والسياحة في الأرض وإلقاء البيانات[٢] الَّتي لا تعدو أن تكون حشوًا من القصص الخيالية والرؤى المنامية والكرامات المدعاة الَّتي يضلون بِها العامة، ويبهرجون بِها على ضعاف الإيمان والجهلة، وهذا بلا شك تصور خاطئ، بل هو جهل فاضح، وزلل فادح لا يمكن أن يصدر من ذي بصيرة وعلم وعقل راجح.

٥- الخلط بين السنن والبدع، واختفاء معالم السنن لدى هذه الجماعات، بل وجود هذا التحزب والانتماء إلى الجماعات بدعة لا سابقة لها في الإسلام.

٦- استقطاب كل الفرق الَّتي تدعي الإسلام وانضواؤها تحت لواء تلك الجماعات بدون تمييز بين سني ورافضي، وباطني وصوفي غالٍ، فهم كحاطب ليل يجمع ما هبَّ ودبَّ، فهو يحطب العقرب والحية مع العود والخشب، هذا غيض من فيض مما يعد قاسمًا مشتركًا بين الجماعات الحزبية»[٣]. اهـ

هذا وإن الرسالتين المتبادلتين بين الشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين -الذي عمل في جماعة التبليغ وقتًا طويلًا- وبين إنعام الحسن الأمير العام لجماعة التبليغ حاليًّا، وفتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، لتعتبر من الوثائق التاريخية الَّتي ينبغي أن يرجع إليها ويعول عليها، فقد تضمنت رسالة الشيخ سعد ابن عبد الرحمن الحصين ما يأتي:

أولًا: الانزعاج الذي أصيب به الشيخ سعد حينما بلغه بواسطة نفر من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٤).

(٢) كجماعة التبليغ مثلًا.

(٣) «تنبيه أولي الأبصار» (ص٢٥٣- ٢٥٤).

الجماعة أن الأمير إنعام بايعهم وكثيرًا من العرب والعجم على أربع طرق صوفية هي : الجشتية والنقشبندية والقادرية والسهروردية .

ثانيًا : بيان موقف الشيخ سعد من الدعوة ونظامها حيث قال : «**ونجد أنفسنا بين أمرين لا ثالث لهما** :

الأول : إزالة المنكر من منهج الدعوة وخاصة ما أحدث بعد محمد إلياس وخاصة «تبليغي نصاب»[1] ، وعدم تعرض الدعاة من العرب والعجم لبدعة الصوفية ، وتوبة الشيخ القاضي عبد القادر من شركه المتمثل في كتابه «تَمائم» المملوء بالطلاسم أو إبعاده عن المركز في رائي وند . . . غفر اللَّه لنا وللجميع .

الثاني : أن نحاول -بعون اللَّه وحوله وقوته- عزل الدعوة عن مركزها في القارة الهندية ، وبيان ضلال الضالين من القائمين عليها والتحذير منهم ردًّا على ما فعلناه من قبل من الذب عنهم عندما كنا على جهل بالخفي من أحوالهم ، ونبرأ إلى اللَّه من كل بدعة وصاحبها .

وتضمنت رسالة الرد من أمير الجماعة ما يأتي :

١- المراوغة البعيدة عن الصدق والإنصاف حرصًا منه على ستر مخازي القيادة الَّتي تنفذ من قبل أمراء الجماعة ومعظم منسوبيها ، وحرصًا كذلك على بقاء الشيخ سعد في صفوف الجماعة ، ولكن لا على أساس شيء من التغيير بل على ما كان عليه قبل أن يظهر له ما كان خافيًا عليه من البدع والضلال في القيادة وصفوف الجماعة إلا ما قَلَّ منها .

٢- الاعتراف بأخذ البيعة بحجة المحافظة على الجماعة وكونِها تحت إلحاح منهم ، ولأنه إذا لَم يبايعهم فسوف ينصرفون إلى المبتدعة والمنحرفين ، فيبايعونَهم ويضلون عن سواء السبيل .

---

(١) تبليغي نصاب معناه : «منهج التبليغ» أو «المقرر في منهج التبليغ» .

٣- الاعتذار عن كتاب «تبليغي نصاب» الذي قرر على الأعاجم من الجماعة وفيه من البدع والخرافات ما لا يجوز حمله أو تقريره على أحد من الناس فضلًا على الدعاة إلى اللَّه.

كما تضمنت فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء عدم جواز التحزب وتنظيم جماعات تحت ألقاب وشعارات وأنظمة لاسيما إذا كانت مخالفة لمنهج السلف في العقيدة أو العبادة أو الأخلاق والسلوك، أو في منهج الدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله، ولَم تستثن اللجنة إلا التنظيم الذي يتولاه ولي الأمر صاحب السلطان والنفوذ من جعل كل جماعة على عمل من واجبات الدين والدنيا بحسب الحاجات والمصالح الَّتي لا يتم شأن الحياة إلا بِها، ولا يستقيم ميزانُها إلا بإقامتها.

وإذ كان الأمر كذلك فإن من الواجب على المسلمين عمومًا وعلى طلاب العلم خصوصًا أن يسدي بعضهم لبعض النصح الخالص ابتغاء مرضاة اللَّه وخشية عقابه، وإحقاقًا للحق وإحباطًا للباطل، وخروجًا من تبعة الغش والكتمان، وإن أولى الأمور بالمناصحة فيه هو ما يتعلق بدين اللَّه الذي ضحى أسلافنا الأوائل في سبيل نصرته بالنفس والنفيس والغالي والرخيص، ألا وإن روح الدين وقاعدته هو توحيد رب العالمين، وإن خير دعوة إليه هي دعوة سيد الأنبياء والمرسلين فمن تَمسك بِها وسار في خطها القويم بعد الفهم الصحيح فقد هُدِي إلى صراط مستقيم، ومن انحرف عنها وجانب معالمها فقد أمسى وأصبح في خطر عظيم يؤذن بعقوبة عاجلة وآجلة، عياذًا باللَّه العظيم ووجهه الكريم من عذابه الأليم.

هذا ولا يخفى على العلماء وتلامذتِهم وعقلاء الأمة ما كان من الأخطاء الفاحشة والمآخذ الجلية الواضحة الَّتي استدركها طلبة العلم على منهج جماعتي الإخوان والتبليغ، وكذا على قادة الجماعتين وأمرائهم ومنظريهم أصحاب الكتب

المؤلفة والتصريحات المنشورة، وقد أوردت من ذلك أمثلة منسوبة إلى المنهج تارة وإلى بعض دعاته ومنفذيه تارة أخرى لا رغبة مني في أكل لحوم القوم، ولست قاصدًا الإساءة إلى الأحياء منهم ولا الأموات، ولكن ليتضح منهج الجماعتين على حقيقته لطلاب العلم، وليعلم ما في مؤلفاتِهم وتصريحاتِهم المنسوبة إليهم من الخطأ والزلل والبدع والدعوة إليها والتخطيط ليل نَهار لتنفيذها في كل مكان، حتَّى في قطرنا هذا الذي عرف بعقيدته السلفية ومنهجه السلفي وتَميز بِهما علماؤه السلفيون أهل السنة والجماعة حقيقة لا إدعاءً، وقد بلغني - وأنا أدون بحثي هذا- ممن أثق به أن جماعة من طلبة العلم طلبوا منه عدم التصريح بأي بدعة أو خطأ وقع من جماعتي الإخوان والتبليغ معزوًا إليهم، أو إلى أفراد من جماعتهم، مما ذكروه في كتبهم أو صرحوا به في نشراتِهم، أو جعلوه منهجًا يسيرون عليه في دعوتِهم إلى اللَّه إلى يومنا هذا.

وفي نظري أن هؤلاء الطلبة ما رجعوا إلى نصوص الشرع وكتابة علماء السلف في هذه القضية وأمثالها، بل عمدوا إلى استشارة العقل القاصر بحسن نية وجهل بالأمور، وظانين أن بيان بدعة المبتدع الداعي إلى بدعته وبيان خطأ المخطئ المدافع عن خطئه وخطأ إمامه يفرق كلمة الأمة ويشطر صفوفها ويسبب كذا وكذا، ولا شك أن في الاستجابة لهذا المطلب ونظائره إحياءً للبدع وإماتة للسنن وغشًا للحاضرين واللاحقين من المسلمين لا سيما شبابهم.

جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ وقال له: إنه يثقل علي أن أقول: فلان كذا وفلان كذا. فقال: إذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟! وقد تقدم هذا.

يا ترى على أي شيء اعتمد إمام أهل السنة وأفتى بأنه يتعين ذكر المبتدع المعين بما فيه صيانة للسنة وأهلها وإحباطًا للبدعة والدعاة إليها؟

إنه اعتمد على قول الحق: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

وعلى قول المعصوم ﷺ: «الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في بيان وجوب النصح لصالح الإسلام والمسلمين: «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل للإمام أحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصَلَّى واعتكف فإنَّما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل.

فبين أن هذا نفع عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته، ودفع بغي هؤلاء وعدوانِهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لَفَسَد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لَم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً»[٢].

وقال في موضع آخر: (وهذه حقيقة قول من قال من السلف والأئمة: إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتُهم ولا يصلى خلفهم ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون، فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا، ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية؛ لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة، بخلاف الكاتم فإنه

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.
(٢) «الفتاوى» (٢٨ / ١٣١).

ليس شرًّا من المنافقين الذين كان النَّبِي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى اللَّه مع علمه بحال كثير منهم)[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في موضع آخر عند تفسير قول اللَّه تعالى:** ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

قال: (فأمر بعقوبتهما وعذابِهما بحضور طائفة من المؤمنين، وذلك بشهادته على نفسه، أو شهادة المؤمنين عليه، لأن المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة كما جاء في الأثر: «من أذنب سرًّا ليتب سرًّا، ومن أذنب علانية فليتب علانية». وليس من الستر الذي يحبه اللَّه تعالى كما في الحديث: «**من ستر مسلمًا ستره اللَّه . . .**»[٢]. بل إذا سُتِرَ كان ذلك إقرارًا لمنكر ظاهر، وفي الحديث: «**إن الخطيئة إذا خفيت لَم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة**»[٣].

فلذا أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن، ولهذا لَم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة، كما روي عن الحسن وغيره؛ لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له، وأدنى ذلك أن يذم عليه لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته، ولو لَم يذم ويذكر بِما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغترَّ به الناس، وربَّما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه، ويزداد أيضًا هو جرأة وفجورًا ومعاصيَ، فإذا ذُكر بِما فيه انكف وانكف غيره عن ذلك وصحبته ومخالطته.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أترغبون عن ذكر الفاجر؟! اذكروه بما فيه كي يحذره الناس». وقد روي مرفوعًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٧٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٦١٢): موضوع.

والفجور: اسم جامع لكل مجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع على فجور قلب قائله.

ولذا كان مستحقًّا للهجر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورًا أو تَهتكًا أو مخالطة لمن هذا حاله بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه فإن هجره نوع تعزير له، فإذا أعلن السيئات أعلن هجره، وإذا أسر أسر هجره، إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات، وهجرة السيئات هجرة ما نَهى اللّٰه عنه كما قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥])[1].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن فرقة النجاة وهم أهل السنة مأمورون بعداوة أهل البدع والتشريد بِهم والتنكيل بمن انحاش إلى جهتهم بالقتل فما دونه، وقد حذر العلماء من مصاحبتهم ومجالستهم وذلك مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، لكن الدرك فيها على من تسبب في الخروج عن الجماعة بِما أحدثه من اتباع غير سبيل المؤمنين لا على التعادي مطلقًا، كيف ونحن مأمورون بمعاداتِهم وهم مأمورون بِموالاتنا والرجوع إلى الجماعة»[2].

وقال ابن تيمية أيضًا في موضع آخر من الفتاوى[3] في موضوع موقف ولي الأمر من المبتدعين: (وأما سؤال السائل: هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم؟ فنعم، يجب ذلك في هؤلاء وفي كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة فإن ذلك من المنكر الذي أمر اللّٰه بالنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وهو من الإثم الذي قال اللّٰه فيه: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ

(١) «التفسير الكبير» للإمام ابن تيمية، تحقيق الدكتور: عميرة، تفسير سورة النور (٥ / ٢٥٢).
(٢) «الاعتصام» (١ / ١٢٠).
(٣) (١٢ / ٤٦٤).

ﱣ ﭐﻹﺛﻢ ﻭﺃﻛﻠﻬﻢ ﭐﻟﺴﺤﺖ ﱢ [المائدة: ٦٣]) انتهى.

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على قول الإمام هذا ما نصه: (هذا مجمل عرض تاريخي استدلالي على تثبيت هذا الأصل العقدي، ردع البدع والمخالفات والأهواء ومقارعة أهلها وكشفهم ومعرفتهم بأعيانِهم، وإبطال بدعهم خوفًا من عادياتِهم على أهل السنة ونصحًا لهم، بل لله ولرسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم).

وعزا إلى الشاطبي في الاعتصام بعد كلامه هذا مباشرة قوله: (وهؤلاء هم الغرباء الذين يصلحون عند فساد الناس، ويصلحون ما أفسده الناس، وإن تناوشتهم الفرق وناصبوهم العداء وقام عليهم من قام بالتثريب والتعنيف، فلا يزالون في جهاد ونزاع لهم ومدافعة وقراع آناء الليل وأطراف النهار، وبذلك يضاعف اللَّه لهم الأجر الجزيل، ويثيبهم الثواب العظيم)[1].

أقول: وبعد اطلاع القراء الكرام على هذه النقول في هذا الموضوع سيتضح لهم الأمر من أنه لا مانع من التنصيص على أصحاب البدع والداعين إلى بدعهم، ورد كل بدعة وإن صغرت في أعين الناس، لأن هذا أمر وارد في الشرع، فهمه سلفنا الأوائل وطبقوه في حياتِهم العملية، كما رأينا ما نقل عن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل والإمام الحسن البصري والإمام ابن تيمية والإمام الشاطبي وغيرهم كثير، كما أنني ألتمس العذر للإخوة الذين يرون عدم جواز التصريح باسم صاحب البدعة والمجاهر بِها والداعي إليها قبل اطلاعهم على النقول المذكورة وقبل اطلاعهم على أنواع البدع الَّتي وقع فيها جماعة الإخوان وجماعة التبليغ وتضمنتها مناهج الجماعتين، ويقوم بالدفاع عنها الكبير منهم والصغير على حد سواء وبعد ذلك لا يعذرون.

---

(١) «الاعتصام» (١ / ٢٤) وعنه «الرد على المخالف من أصول الإسلام» (ص٤٥).

علمًا أن كل جماعة تدعي أنَّها هي على المنهج الحق الذي كان عليه النَّبِي ﷺ وأصحابه الكرام -عليهم من اللَّه الرحمة والرضوان-، وتدعو المسلمين إلى الانضمام إليها والتقيد بأنظمتها وأساليبها .

ومن المقطوع به عند علماء السلف : أن الحق واحد لا يتجزأ ولا يتبعض .

ومتى قال قائل - وقد قيل - : إن هذه الجماعات يكمل بعضها بعضًا .

قلنا له : ولماذا لا تتنازل كل جماعة عن الأخطاء الموجودة في منهج دعوتِها حتى لا يبقى إلا الحق -والحق عليه نور- مع الجميع فتكون الجماعات جماعة واحدة ذات اسم واحد[1] ومنهج[2] واحد، وحينئذٍ تتوحد الكلمة، ويتصل الصف، وينقطع الأخذ والرد ويزول الخلاف الدائم المستمر؟!

فإن قيل : وما السبيل إلى هذا الاتفاق المحبوب الذي طالما تمنته نفوس الصالحين المصلحين؟!

قلنا : إنه سبيل معروف وسهل ميسور، وذلك أن نجتمع فيما اتفقنا عليه، وأن نرد ما اختلفنا فيه من وسائل الدعوة وغاياتِها بل وفي كل مسألة من مسائل الخلاف إلى ما أنزله اللَّه حكمًا في كل قضية من قضايا الدين والدنيا، ألا وهو كتابه العزيز والصحيح من سنة رسول اللَّه ﷺ ويكون ذلك بواسطة العلماء الربانيين الذين عرفوا بالتمسك بمنهج السلف الصالح، عقيدة وعبادة ومعاملة وأدبًا وسلوكًا ومنهج جهاد ودعوة، فإن هذا الصنف من الناس هم أهل الخبرة الشرعية والفهم الصحيح لدقائق الأحكام وتفاصيل مسائل العلم، ولن يجتمعوا على ضلالة .

(١) أهل السنة والجماعة، أتباع سلف هذه الأمة إلى يوم القيامة .

(٢) هو منهج الأنبياء والوارثين لعلمهم من السلف الصالحين وأتباعهم، من العلم النافع والعمل الصالح إلى يوم الدين .

وحقًّا: أنه متى طبق هذا الحل الشرعي فإنه لا يبقى محل لتعدد تلك الجماعات والمنظمات والأحزاب المختلفة في دعوتها وغايتها، بل ستكون -كما أسلفت- جماعة واحدة متفقة في وسائل المنهج وغاياته، والله المستعان وبه وحده الثقة وعليه التكلان.

ن:

وَمَن يَشَأ خَيرَ الحَيَاةِ وَالرِّضَا ... فَليَتَّبِع حَقًّا سَبِيلَ مَن مَضَى
فِي سُنَّةٍ قَائِمَةٍ نَقِيَّهْ ... وَشِرعَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّهْ
سَارَ عَلَيهَا المُصطَفَى وَمَن عَلَى ... مِنهَاجِهِ عَضَّ فَنِعمَ النُّبَلَا
صَلَّى عَلَيهِ رَبُّنَا وَسَلَّمَا ... وَالآلِ وَالصَّحبِ وَتَابِعٍ سَمَا
يَا رَبُّ وَفِّقنَا جَمِيعًا لِلهُدَى ... وَالعِلمَ حَبِّبهُ إِلَينَا أَبَدَا
أَنتَ الكَرِيمُ وَالرَّحِيمُ يَا صَمَد ... يَا مَن يُؤَمُّ وَعَلَيهِ المُعتَمَد
أَنتَ المُجِيبُ دَعوَةَ المُضطَرِّ ... وَكَاشِفُ السُّوءِ مُزِيلُ الضُّرِّ

هذا وقد ختمت النظم المتعلق ببيان ما وقعت فيه الفرق من الأمور المبتدعة بالدعوة للعقلاء أن يختاروا لأنفسهم خير الحياة وهي الحياة الطيبة المباركة في سبيل أهل السنة والجماعة، وهي سبيل المؤمنين الذي سلكه سلفنا الأوائل، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام عمومًا والخلفاء الراشدون خصوصًا، وتبعهم بقية القرون المفضلة ومن أتى من بعدهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثمَّ بينت أن من مضى تمسكوا بالسنة كما أمرهم نبيهم ﷺ بقوله: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة»**[1].

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٩).

ومع عنايتهم بالسنة هم أيضًا ملتزمون بالشريعة التي جاء بها نبي الرحمة والهدى -عليه الصلاة والسلام-، وذلك بتعلمها والعمل بها ودعوة الناس إليها والعيش في ظلها الوارف الظليل ولم يبدلوا تبديلًا.

وإذ كان الأمر كذلك فإنه يجب علينا أن ننهج نهجهم المستقيم الذي لا اعوجاج فيه؛ لأنه هدي محمد ﷺ الذي بُعث به، ونستقيم على ذلك مخلصين محتسبين الأجر عند اللّه الرحمن الرحيم.

وفي الثلاثة الأبيات الأخيرة دعاء وتضرع إلى الولي الكريم أن يمنحنا جميعًا التوفيق لسلوك طريق الهدى، وأن يحبب العلم إلى نفوسنا لنسعد به في الدنيا والبرزخ والآخرة، وفيها مسك الختام الثناء على ما هو له أهل من قضاء الحاجات وكشف الكربات ومجيب دعوة المضطرين وحده دون سواه.

* * *

فصل

في بيان مراتب الدين الإسلامي إجمالًا عند أهل السنة والجماعة

ن:

مَرَاتِبُ الدِّينِ الحَنِيفِ عِندَهُم ... فَهِيَ ثَلَاثٌ لَا نِزَاعَ بَينَهُم
مَرتَبَةُ الإِسلَامِ وَالإِيمَانِ ... وَالثَّالِثُ الإِحسَانُ يَا إِخوَانِي
تِلكَ الدَّعَائِمُ العِظَامُ أُسِّسَت ... بِصَالِحِ الأَعمَالِ حَقًّا كَمُلَت
أَركَانُهَا مَعلُومَةٌ شَهِيرَه ... فِي سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ مُنِيرَه
فَخَمسَةٌ مِنهَا لِإِسلَامٍ أَتَت ... وَسِتَّةٌ مِنهَا لِإِيمَانٍ بَدَت
وَوَاحِدٌ مِنهَا لِإِحسَانٍ سَطَع ... طُوبَى لِعَبدٍ بِضِيَائِهَا انتَفَع

الشرح: البيان هو الإيضاح والمراتب: جمع واحده مرتبة، والمرتبة هنا هي المنزلة الرفيعة، والدين يطلق ويراد به الدين الإسلامي، كما في هذا الموضع وشبهه، وجمعه أديان ويطلق ويراد به يوم الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والحنيف هو المائل عن الشرك المقبل إلى التوحيد، والضمير في كلمة (عندهم) أي أهل السنة والجماعة، والمراد بأهل السنة والجماعة: الطائفة الناجية المنصورة من السابقين واللاحقين، ومن صفاتهم الرفيعة العناية بالكتاب والسنة رواية ودراية علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا وأمرًا ونهيًا وأدبًا وسلوكًا، تقبل اللَّه جهادهم ورفع قدرهم وأعلى منازلهم في الفردوس الأعلى دار الكمال والجمال وحشرنا في زمرتهم إنه الكبير المتعال.

وهذه الأبيات الستة تضمنت ذكر مراتب الدين الثلاث:

أ- الإسلام.

ب- الإيمان.

ج- الإحسان.

كما تضمنت الإشارة إلى عدد أركان المراتب إجمالًا : فأركان الإسلام خمسة، وأركان الإيمان ستة، وللإحسان ركن واحد، وسيأتي تفصيلها في موضعه إن شاء اللَّه.

وتضمنت أيضًا بيان أن اللَّه أضاء بها الدنيا بعد ظلمتها الشديدة، فاستضاء بها من المكلفين من عالم الإنس والجن من شرح اللَّه صدره لطلبها وتعلمها وللعمل بمقتضياتها فسعد في دنياه وأخراه، وأما من أعرض عنها فلم يرفع بها رأسًا فإنه عاش ويعيش في ظلمات جهله وضلاله، فشقي في دنياه وآخرته.

وأوضح دليل يدل على أن الإسلام والإيمان والإحسان هي مراتب الدين الإسلامي : حديث عمر بن الخطاب ﵁ في الصحيحين وغيرهما والذي سأورده هنا بالرواية التي انفرد بها مسلم عن البخاري لأنها أتمُّ، ولفظها : عن عمر بن الخطاب ﵁ : قال : بينما نحن جلوس عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ : «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**. قال : صدقتَ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال : فأخبرني عن الإيمان. قال : **أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**. قال : صدقت.

قال : فأخبرني عن الإحسان. قال : **أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**.

قال : فأخبرني عن الساعة. قال : **ما المسئول عنها بأعلم من السائل**.

قال : فأخبرني عن أمارتها. قال : **أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة**

العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان.

قال: ثم انطلق، فلبثتُ مليًّا، ثم قال لي: «**يا عمر، أتدري من السائل؟**». قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[١].

أقول: لقد اشتمل هذا الحديث الجليل على فوائد عظيمة تفتقر إلى معرفتها وتطبيقها تطبيقًا عمليًّا الأمة كلها عربها وعجمها وذكورها وإناثها بل إنسها وجنَّها إلا من أبى، إذ إن أمة محمد ﷺ انقسمت إلى قسمين: أمة دعوة، وأمة إجابة.

فأما أمة الدعوة: فهم جميع الثقلين الإنس والجنِّ من وقت بعثة النبي ﷺ إلى يوم القيامة.

وأمة إجابة: وهم الذين استجابوا لدعوة النبي الكريم لهم إلى الدخول في دين الإسلام الذي جاءهم به، غير أنهم انقسموا إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، ولما سئل النبي ﷺ عنها قال: «**هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٢]، وهي الطائفة الناجية من عذاب اللَّه، الفائزة برضا اللَّه ودار كرامته، وأما الثنتان والسبعون الذين في النار فهم قسمان:

قسم يلبثون فيها بقدر معاصيهم من ترك للفرائض والواجبات وارتكاب للمحرمات من كبائر الذنوب التي دون الكفر الأكبر والشرك الأكبر.

وقسم لهم الخلود الدائم: وهم الذين لحقوا بأهل الكفر والشرك والنفاق في العمل فصاروا مرتدين عن الإسلام الذي دخلوا فيه في بداية أمرهم ثم ارتدوا وماتوا على ردتهم ولا يظلم ربك أحدًا.

وبعد هذا العرض فإلى القارئ بعض فوائد هذا الحديث، وهي:

الفائدة الأولى: اشتماله على بيان الدين الحنيف كله.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

الفائدة الثانية: وجوب الإيمان بما احتواه من الإسلام وأركانه، والإيمان وأركانه والإحسان وركنه الأعظم، وما جاء به من علامات الساعة الصغرى التي تم ذكرها في نهايته كما رأيت.

الفائدة الثالثة: وجوب محبة اللَّه -جل وعلا- وتقديره حق قدره؛ فقد رحم الأمة بإنزال وحيه إلى آخر أنبيائه ليبلغه أمته؛ لتكون على بينة من مراد اللَّه منها، وبيان ما ينفعها فتعمله، وبيان ما يضرها فتجتنبه؛ ابتغاء مرضاة اللَّه وخشية عقوبته.

الفائدة الرابعة: أن الملائكة ذات الأجنحة منحهم اللَّه القدرة أن يكونوا في أشكال أخرى بدون أجنحة، فقد جاء جبريل ﵇ بهذا العلم الذي هو الدين كله وهو في صورة رجل جاء نعته في الحديث، فقد قال عمر ﵁: «بينما نحن عند رسول اللَّه إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد»، وجبريل الذي جاء في هذا الوقت في صورة رجل يشبه دحية الكلبي قد رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح وقد ملأ الخافقين؛ أي: مابين المشرق والمغرب، وكم سواه من ملائكة اللَّه الكرام منهم من ذُكِر اسمه في الكتاب والسنة ومنهم من لم يُذكَر اسمه، بل ذُكِروا إجمالًا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

الفائدة الخامسة: الحرص على استيعاب العلم الذي يمليه المعلم، وذلك يكون بالانتباه والإصغاء إلى المعلم بل والقرب منه؛ إذ بهذه الوسائل يتم الضبط، ويندر الوهم وفهم الخطأ؛ لذا كان جبريل قريبًا من النبي ﷺ حتى أسند ركبتيه إلى ركبته ووضع كفيه على فخذيه وشرع في الأسئلة.

الفائدة السادسة: معرفة ما عليه الصحابة الكرام من الفِرَاسة والذكاء الذي فاقوا به من سواهم، وليس أدلَّ على ذلك من قول الراوي: «قال: صدقت.

فعجبنا له يسأله ويصدقه» وسبب التعجب الصادر منه هو أن الغالب على السائل عن العلم أنه غير عالم بالجواب؛ بل إنه يسأل ليحصل له الجواب ومثله لا يقول لمن سأله فأجابه: صدقت؛ لأن المسئول متى صدق السائل فإنه يدل على أن السائل عنده علم ما يسأل عنه من قبل سؤاله، لذا تعجب الصحابة الأذكياء الكرام من هذا التصديق الصادر من هذا الرجل الغريب.

الفائدة السابعة: بيان أن أربعة أمور داخلة في مسمى الإيمان عند أهل الحديث والأثر أهل السنة والجماعة، وهي: النطق باللسان كالنطق بالشهادتين وما والاهما واعتقاد بالقلب؛ أي: ما نطق به اللسان انعقد عليه القلب فتواطأ اللسان والقلب على كل ما وجب نطقه واعتقاده، وعمل بالجوارح كالأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم ونشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأعمال المشروعة المفروضة والمندوبة، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الفائدة الثامنة: في بيان أن مراتب الدين درجات بعضها أرفع من بعض؛ فأعلى الدرجات وأرفعها الإحسان، ويليه درجة الإيمان، ودونهما درجة الإسلام، وطوبى لمن حقق تلك المراتب على وجه التمام.

الفائدة التاسعة: بيان أن علم قيام الساعة اختص اللَّه به فلا سبيل لمخلوق إلى معرفته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا من دونهما وهو من باب أولى، إلا أن النصوص دلَّت أن الساعة تقوم يوم الجمعة لحديث: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلا ابن آدم**»(١).

الفائدة العاشرة: إيضاح أن الخلق في عدم العلم بالساعة متى تقوم سواء،

---

(١) أخرجه النسائي (١٤٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، وانظر: «صحيح مسلم» (٨٥٤).

وأن اللَّه -جل وعلا- استأثر بعلمها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وكما مر بك قريبًا في حديث جبريل المشهور.

الفائدة الحادية عشرة: بيان أن لقرب قيام الساعة علامات كبرى؛ لحديث: **«إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونزول عيسى، وفتح يأجوج ومأجوج، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»**[(١)].

وعلامات قبل ذلك، ومنها: أن تلد الأمة ربتها، وذلك إشارة إلى كثرة السبي الناتج عن كثرة الفتوحات على أيدي دولة الإسلام، وقد أباح اللَّه النكاح بملك اليمين، فإذا حصل فولدت المملوكة ولدًا صارت أم ولد، ويكون ولدها بمنزلة سيدها، ذكر ذلك بعض شُرَّاح الحديث.

ومنها: أن يصبح الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان؛ أي: تغيرت أحوالهم من الفقر المدقع إلى الغنى المشبع، ولعلَّ هذا قد حصل لا سيما في هذا الزمان، واللَّه أعلم.

وسأقتصر على ما ذكرته من فوائد هذا الحديث الجليل المسمى بحديث جبريل والوارد عن النبي ﷺ عن عدد من الصحابة الكرام، والفوائد التي دونتها هنا هي كمثل قطرة من بحر، وما ذلك إلا لأنني بصدد شرح أركان الإسلام وأركان الإيمان وركن الإحسان في الأبواب التالية، وأسأل اللَّه العون والسداد والصواب والإخلاص والقبول في كل ما آتي وأذر؛ كي أظفر بأعظم مطلوب ألا وهو رضا اللَّه وجنته الفردوس، وأنجو من أشد مرهوب ألا وهو سخط اللَّه وأليم عقابه. وإلى الفصول:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠١) من حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاري رضي الله عنه.

فصل في اركان الإسلام

ن:

وَإِن تُـرِدِ مَـعـرِفَـةَ الإسـلَامِ كَـمَـا أَتـى عَـن سَـيِّدِ الأَنَـامِ
فَـهـوَ خُـضُـوعٌ وَانـقِـيَـادٌ وَرِضَـى بِمَا أَتى عَنِ الرَّسُولِ المُرتَضَى
أَركَـانُـهُ نُـورٌ كَـضَـوءٍ مِـن قَـمَـر كَمَا أَتَانَا فِي الصَّحِيحِ عَن عُمَر
أَوَّلُـهَـا الـرُّكـنُ الـكَـبِـيـرُ الأَعـظَـمُ شَـهَادَتَـا حَـقٍّ قَـلَاهَـا مَـن عَـمُـوا
ثُـمَّ الـصَّـلَاةُ يَـا أَخَـا الإِحـسَـانِ أَتـى بِـهَـا الـشَّـرعُ كَـرُكـنٍ ثَـانِ
وَالـثَّـالِـثُ الـزَّكَـاةُ حُـكـمُـهَـا أَتـى فِي مُحكَمِ التَّنزِيلِ نَصًّا مُثبَتَا
وَالـرَّابِـعُ الـصَّـومُ فَـكُـن مُـحَـقِّـقَـا وَالـخَـامِـسُ الـحَـجُّ ظَـفِـرتَ بِـالـبَـقَـا

الشرح: المراد بالركن في اللغة: هو الجانب الأقوى، فمن الأركان ما لا يتم البناء إلا به ومنها ما لا يقوم البناء بالكلية إلا به، وقيل لهذه الخمسة: أركان؛ لقول النبي ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس...**»[(١)] الحديث.

والمقصود به في الشرع: هو الذي إذا سقط لا يجبره شيء؛ بل لا بدَّ من الإتيان به في أي باب كان من أبواب العلم والعمل.

ومعنى الإسلام عند العلماء: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، تحقيقًا لباب الولاء والبراء كما سيأتي.

ومعنى الاستسلام: الذل لله والخضوع له -جل وعلا-، بالتوحيد الذي هو إفراد اللَّه بالعبادات المالية والبدنية.

ومعنى الانقياد لله بالطاعة: أي: أنه لا يكفي مجرد الاستسلام والخضوع؛ بل لا بد أن يكون معهما من الانقياد لأوامر اللَّه وأوامر رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وترك المنهيات طاعة لله وابتغاء مرضاته، ورجاء ثوابه وخوفًا من

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عقابه، وكما يجب على المكلف الانقياد للَّه، فكذلك يجب عليه أن يتبرأ من المشركين وشركهم، وأن يظهر العداوة لهم، ويعلن بغضهم لشدة كفرهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين.

ومن غير شك ولا تردد أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين -عليهم من اللَّه أزكى الصلاة وأطيب التسليم-، وهو دين أتباعهم إلى يوم الدين، قال اللَّه -جلَّ ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومما ينبغي أن ننبه عليه هنا: قضية الولاء والبراء كي يوضع كل شيء في موضعه الشرعي، فإن أوثق عرى الإيمان: الحب في اللَّه والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه والمعاداة في اللَّه، وبذلك ينال العبد ولاية اللَّه، ولا يجوز التفريط في هذا الأمر؛ بل يجب أن يطبقه المؤمنون تطبيقًا عمليًا ظاهرًا وباطنًا.

وقد تضمنت الأربعة الأبيات أركان الإسلام الخمسة.

فالبيت الأول تضمن الركن الأول وهو الشهادتان التي وُفقَ للنطق بهما وقبولهما وقبول ما دلَّتا عليه من المعاني أهلُ التوحيد.

وللشهادتين أركان وشروط ومكملات سيأتي بيانها في فصل لاحق مستقل -إن شاء اللَّه-، وقد أشرت في النظم إلى أن الشهادتين هما الركن الأعظم من أركان الإسلام، وبينت موقف الكفار منها إذ قلت:

أولها الركن الكبير الأعظم ... شهادتا حق قلاها من عموا

والمعنى: أن شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه هما الركن الأعظم من أركان الإسلام الخمسة، وما ذلك إلا لأنهما أصل الدين وقاعدته، فلا إسلام بدون تحقيقهما، ولا قبول للعمل مع فقدهما.

وتضمن البيت الثاني الركن الثاني من أركان الإسلام ألا وهي الصلاة المفروضة في اليوم والليلة خمس مرات، وإقامتها الصحيحة بالإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها على أكمل وجه، واجتناب مبطلاتها ومكروهاتها كذلك، ولا شك أن الصلاة من أعظم العبادات لما اشتملت عليه من اعتقاد القلب والانقياد الحق لله -جل وعلا- والإخلاص فيها له والمحبة لها وكثرة الذكر فيها؛ كالقراءة والتسبيح والتحميد وكثرة الدعاء والاستغفار وعلى سبيل الدوام، وغير خَافٍ على العقلاء ما للذكر الشرعي بكافة أنواعه من أثر مبارك على قلوب الموحدين ونفوسهم وجميع جوارحهم فطوبى للذاكرين اللَّه كثيرًا والذاكرات.

حقًّا -أيها المسلم- إن لهذا الركن العظيم أهمية كبرى في ميزان الشرع الشريف، والأدلة من الكتاب والسنة على ذلك لا سبيل إلى حصرها في هذه التعليقات على منظومة الفروق، بيد أني سأذكر منها القليل، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في معناها: (يأمر اللَّه تعالى بالمحافظة على الصلوات عمومًا وعلى الصلاة الوسطى -وهي العصر- خصوصًا، والمحافظة عليها: أداؤها في أوقاتها وبشروطها وأركانها وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب، وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر خصوصًا إذا أكملها المصلي كما أمر.

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع)[1].

وقال تعالى مبينًا أهميتها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) (١ / ١٧٨).

والمعنى: أن في إقامة الصلاة بما تحمل كلمة الإقامة من معنى منتهى ومزدجرًا عن معاصي اللَّه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من اللَّه إلا بعدًا».

وذلك دليل على عظم شأن الصلاة وتمام أهميتها في ميزان الشرع الشريف.

ومن الأدلة على جلالة قدرها: أن اللَّه لمَّا ذكر صفات المؤمنين الحسنة في سورتي المؤمنون والمعارج بدأها بالصلاة وختمها كذلك بالصلاة.

قال -تبارك وتعالى- في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وقال في آخر الصفات: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

وقال -جل وعلا- في سورة المعارج: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣]، وقال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

ومن السنة الكريمة ما يدلُّ على أهميتها: من ذلك ما ثبت بالنص والإجماع أنها فرضت في السماء ليلة الإسراء والمعراج، بخلاف بقية الفرائض فإنها فُرضت في الأرض ومن ذلك اهتمام النبي ﷺ بشأنها وهو في المرض الذي توفي فيه؛ فقد كان يقول وهو في مرضه الذي توفي فيه: «**الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم**»[1]، فمازال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه ﷺ.

وما ثبت عن أنس رضي الله عنه قال: كانت عامة وصية رسول اللَّه ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، ومثله عن علي -رضي اللَّه تعالى عنه- قال: «كان آخر كلام النبي ﷺ: **الصلاة وما ملكت**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٧٣).

أيمانكم»[١].

ومما ينبغي أن يُعلَم ويُهتَم به: صلاة الجماعة التي بنيت من أجلها المساجد للجمعة والجماعة؛ فإنه لا يجوز لقادر من الرجال أن يتخلف عنها إلا من حبسه العذر الشرعي، ولأهمية صلاة الجماعة فقد حرص عليها النبي ﷺ وأصحابه الفضلاء -رضوان اللَّه عليهم- فصلوا جماعة في جبهات القتال كما في صلاة الخوف؛ إذ قال اللَّه ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] الآية.

وأما الأحاديث الواردة في وصف صلاة الخوف فهي صحيحة ودالة على أداء الصلاة في الخوف على أوجه مختلفة باعتبار موقع العدو من الجيش الإسلامي، فقد يكون العدو في القبلة وقد يكون في غير القبلة، فإذا كان العدو في القبلة فالصلاة على كيفية تختلف عن الكيفية التي يكون العدو فيها في غير القبلة، ومَحَلُّ هذا البحث في كتب الحديث وشروحها.

ولقد جاء في فضل صلاة الجماعة نصوص كثيرة، منها آية صلاة الخوف التي سبق تدوينها ومنها قول اللَّه ﷻ: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقول النبي ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**»[٢] متفق عليه من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**بخمس وعشرين جزءًا**»[٣].

وبجانب الترغيب في صلاة الجماعة، جاء الترهيب من التخلف عنها: ففي السنن من حديث عبد اللَّه بن أبي بصير عن أبيه قال: قدمت المدينة فلقيت أبيَّ بن

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩)، ومسلم (٦٤٩).

كعب فقلت له: يا أبا المنذر، حدثني بأعجب حديث سمعته من رسول الله ﷺ، قال: «صلى بنا -أو: صلى لنا- رسول الله ﷺ صلاة الغداة ثم قال: **أشاهد فلان**- مرتين-؟ قلنا: نعم ولم يشهد الصلاة، ثم قال: **أشاهد فلان، ولم يشهد الصلاة؟** قال: **إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاتك مع رجل أزكى من صلاتك وحدك، وإن صلاتك مع رجلين أزكى من صلاتك مع رجل، وما أكثرت فهو أحب إلى الله**»[١].

ومثل هذا في الترهيب من ترك صلاة الجماعة: ما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ثلاثة في قرية لا يؤذن فيها ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[٢].

ومن ذلك أيضًا: ما رواه مسلم رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من سرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهنَّ من سُنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهَّر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة، ويحطُّ عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٧٥٩)، وأبو داود (٥٥٤)، والنسائي (٨٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٠٣)، وأبو داود (٥٤٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٤).

وغير هذه النصوص معها في موضوع وجوب صلاة الجماعة على القادرين وبيان فضلها بكثرة الأجر فيها كثيرة، وكذا النصوص الواردة في الترهيب من التخلف عنها كما مضى قريبًا، ومعه ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول اللَّه ﷺ قال: **أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا يصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**»[1].

وإذ كان الأمر كما علمت أيها المسلم القادر على حضور الجمع والجماعات في بيوت اللَّه: فارحم نفسك لا تحرمها من أسباب النجاة من عذاب اللَّه، ولا توبقها بالتخلف عن صلاة الجماعة وغيرها مما هو سعي في فكّ رقبتك من النار، «**فكل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[2]. واللَّه المستعان، وهذا المنثور هو ما أجملته بقولي:

ثم الصلاة يا أخا الإحسان أتى بها الشرع كركن ثانِ

والركن الثالث: الزكاة، وهي لغةً: النماء والزيادة، وشرعًا: مال مخصوص من مال مخصوص كذلك لطائفة مخصوصة من المسلمين.

والزكاة قرينة الصلاة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة**»[3] الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١). (٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٨٧).

وهي عبادة مالية نفعها متعدٍّ؛ أي: نفعها يعود على مستحقيها كما يعود على من يعطيها طيبة بها نفسه، وأصحابها الذين تصرف فيهم ذكرهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ الآية.

وتخرج من أصناف المال كبهيمة الأنعام «الإبل والبقر والغنم» والنقدين والخارج من الأرض وعروض التجارة.

هذا ولا يجوز البخل بها ولا اعتبارها مغرمًا بل يجب الفرح بإخراجها؛ لأنها حق فرضه اللَّه في المال لثمانية أصناف، وينبغي أن تعتبر الزكاة مغنمًا لا مغرمًا؛ فكل إنسان يوم القيامة في ظل صدقته كما صحَّ بذلك النصّ[(١)].

ولقد جاء الترغيب في الصدقات عمومًا وعلى رأسها الزكاة المفروضة قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وفي الحديث: «**اتقوا النار لو بشق تمرة**»[(٢)].

وهذا التفصيل المختصر هو الذي أشرت إليه بقولي:

وَالثَّالِثُ الزَّكَاةُ حُكْمُهَا أَتَى ... فِي مُحكَمِ التَّنزِيلِ نَصًّا مُثْبَتَا

والركن الرابع: الصيام، والمقصود به صيام شهر رمضان، وهو عبادة بدنية، غير أنه يمتاز عن سائر الأركان لكونه سرًّا بين العبد وربه لا يطلع عليه حقيقة إلا اللَّه وحده؛ لأن بعض الناس ممن غرهم الغرور قد يكون مفطرًا في نهار رمضان خفية فلا يعلم عنه أحد من الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٨٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن العبد يُجزَى بعمله يوم القيامة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال اللَّه ﷻ: **«إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»**[1]، والعمل به في الحقيقة كلها لله بدليل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وقد خَصَّ الشارع في الحديث المذكور آنفًا الصوم بأنه للَّه، وذلك لما في الصوم من الخفاء عن الغير، وأنه لا يطلع عليه إلا اللَّه، هذا وكم للصيام من فضائل وخصائص جاءت يذكرها نصوص صريحة صحيحة، من تلكم الفضائل:

أن أبواب الجنان تُفتَح لدخوله، وتُغلق أبواب النيران، وتُصَفَّد مَردة الشياطين، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصُفِّدَت الشياطين»**[2].

ومنها: أن الذنوب تغفر لصُوَّامه إيمانًا واحتسابًا، وتعتق الرقاب من النار لقول النبي ﷺ: **«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**[3].

ومن تلكم الفضائل: أن خلوف فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك، كما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«الصيام جُنة؛ فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك، إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، فالصيام لي وأنا**

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.